بحوث ودراسات

في

التاريخ والحضارة الإسلامية

الدكتور/ حسن بن يحيى الشوكاني

أبها

١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩م

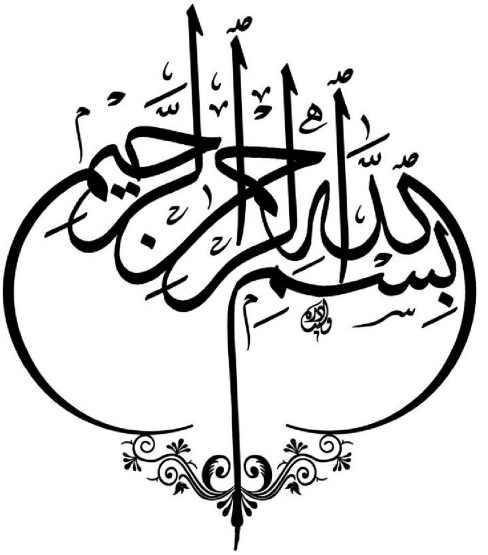
بسم الله الرحمن الرحيم

" تقديم "

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

فهذا مجموع يضم عددا من الدراسات والبحوث العلمية التي أنجزت متفرقة زمنا، ومجتمعة هدفا ومنهجا، وقد سبق نشرها في عدد من الأوعية العلمية المختلفة، ويربط بينها اهتمامها بجوانب من تاريخنا الإسلامي المجيد، فهي تبرز جانبا مهما من التجارب السياسية التي مر بها قطر عزيز لا زالت مجموعة من معالمه التاريخية تستظل بظلال الإسلام الوارفة، مثل قنطرة قرطبة الكبرى، وقصور الحمراء الباذخة وحدائقها المميزة، وإن حجبت عنها شمس الإسلام اليوم.

كما ناقشت هذه الدراسات جوانب من المسيرة الحضارية للوجود الإسلامي في الأندلس، محاولة إبراز إسهام بعض الأسر العربية في دعم التطور الحضاري في جوانبه الفكرية والعلمية مما شهدته الأندلس خلال فترة الوجود الإسلامي بها، وما قدمته تلك الأسر من نتاج علمي ومعرفي، وما اضطلعت به من أدوار قيادية وإدارية وعسكرية في زمن الازدهار الحضاري الإسلامي في تلك الديار، الذي أبهر المجاورين له من الشمال، فسعوا للنهل من معين تلك الحضارة الزاهية، و الاغتراف من علومها ومعارفها المتطورة، أثناء الفترة الزمنية المشرقة من عمر الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية.

كما ناقشت هذه الدراسات إنموذجاً من طرائق وأساليب التكوين العلمي والمعرفي لطلاب العلم في العصور الإسلامية المبكرة، والمتمثلة في " الرحلة العلمية " التي كانت تمثل مكونا مهما من مكونات البناء العلمي لطلبة العلم في العصور المشرقة للأمة الاسلامية، وما نتج عنها من آثار في شخصية طالب العلم، ورقي مستواه المعرفي والثقافي، وتميز في انتاجه العلمي، ودوره التعليمي.

ولعل في تناول مثل هذه الموضوعات ما يسهم في بعث روح العزيمة في الشباب العربي المسلم ليحذوا حذو أجداده في خدمة الإنسانية والمساهمة في البناء الحضاري الإنساني بمختلف مجالاته. والله المرجو أن يعيد لهذه الأمة مجدها التليد، وحضورها الفاعل. أنه القادر على ذلك.

د/ حسن بن يحيى الشوكاني

الأوضاع السياسية في الأندلس
خلال العصر الأموي
"١٣٨- ٤٢٢هـ /٧٥٥-١٠٣٠م"

قضت حكمة الله تعالى أن تكون حياة البشر أطواراً، ينتقلون فيها من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1]، وتبدأ تلك الأطوار بالضعف الذي يعقبه طور القوة والبناء، والجلد والسعي، لينتهي إلى طور الضعف والشيبة وهكذا، قال الله تعالى:(الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)[2].

ويرى ابن خلدون[3] «أن هذه الأطوار ضرورية للدول» حيث تمر الدول بنفس الأطوار التي يمر بها البشر في حياتهم، فتتدرج بين طور النشأة والتأسيس ثم تمر في أطوار التشييد والبناء والتطور والقوة، حتى تصل إلى طور الضعف والتخلخل والانهيار. قال تعالى: (قل اللهم مالك الملك يؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيئ قدير)[4].

وتحقيقاً لهذه السنة الإلهية العظيمة دبَّ الوهن والضعف في جسد الخلافة الأموية بالمشرق، التي بدأت أول أطوارها على يدي الصحابي

(١) نوح، آية ١٤.

(٢) الروم، آية ٥٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، ومراجعة سهيل زكار، ط١ (بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص٢١٥.

(٤) آل عمران، آية ٢٦.

الجليل معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - في سنة ٤١هـ/٦٦١م ثم سلكت أطواراً متتابعة حتى وصلت إلى شيخوختها وضعفها في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، لتنهار تماماً وتسقط في عام ١٣٢هـ/٧٤٩م تحت ضربات جيوش العباسيين التي انتصرت على ولاة الأمويين بالمشرق، ثم تقدمت في العام نفسه باتجاه بلاد العراق وبلاد الشام لتصل إلى نهر الزاب[١] فيهزم جيش بن أمية ويفر الخليفة إلى مصر حيث يتبعه العباسيون فيقتل في

قرية بوصير[٢] من قرى مصر[٣]. وبذلك انتهت خلافة بني أمية في المشرق الإسلامي لتقوم على أنقاضها الخلافة العباسية (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ/٧٤٩ - ١٢٥٨م) التي قام خلفاؤها الأوائل بحملة مطاردة واسعة النطاق لتتبع بقايا أفراد البيت الأموي في كل مكان للقضاء عليهم، واستئصالهم[٤].

(١) نهر الزاب: هو نهر بأرض الجزيرة، يعرف بالزاب الأصغر، يجري بالقرب من الموصل (ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، تحقيق: أحمد أبو ملحم ورفقاه، ط١ (القاهرة دار البيان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٤٤-٤٥. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، ط٢ (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م، ص ٢٨١).

(٢) خليفة بن خياط: المصدر نفسه، ص ٤٠٣، المسعودي: مروج الذهب جـ٢، ط٥(بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٣م، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٣) بوصير: قرية تعرف باسم قرية قوريدس: تقع في صعيد مصر بكورة البوصيرية (الحموي: معجم البلدان، جـ١، بيروت، دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ٥٠٩.

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه، ص٤٠٩-٤١٠.

وكما أمعن العباسيون في البحث عن أفراد البيت الأموي، اجتهد الناجون من مذابح العباسيين وأتباعهم من بني أمية في التخفي والهرب، والنجاة بأنفسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وكان عبدالرحمن بن معاوية بن هاشم بن عبدالملك[1] أحد الناجين من بطش العباسيين، حيث استطاع أن يفر مستخفياً مع أحد مواليه ويتجه إلى بلاد المغرب الاسلامي، ليستقر به المقام بعد رحلة شاقة وطويلة - تعرض فيها للأهوال والمخاطر مرات عديدة - في منازل أخواله بني نفزه[2]، في مناطق جنوب المغرب الأقصى[3].

(١) هو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، يكنى أبا المطرف مولده بالشام سنة ثلاث عشرة ومائة للهجرة، وأمه أم ولد اسمها راح كان من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل، وهو أديب وشاعر وسياسي بارع، وقائد عسكري موفق، أحيا الدولة الأموية بالأندلس في سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وظل يحكم تلك البلاد إلى وفاته في سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م. انظر: ابن الفرضي: تاريخ العلماء، جـ١، نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني، ط٢، (مصر، مطبعة المدني ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١١. ابن حزم: رسائل ابن حزم، "رسالة في ذكر الأمراء وأيامهم بالأندلس" جـ٢ تحقيق: احسان عباس، ط (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م)، ص ١٩١.

(٢) نفزة: أحد قبائل البربر البتر، وينسبون إلى نفراد بن لؤي الكبير، وكانت مساكنهم في مناطق المغرب الأقصى(انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، تحقيق: حسين مؤنس، ط٢، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٣٥. ابن حيان: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق: محمود مكي، القاهرة، لجنة إحياء التراث الاسلامي ١٣٩٠هـ/١٩٧١م، ص ٢٧٩ حاشية ١٣٣).

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق، عبدالله أنيس الطباع، ط١ (بيروت، مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ/١٩٨٤م) ص ٨٤.

لقد كان عبدالرحمن بن معاوية حينما فر من المشرق طالب ملك أكثر منه طالب نجاة. فما أن استقر به المقام في بلاد المغرب الأقصى حتى رنا ببصره قبالة الأندلس يتحسس أخبارها، ويستطلع أبناءها. إذ بلغه ما كان عليه الحال في الأندلس، وما تشهده من اضطراب وعدم استقرار، بسبب الفتن والعصبيات القبلية الناشبة بين القبائل العربية هناك، من شامية ويمانية من ناحية، وبينها وبين البربر من ناحية أخرى.

عول الأمير عبدالرحمن الداخل على الأندلس كثيراً في إعادة ملك آبائه المندثر، وعزز هذا العزم في نفسه أمور منها:

- ما علمه من أحوال البلاد وحاجتها الماسة إلى زعامة قوية توحد شتاتها، وتجمع عناصر سكانها في منظومة اجتماعية واحدة[1]. إلى جانب بعدها عن سطوة العباسيين وكون البحار تفصلها عن بقية المناطق التي خضعت لحكمهم.

- وهناك أمر آخر في غاية الأهمية ألا وهو وجود فئة اجتماعية كبيرة في الأندلس لا زالت على ولائها لبني أمية، وهم من عرفوا باسم " المولى الأموية" أو "موالي بني أمية"[2].

ويظهر من استخلاص الروايات حول وضع موالي بني أمية في

(١) ابن الخطيب: الاحاطه في أخبار غرناطة، جـ١، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط٢، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥.

الأندلس أنه كان هناك شبه تنافس بين الوالي يوسف الفهري ومساعده الصميل بن حاتم حول كسب ولاء موالي بني أمية، ففي حين كان الفهري يرى أنه وريث دولة بني أمية بعد سقوطها في كل ما كان للأموين في الأندلس بما في ذلك الموالي الأمويين الذين كان يسميهم "موالينا"[1]، ويرتب سلطانه على ذلك الأساس، ولا يشك في إخلاصهم ووفائهم له[2]، كان الصميل بن حاتم بدوره يسعى لكسب تأييد هؤلاء الموالي وضمهم إلى صفه للإفادة منهم[3].

في الوقت نفسه يظهر أن هؤلاء الموالي لم يكونوا مقرين بالتبيعة لأي من الرجلين، وأنهم كانوا يجدون في البحث عن زعيم خاص بهم يلمُّ شعثهم، ويوحد صفهم، ويرفع عنهم سلطان غيره من متنفذي الأندلس[4]. وهذا يوحي بأنه كان لديهم بعض القوة التي يستطيعون بها حماية أنفسهم، وتحقيق سلطانهم، وإن لم تكن بالقدر الكافي، ولذلك لجأوا بعد ذلك إلى التحالف مع اليمنيين.

لم تكن القبائل اليمنية وموالي بني أمية هما فقط غير الراضين عن

(١) مجهول: أخبار مجموعة: تحقيق محمد زينهم، ط١ (القاهرة، دار الفرجاني ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص ٨٧.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥.

(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ط٢ (جده)، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٦٦٦.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥. ابن الخطيب: الاحاطة، جـ١، ص ٤٤٥.

زعامة يوسف الفهري والصميل بن حاتم على الأندلس، ولا المنشرحة من أوضاع البلاد، بل كان يشاركها في ذلك فئام أخرى من عناصر المجتمع الأندلسي في حينها مثل بعض القبائل الشامية[1].

لقد أدرك ابن معاوية وهو يقبع في بلاد البربر بالمغرب حقيقة الأوضاع في الأندلس، وعرف حدة الصراع الدائر بين المتنفذين وأعوانهم في سبيل السيطرة عليها. وكانت عيونه تصل إليه بتلك الأخبار المؤكدة، وعلى ذلك فقد رأى الأندلس أنسب موقع يمكن أن يبنى فيه مجده ويعيد فيه سلطان آبائه وأجداده المندثر في المشرق.

اكتملت صورة أوضاع الأندلس الداخلية لدى عبدالرحمن بن معاوية الذي ظل يجمع المعلومات حولها منذ عام ١٣٦هـ/٧٥٣م[2]. أي على مدى ما يقرب من سنتين من الزمان. وعلى ذلك الأساس وضع ابن معاوية مخطط حكم الأندلس في مخيلته. ولم يتبق سوى وجوب إنزال ذلك المخطط على أرض الواقع، ولكن قبل ذلك كان لا بد من التثبت التام ومعرفة ضخامة أو ضعف القوة التي تدافع عن الأندلس إلى جانب معرفة مدى التأييد الذي لا زال الأمويون يتمتعون به داخل

(١) ابن خلدون: العبر (المنشور تحت عنوان تاريخ ابن خلدون) جـ ٤، ضبط: خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، ط١ (بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ١٥٥.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٢، تحقيق: ج. س. كولان. مراجعة: ليفي بروفنسال ط٣، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣م،) ص ٤١.

الأندلس، ومدى استعداد الموالي الأمويين للقيام مع ابن معاوية ونصرته، والسعي معه لتحقيق مآربه في الأندلس.

وعلى أثر ذلك ابتعث ابن معاوية مولاه بدراً في أواخر عام ١٣٦هـ/٧٥٣م[١] وكلفه الشخوص إلى الأندلس للتحقق من كل ما وصله من معلومات عن الأندلس، وحمله رسالة من قبله إلى زعماء الموالي الأموية هناك" يشكو فيه ما ابتلوا به، ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم.. ويعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه، وأنه إنما يريد الاعتزاز بهم، وأن يمنعوه، وإن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه[٢] ".

اجتمع بدر بثلاثة من رؤساء الموالي الأموية بالأندلس وعرض عليهم الرسالة وبين لهم حقيقة وضع ابن معاوية وما يرغب إليه، فاستحسنوا الدعوة، وبادروا من وقتهم في التخطيط لاستقبال ابن معاوية والتمكين له في الأندلس[٣].

كان أمام هؤلاء الزعماء قوتان يمكن أن يستفاد منهم في نصرة ابن معاوية، أما القوة الأولى فهي قوة الموالي الأموية الذين يكثرون في مناطق جنوبي الأندلس[٤]. وهؤلاء ولاؤهم شبه مضمون، لبني أمية ولن

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٤١.

(٢) ابن مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٥.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٤-٨٥.

(٤) مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في الأندلس (الدار البيضاء، دار النشر المغربية، د.ت) ص ١٢١-١٢٣.

يخرجوا عن طاعة قادتهم الساعين لذلك الأمر [١]. والقوة الأخرى هي قوة القبائل اليمنية الكسيرة الجناح والمهزومة أمام القبائل الشامية، والتي تتحين الفرصة للأخذ بثأرها من الشاميين، وبما أن قوة الموالي الأموية المضمونة الولاء لابن معاوية لن تستطيع بمفردها أن تحقق الأمان والنصر له على قوة يوسف الفهري والصميل بن حاتم. لذا بادر زعماء الموالي -بعد أن يأسوا من نصرة الصميل بن حاتم [٢] -إلى دعوة القبائل اليمنية إلى نصرة ابن معاوية، وعرضا الأمر على بعض زعمائها، فوجدوا (قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم، ورغبوا في عقد بني أمية بالأندلس "[٣].

أطبقت اليمنية والموالي الأموية في الأندلس على نصرة ابن معاوية، وتعاهدوا على ذلك بحضور بدر مبعوث الأمير الأموي، ومن ثم بعثوا إلى ابن معاوية في مقره بالمغرب وفداً من رؤسائهم بصحبة

(١) أمثال أبو عثمان عبدالله بن عثمان وعبدالله بن خالد وغيرهم.(انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٨٤). ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢،ص ٤٥.

(٢) كانوا قد عرضوا الأمر على الصميل بن حاتم طمعاً في نصرته وتأييده، لما عرفوا عنه من ميل وموالاة لموالي بني أمية، وكان قد وافق على ذلك في بداية الأمر ثم نكص عن الموافقة وقال" فكرت فيما عرضتما علي فعلمت أن عبدالرحمن من نسل قوم لوبال أحدهم في هذه الجزيرة لغرقنا في بوله" ووعدهم كتمان الأمر عن يوسف. (انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥-٨٦، مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٨).

(٣) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٨-٨٩.

بدر للترحيب بابن معاوية، وإبلاغه بما تم الاتفاق عليه، ودعوته للشخوص إلى الأندلس [١].

وعلى الفور توجه ابن معاوية إلى الأندلس في غرة ربيع الآخر من سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م[٢]، فنزل بالمنكب[٣] ومنها انتقل إلى طرش[٤] حيث كان موالي بني أمية في استقباله[٥]. ومن هناك بعث برسالة إلى ما جاوره من مناطق جنوبي الأندلس يدعوها إلى بيعته وأتباعه، فأتته البيعة من كل مكان [٦]. واستقبل استقبالاً فاق حدَّ خياله[٧]. "ولما كملت لديه الجيوش، عقد اللواء، ونهض نحو قرطبة"[٨] في حين كان والي

(١) مجهول:المصدر نفسه، ص ٨٩، عذارى: البيان المغرب، جـ٢،ص ٤٤، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٨.

(٢) ابن الأبارة: الحلة السيراء، جـ١ص٣٥. ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٤، ويجعل صاحب كتاب «أخبار مجموعة» نزوله بالمنكب غارة شهر ربيع الآخر من العام نفسه. «مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٩».

(٣) المنكب: سوف يرد الحديث عنها في الفصل الأول من البحث إن شاء الله.

(٤) طُرشَ: قرية على شاطىء البحر، وتقع بين مدينتي المنكب ومالقه، وتبعد عن قرية شاط بمقدار اثنى عشر ميلاً. انظر: الإدريسي نزهة المشتاق، جـ٢، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٥٦٥).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٤٤.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٥.

(٧) الركابي: في الأدب الأندلسي، (مصر، دار المعارف، د.ت)، ص ١٦.

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ٢، نشرة بروفنسال تحت عنوان " تاريخ اسبانيا الاسلامية"

الأندلس يوسف الفهري ومساعده الصميل بن حاتم في شمالي الأندلس يخضعان بعض الثورات القائمة ضدهما هناك. فما راعهما إلا خبر نزول ابن معاوية في جنوبي الأندلس، وانحياش الناس إليه ثم توجهه إلى قرطبة لذا بادرا بالعودة السريعة إلى قرطبة لمقابلة ابن معاوية [١].

وفي يوم الجمعة يوم عيد الأضحى من عام ١٣٨هـ/٧٥٥م وعلى ضفاف نهر قرطبة، وفي موقع يعرف باسم " المُسارة"[٢]، التقى الجيشان في معركة فاصلة كان النصر فيها حليف ابن معاوية وجيشه ليدخل على أثرها إلى قرطبة[٣]، بعد أن كان قد "تم أمره في جميع عرب الأندلس"[٤]. ثم بايعه بقرطبة من لم يكن بايعه من قبل[٥].

منذ ذلك اليوم سعى الأمير عبدالرحمن بن معاوية "الداخل"[٦] لضبط الأندلس تحت رايته، وبذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً. ووقتاً طويلاً. حتى استطاع أن يكون له "بالعدوة الأندلسية ملك ضخم ودولة

=

تحقيق: ليفي بروفنسال (بيروت، دار الكشوف، ١٩٥٦م)، ص ٨.

(١) ابن خلدون: العبر ص ١٥٥. مجهول: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٤.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٨.- ٨٩ ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ٨. ووردت لدى ابن عذارى باسم" المُصَارة". البيان المغرب، جـ٢، ص ٤٦.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩١. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٥.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٧.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٤٧.

(٦) ابن الأبار: الحلة السياء، جـ١، ص ٣٥. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٤.

متسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة"[1]. يقول ابن حيان[2] واصفاً الجهود التي بذلها الأمير عبد الرحمن الداخل لضبط الأندلس وتثبيت دعائم الدولة: ".... بدأ فدون الدواوين[3]، ورفع الأواوين[4]، وفرض الأعطية وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك، وحذروا جانبه، وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بذلك بلاد الأندلس، واستقل له الأمر فيها ".

لم يكن خضوع الأندلس لابن معاوية بالأمر السهل بل خاض في سبيل ذلك الكثير من المعارك والحروب، وواجه الكثير من الثورات الداخلية والغزوات الخارجية فصمد لها، وجابهها بقوة حتى " استلحم الثوار في نواحيها، وقطع دعوة العباسيين من منابرها، وسد المذاهب

(١) المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣١٦.

(٢) نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣١٧.

(٣) الدواوين: مفردها ديوان. والديوان مجتمع الصحف، والكتاب يكتب فيه أهل الجيش، وأهل العطية، وأول من وضعه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر (الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، ط٥، (بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص ١٥٤٥.

(٤) الأواوين: جمع إيوان. وهو البناء الضخم الواسع، الذي يتخذ عادة للحكام وعلية القوم، ومنه إيوان كسرى. انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ١٣، ط٣، (بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص٤٠.

منهم دونها"[١].

اتبع عبدالرحمن بن معاوية طوال فترة حكمه (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) سياسة داخلية متوازنة، امتازت بالقوة والمبادأة للثوار الخارجين عليه، فاشتد في التعامل معهم، واستأصل ثوراتهم من جذورها، وقليلاً ما تسامح أو تصالح مع أولئك الثوار وأمثالهم[٢].حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه " سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى الراحة ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره... شجاعاً، مقداماً، بعيد الغور شديد الحذر، قليل الطمأنينة"[٣].فاستطاع بذلك أن يوطد دعائم الدولة، ويرسي هيبة النظام الجديد، ويقمع الكثير من أهل الخروج والعدوان[٤].

وفي المقابل انتهج سياسة القرب والتسامح مع الرعية، والتلطف إلى العامة بكل ما يستطيع، فكان " يقعد للعامة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل إليه من أراد من الناس، فيصل الضعيف منهم

(١) ابن خلدون: المصدر نفسه: جـ٤، ص ١٥٦. وقد ذكر عدد المؤرخين أن عبدالرحمن أقام أشهراً دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور، حتى تمكن له الأمر في الأندلس فقطع الدعوة لبني العباس حينها وأفرد نفسه بالدعاء.«انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٣٥-٣٦. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص١٥٧، المقري: نفح الطيب، جـ١، ص٣١٥.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٠-٩١. ابن الخطيب: الاحاطه، جـ١، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٣، ص ٤٦٨.

(٤) محمد عنان: دولة الاسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ط٣ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٩٩.

إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة"[1].

ورغم تلك السياسة القوية التي اتبعها لضبط أمور البلاد، وتحقيق وحدتها فقد "ماج على عبدالرحمن بن معاوية بحر الخلاف والمنازعة، وقارع الكثير من الثوار"[2] الذين "نافسوه ملكه ولقي منهم خطوباً عظيمة"[3].

والناظر إلى ما كانت عليه الأوضاع السياسية في الأندلس في أواخر عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٣ -٧٥٥م) وما شهدته من ثورات واضطرابات كثيرة، وتمكن العصبية القبلية في تلك البلاد، وما نتج عنها من حروب متوالية بين القبائل العربية من قيسية ويمانية، وما حدث بينها وبين البربر من جهة أخرى[4] الناظر إلى ذلك لا يعجب إذا ما علم كثرة التوارث التي شهدها عهد الأمير عبدالرحمن الداخل، الذي لم تكد سنه من سنوات حكمه الأربع والثلاثين تخلو من قيام ثورة ضده - كما سيأتي بيانه-،وذلك كثرة الرغبين في الزعامة، الطالبين للحكم، الذين ظنوا ابن معاوية كمن سبقه من حكام الأندلس في أواخر عصر الولاة يركن إلى عصبية دون أخرى وينتصر لها على بقية العناصر

(١) المقري: نفح الطيب، جـ١، تحقيق: يوسف البقاعي، ط١،(بيروت: دار الفكر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ٣١٨.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ٨-٩.

(٣) المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣١٩.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٨-٢٥، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ع١، ق١، ص ١٢٢-١٢٩.

الأخرى، وهذا أبعد ما يكون عن فكر وسياسة الداخل، الذي كان يسعى لإقامة دولة، وبعث خلافة تبسط سلطانها على عموم الأندلس، وتضم تحت رايتها جميع عناصر السكان بها من عرب - قيسية ويمنية - وبربر، ومسالمة، ومستعربين وأهل ذمة وغيرهم[1]. دون أن يقدم فئة على أخرى [2]، مما يضمن له ولاء كل الفئات، ويحقق له السيطرة على البلاد، وإقامة الدولة والحكومة التي ينشدها. إذ لم يكن الداخل طالب زعامة فردية مؤقته لشخصه، بل كان ينشد بناء دولة ثابتة الدعائم، وطيدة الأركان، تستمر له ولبنيه من بعده، مما استدعى منه محاولة جذب كل عناصر المجتمع الأندلسي وفئاته تحت راية هذه الدولة.

ولتحقيق ذلك كان لا بد من الابتعاد عن العصبية القبلية - وإن استفاد منها في بعض الأوقات في تثبيت ملكه [3]- أو تأييدها، أو السماح للعنصر المنتصر بالثأر والتشفي من العنصر المهزوم. وقد وضحت معالم هذه السياسة للداخل من المراحل الأولى لدخوله الأندلس، فهو وإن كان عماد قوته على القبائل اليمنية - إلى جانب الموالي - إلا أنه قد ضم إلى صفه

(١) عن عناصر السكان في الأندلس انظر: السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، النهضة العربية، ١٩٨١م، ص ١١٩-١٣٣.

(٢) وإن كان ابن معاوية قد اعتمد في بداية أمره على اليمنية فإنما هو من باب الاستفادة منهم لتحقيق هدفه في الوصول إلى الحكم. انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٨، ص ٩٤. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص٤٤، المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣١٤.

(٣) انظر الأمثلة لذلك في ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩١.

بعض زعماء وأفراد القبائل الشامية[1].

ورغم إيجابية تلك السياسة التي انتهجها الأمير الداخل منذ بداية حكمه، ورغم أنها كانت الأمثل - في نظره - لتحقيق وحدة تلك البلاد واستقرارها ونشر الأمن بها. إلا أن هذه السياسة ووجهت بالرفض والخروج عليها من قبل الكثير من زعماء القبائل الأندلسية، الذين كان حب الزعامة والرياسة لا يزال متغلغلاً في نفوسهم، إلى جانب حب البعض منهم للانتقام من العناصر الأخرى.

وكان في أوائل الخارجين على تلك السياسة بعض زعماء القبائل اليمنية - حلفاء الأمس- الذين كانت قد وغرت صدورهم ضد الشامية، ورأوا انتصار حليفهم الأموي فرصة سانحة لهم للانتقام من القبائل الشامية، والأخذ بثأرهم منها، فلما تبينوا أن سياسة الأمير عبدالرحمن الداخل لن تحقق لهم ما أرادوا كانوا أول الثائرين ضدها[2].

ورغم كثرة الثوار من زعماء اليمنية فإن أشدهم خطراً، وأكثرهم جموعاً وأتباعاً كان العلاء بن مغيث الجذامي، الذي نصبه العباسيون

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥-٨٧.

(٢) انظر عن تلك الثورات وزعمائها:

- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥، ٩٠-٩١.
- مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٣، ١٠٤.
- ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٥٠، ٥١، ٥٣.
- ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٧.

والياً لهم على الأندلس[1]، فبعث إليه الخليفة العباسي المنصور بسجل بولاية الأندلس ولواء، وجاء في خطابه إليه قوله: «إن كان فيك محمل لمناهضة عبدالرحمن وإلا فابعث إليك بمن يعنيك[2]». فما كان من العلاء إلا أن رفع لواء المسودة وانطلق في مناطق غربي الأندلس يدعو لبني العباس، ويعلن نفسه والياً على الأندلس من قبل خليفة المسلمين "فأتبعه الأجناد، وتطلع إليه العباد، إلى أن كادت دولة عبدالرحمن أن تنصرم»[3].

لقد مثلت ثورة العلاء بن مغيت أخطر ثورة يوجهها الداخل في عهده وذلك لأمور منها: ما أظهره العلاء من كونه الحاكم الشرعي للأندلس من خلال المرسوم الذي وجهه إليه خليفة المسلمين في حينها - أبو جعفر المنصور العباسي - مما أظهر ابن معاوية أمام الناس على أنه خارج على الخلافة، معارض لأمر الخليفة.

وثانياً: لكثرة الجموع التي تحزبت حوله، والتفت تحت رايته السوداء - راية العباسيين - يقول ابن القوطية[4] عن ذلك:" فقام العلاء ودعا إلى نفسه، وتبعه خلق كثير، وتطلع أهل الأندلس إلى خلع عبدالرحمن".

(١) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص٩١، مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٢. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص٩.

(٢) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ٩١.

(٣) ابن الخطيب: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٩.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩١.

ورغم كل وسائل القوة المدعمة لثورة العلاء بن مغيث فقد تصدى لها الأمير عبدالرحمن الداخل بكل قوة وحزم، واعتمد على عنصر المبادأة الذي شهر به - كما مر سابقاً - فلم يمهل العلاء لترتيب قواته، وتنظيم صفوفه، بل بادر بالخروج إليه، قبل أن يصل إلى قرطبة. ثم تمركز الأمير الداخل بقواته في مدينة قرمونة[1] الحصينة، لينهك بذلك قوات العلاء بن مغيث[2]، الذي حلت الهزيمة به فقتل وتقل معه كثير من أتباعه[3].

وعلى أثر انتصار الأمير الداخل على العلاء بن مغيث بعث من فوره برسالة إلى الدولة العباسية، تضمنت رأس العلاء بن مغيث واللواء المعقود له وخطاب ولاية الأندلس الذي بعثه إليه الخليفة العباسي، حيث جمعت في سفط وبعثه مع رجل من أهل قرطبة في جملة الحاج، وأمره أن يضع السفط بمكة[4]، فوافق المنصور قد حج تلك السنة

(١) قرمونه: تقع على الطريق الرابط بين مدينتي قرطبة و أشبيلية، وتبعد إلى الغرب عن قرطبة بمقدار خمسة وستون ميلاً، بينما تبعد عن اشبيلية بمقدار عشرين ميلاً إلى الشرق، وهذا ما جعل أهمية استراتيجية لكلا المدينتين (انظر: ابن غالب: فرحة الأنفس، تحقيق، لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جـ٢، (نوفمبر، ١٩٥٥م، ص ٢٩٢).الحميري: الروض المعطار، ص ٤٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩١، ابن الخطيب، أعلام الاعلام، جـ٢، ص ٩، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص٥١.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٢. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٧.

(٤) يذكر صاحب كتاب أخبار مجموعة ص ١٠٢ أن السفط القي في أسواق مدينة القيروان وليس بمكة.

فوضعه في باب سرادقه فلما وصل إلى المنصور نظر إليه وقال "عرضناه المسكين للقتل"[١].

يبدو أن تلك الرسالة قد أدت غرضها عند العباسيين فتبينوا قوة عبدالرحمن الداخل، ومدى سيطرته على الأندلس، ولذلك صرفوا أنظارهم عن تلك البلاد، حيث لم تشر المصادر- فيما اطلعت عليه - إلى تدخل مباشر من قبل العباسيين في شؤون الأندلس بعد هذه الحادثة. وإن كان ظهر من بعده من يدعو إلى طاعة العباسيين [٢]. إلا أنها كانت جهوداً فردية لم تتلق دعماً من العباسيين مباشرة.

لم تكن القبائل اليمنية هي فقط من عارض سياسة عبدالرحمن الداخل وثار عليه وحاربه، بل شاركها في ذلك فئات أخرى من عناصر المجتمع الأندلسي مثل بعض زعماء القبائل الشامية الذين انضموا إلى يوسف الفهري والصميل بن حاتم، الذين حاولا مراراً استعادة حكم الأندلس بعد معركة المسارة، غير أن كل تلك المحاولات أخفقت، وانتهى الأمر بهما إلى القتل على يد الأمير عبدالرحمن الداخل وأتباعه في سنة ١٤٢هـ [٣].

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٢. ابن الخطيب: أعمال الأعمال، جـ٢، ص ٩.

(٢) مثل هشام الفهري الثائر بطليطلة في سنة ١٤٧هـ (انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٥٣).

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٩-٩٠. ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ط٣ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ) ١٩٨٠م) ص ص ٣٦٢-٣٦٥. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٤٩.

كذلك لم يكن البربر بمنأى عن محاربة الأمير عبد الرحمن الداخل بل كان لهم دور في الثورة والخروج عليه. فكانت حركة شقيا بن عبدالواحد الذي ادعى أنه من ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما وتسمى باسم " عبدالله بن محمد"[١] وخرج في مناطق شرقي الأندلس واستمرت ثورته من سنة ١٥٢هـ إلى سنة ١٦٠هـ[٢]. وكانت من أشد وأقوى الثورات التي واجهها الأمير عبدالرحمن الداخل، وبذل في سبيل القضاء عليها جهوداً كبيرة، استخدم فيها القوة العسكرية إلى جانب المكيدة[٣].

وإلى جانب ما بذله الأمير عبدالرحمن الداخل من جهود داخلية ومتواصلة انتظمت فترة حكمه كاملة - تقريباً - في سبيل تحقيق وحدة الأندلس وتثبتت دعائم دولته الناشئة، كان عليه أيضاً أن يواجه أطماع بعض القوى الخارجية الراغبة في الاستيلاء على الأندلس، والتي كان خطرها لا يقل ضراوة عن خطر الثورات الداخلية. فالممالك النصرانية الناشئة في شمالي الأندلس[٤] تبذل كل جهد في سبيل توسيع رقعتها، وبسط سلطانها، مستغلة ما كانت عليه الأندلس في أواخر عصر الولاة من ضعف وفرقة، لذا بادر الأمير عبدالرحمن الداخل بتحصين الثغور

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٧.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٥٤.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٥٤-٥٥.

(٤) سوف يرد الحديث مفصلاً عن نشأة هذه الممالك وعلاقة الدولة الأموية بها في الفصل الخامس من البحث إن شاء الله.

الشمالية، وشحنها بالمجاهدين كما أنفذ عدداً من الحملات الجهادية صوب تلك الممالك لصد عادية أولئك النصارى[١].

كما لم تنج الأندلس من أطماع قارله[٢] (شارلمان) ملك الفرنجة[٣] (٧٧١-٨١٤م/١٥٥-١٩٩هـ) الذي غزا مناطق الثغر الأعلى الأندلسي[٤] محاولاً الاستيلاء على عاصمته[٥]، مستجيباً في ظاهر الأمر لدعوة بعض الثائرين بها ضد الأمير الأموي، الذين استنجدوا به[٦]. إلا أنه لم يلبث أن عاد إلى بلاده خائباً، كسير الجناح، لم يظفر بشيء من بلاد الأندلس[٧].

وفي سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م توفي الأمير عبدالرحمن الداخل بعد أن

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٧، ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٨.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٧.

(٣) سوف يرد الحديث عن تلك الدولة وعلاقاتها بالأندلس في الفصل الخامس من البحث إن شاء الله.

(٤) الثغر الأعلى: الثغر هو كل أرض قريبة من العدو، والثغر الأعلى الأندلسي يقصد به ولاية سرقسطة وما جاورها من مناطق شمال شرق الأندلس حتى برشلونه والبحر شرقاً. ويشمل مدن لاردة، وتطيلة، ووشقة، وطرطوشة، وطركونه، وغيرها، وعاصمته مدينة سرقسطة ويقابل حالياً ولاية " أراجوان" من ولايات اسبانيا. (انظر: محمد عنان، دولة الاسلام ع١/ق"، ص ٢٣١ حاشية ١).

(٥) وهي مدينة سرقسطة وسيرد الحديث عنها في الفصل الأول من البحث.

(٦) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٧، العذري: ترصيع الأخبار، تحقيق عبدالعزيز الأهواني (مدريد: معهد الدراسات الاسلامية ١٩٦٥م) ص ٢٥.

(٧) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٧.

قضى ثلاثاً وثلاثين سنة في الحكم[١]، أمضى جلها في مقارعة الخصوم، ومحاربة الأعداء الخارجين عليه، وبذل قصارى ما لديه في تثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتحقيق وحدة الأندلس تحت راية بني أمية.

وبوفاة الأمير عبدالرحمن الداخل تداول الملك من بعده أبناؤه وأحفاده وكان أولهم ابنه هشام بن عبدالرحمن (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م)[٢] الذي عرف بلقب "الرضا"[٣] " لعدله وفضله"[٤] والذي وصف بأنه " خيراً فاضلاً جواداً كريماً"[٥] " حسن السيرة متحرياً للعدل"[٦]، يشبه في سيرته بعمر بن عبدالعزيز - رحمهما الله تعالى[٧] -.

ورغم أن هشام بن عبدالرحمن قد لقي بعض المعارضة من بعض

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، شرح وضبط: أحمد أمين ورفقاه (بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت) ص ٤٤٣-٤٤٤. الحميدي: جذوة المقتبس، ق١، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢ (القاهرة وبيروت، دار الكتاب المصري واللبناني ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٣٧-٣٨. المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتعليق محمد العريان ومحمد العلمي، ط٧ (الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٧٨)، ص ٢٩-٣١.

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم " رسالة في ذكر أوقات الأمراء" جـ٢، ص ١٩٢.

(٣) ابن الأبار: الحلة السبراء، جـ١، ص ٤٢، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٦١.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيرا، جـ١، ص ٤٢.

(٥) مجهول: المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٦) الحميدي: جذوة المقتبس، ق١، ص ٣٩.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ١٢، المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٢٣.

الطامعين في الحكم والذين كان في مقدمتهم أخواه سليمان[1]، وعبدالله[2]. إلا أنه قد ورث عن والده دولة ثابتة الدعائم، لذلك بادر حين فراغاه من ثورة أخويه، وبعض الثورات القليلة الأخرى، بإحياء الجهاد ضد النصارى في شمال الأندلس وجنوبي فرنسا. فوصلت جيوشه إلى ألبة والقلاع[3] «فلقي بها أعداء الله متوافين، فهزمهم الله.. وقتلوا في السهل والوعر[4]». كما وصلت جيوشه إلى أقاصي الشمال الغربي للأندلس[5] وتجاوزت جيوشه حدود الأندلس مجاهدة فدخلت إلى جنوبي فرنسا في عام ١٧٧هـ/٧٩٣م فأعادت للإسلام وأهله بعض أمجادهم السابقة هناك، وألحقت بالفرنجة هزائم كبيرة، وكانت «غزوة

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء،جـ١، ص ٤٢-٤٣. المقري: نفح الطيب، جـ١،ص ٣٢٠. محمد عنان: دولة الاسلام في الأندلس، ع١، ق١، ص ٢٢٤.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطه، جـ٤، ص ٢٧٤-٢٧٥. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٦١-٦٢.

(٣) ألبة والقلاع: تطلق على ولايتي قتشاله القديمة (Castile) وآلفا (Alava) وكانت تشمل في العصور الوسطى جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالاً وبين نافار (اليشكنس) والثغر الأعلى (راجون) شرقاً ومملكة ليون غرباً. وتعتبر آلة احدى ولايات بلاد اليشكنس والقلاع هي التي عرفت فيما بعد باسم (قشتالة). انظر: محمد عنان: نهاية الأندلس، ع١، ق ١، ص ٢١٦، حاشية ٢.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٦٣.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٥٩.

شهيرة الخبر، بعيدة الخطر» كما وصفها ابن عذارى[١]. وتوالت حملات الجهاد في عهده إلى تلك البلاد حتى أثخنت في أهلها، وصدَّت عاديتهم على بلاد المسلمين، حتى وصفه ابن خلدون[٢] بأنه «كان كثير الغزو والجهاد».

لقد سار هشام بن عبدالرحمن طوال فترة حكمه على نفس سياسة والده فلم يغير منها شيئاً، يعبر عن ذلك ابن الخطيب[٣] بقوله عنه: " وجرى مجرى أبيه في الأمن" وركز على الجهاد ضد النصارى بشكل ظاهر طوال حكمه، وجمع حوله العلماء والفقهاء، فكانوا بطانته ومستشاريه[٤].

وحين توفي الأمير هشام بن عبدالرحمن آل الحكم إلى ابنه الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) الذي تضاربت أقوال المؤرخين فيه، ففي حين يصفه ابن القوطية[٥] بأنه " كان جميل السيرة في رعيته، متخيراً لحكامه وعماله، مؤمناً للسبل، متكرراً بالجهاد"، ويصفه صاحب كتاب أخبار مجموعة[٦] بأنه " متواضعاً للحق، منقاداً للإنصاف من

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٦٤. وانظر: المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) العبر، جـ٤، ص ١٦٠.

(٣) أعمال الأعلام، جـ٢، ص ١١.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيرا، جـ١، ص ٤٢.

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٢.

(٦) مجهول، ص ١١٣.

نفسه فضلاً عن ولده وسائر خاصته" في الوقت نفسه يصفه ابن حزم[١] بأنه "كان طاغياً مسرفاً له آثار سوء قبيحة" ويعده في قائمة المجاهرين بالانهماك في المعاصي واللذات[٢]. ويصفه بتلك الصفات نفسها كل من الحميدي[٣] والمراكشي[٤] ويصفه الذهبي[٥] بأنه " كان من جبابرة الملوك، وفساقهم، ومتمرديهم.. ذا دهاء وحزم، وعُتوٍ وظلم".

ومع هذا التضارب في صفات الحكم التي توردها المصادر، فإن جلَّ المؤرخين يجمعون على أنه كان شجاعاً باسلاً، ذا أنفة وأبهة وعزة، جيد الضبط، حسن السياسة[٦].

وبالنظر إلى تلك الروايات المتضاربة يمكن أن يقسم عهد الأمير الحكم بن هشام إلى فترتين رئيسيتين، الأولى تبدأ منذ توليه الحكم في (١٨٠هـ) وتستمر إلى سنة (١٨٩هـ) وهي الفترة التي حدث فيها تحول في سياسة الدولة الأموية الداخلية، إذ تنكب الحكم مسيرة وسياسة

(١) رسائل ابن حزم " ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس" جـ٢، ص ١٩١.

(٢) ابن حزم: «نقط العروس» ضمن رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ٧٥.

(٣) جذوة المقتبس، ق١، ص ٣٩.

(٤) المعجب، ص ٣٣.

(٥) سير أعلام النبلاء، جـ٨، تحقيق، نذير حمدان، ط٨ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، ص٢٥٤.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٤٥-٤٤٦. ابن سعيد: المغرب في حُلى المغرب، جـ١، تحقيق: شوقي ضيف، ط٣، (القاهرة، دار المعارف، د.ت) ص ٣٨-٣٩. ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٤٣-٤٤. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ١٤.

والده هشام الرضا، الذي كان على سيرة حميدة في ذاته[١]، مما ننتج عنه تآلف وتلاحم بين الحاكم والمحكوم، أفضى إلى هدوء البلاد، وإحياء الجهاد، بينما كان الحكم في سيرته الذاتية على العكس من ذلك كما وصفه أغلب المؤرخين.

وامتد ذلك التحول السياسي إلى الجوانب الاقتصادية، فبعد أن عمد الأمير هشام إلى «قطع العشور وأخذ الزكوات فقط»[٢] تخفيفاً على الرعية ورفقاً بهم، عمد خليفته الحكم إلى الاستكثار من الضرائب، واشتط في فرض المغارم على الناس حتى أثقل ذلك عليهم[٣].

نتج عن هذا تغير في سياسة الدولة، فبعد أن كان العلماء والفقهاء هم جلساء الأمير هشام الرضا وهم أهل مشورته[٤]، استبدلهم ابنه الحكم بأهل البطالة وأصحاب اللهو والطرب، ومجالس الشرب والسهر[٥] ونتج عن ذلك انهماكه في لذاته وشهواته، ومجاهرته بالمعاصي والفجور[٦]، مما أدى إلى كره العلماء والعامة لسيرته، وأفضى

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٤٥، وانظر أعلاه ص١٤.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندل، ص ٩٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ط٣(بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص١٧٢. ابن سعيد المغرب، جـ١، ص ٤٣. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ١٥.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٤٢.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٤٥، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢،ص ٧٩.

(٦) ابن حزم: رسائل ابن حزم (نقط العروس) جـ٢، ص ٧٥.

ذلك إلى اضطرابات وفتن وقلاقل شهدتها هذه الفترة الأولى من فترتي حكم الأمير الحكم بن هشام. فكان أول الخارجين عليه هم أهل بيته وقرابته وفي مقدمتهم عمه سليمان عبدالرحمن الداخل الذي ظفر به الحكم فقتله في عام ١٨٥هـ/٨٠١م[١].

ثم أتبعه بعميه كلياً وأمية فقتلهما ثم صلبهما[٢]، ثم انداحت مشاعر الاستياء والغضب منه ومن سياسته إلى عدد من المدن الأندلسية، وكان أشهرها ثورات طليلطة التي تعامل معها الحكم بكل قسوة وقوة فقتل في يوم واحد " من وجوه طليلطة وأعيانها خمسة آلاف وثلاثمائة رجل ونيف"[٣] ثم بلغ الاستياء ذروته وانتشر في العامة والخاصة، فكان الحادث الأشد في تاريخ الإمارة الأموية بشكل عام، والأبعد أثراً في نفس الأمير الحكم بن هشام هو حادث " هيج الربض"[٤] الذي وقع في سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م، على أثر ما دبره بعض العلماء والفقهاء الذين أنكروا سيرة الحكم، وعزَّ عليهم انتهاكه للحرمات، فرأوا أنه غير عدل، "وزعموا أنه لا يحل المكث ولا الصبر على هذه السيرة الذميمة"[٥].

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٥. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٢٥٧.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٩-١٠٠. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٥.

(٤) للاستزادة عن هذه الثورة وآثارها أنظر:ابن عذاري: البيان المغرب، ح٢، ص ٧١-٧٧.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٢٥٥.

ورأوا الخروج عن طاعته واستبداله بمن يرون صلاحه، ولكن أمر هذه المؤامرة كشف للحكم، فعاقب المشاركين فيها بكل قسوة وعنف، وقتل من العلماء عدداً كبيراً، كان منهم " ستة من أعلام القوم المشاهير"(١) وذلك في سنة ١٨٩هـ/٨٠٤م(٢).

لقد كان لهذه الحادثة أثر سيء في نفوس العامة بقرطبة مما زاد من استيائهم من الأمير الحكم، إلى جانب سوء السياسة الاقتصادية التي انتهجها الأمير (٣). كل ذلك أدى إلى وقوع حادثة الربض التي قتلت فيها قوات الأمير خلقاً كثيراً من العلماء ومن العامة، وقتل من الأسرى منهم " نحو ثلاثمائة، صلبهم على النهر(٤) " ثم أمر من بقي منهم بمغادرة الأندلس(٥) وسوّي الربض بالأرض، وحول إلى مرزعة بعد أن كان حياً مسكوناً، ومحلة متصلة(٦).

لقد مثلت حادثة الربض - التي لقب بها الحكم بعد ذلك فأصبح يعرف بالحكم الربضي(٧) - نقطة تحول في تاريخ الأمير الربضي، حيث

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٧١.

(٣) ابن سعيد: المغرب، جـ٢، ص ٤٣. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٥.

(٤) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٢.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٤٤-٤٦.

(٦) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٢.

(٧) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٢. الحميدي: جذوة المقتبس، جـ١،ص ٣٩. ابن

أدركه الندم الشديد على قتل العلماء وعلى القسوة الشديدة التي تعامل بها مع أهل الربض، وإجباره لمن بقي منهم على مغادرة الأندلس تماماً[1] " وطاولت الحكم بعد هذا علة صحبته سبعة أعوام مات في آخرها، على ندم وتوبة مما جرى على يده. "وأخذته في العلة رقة فكان يسهر بالقرآن إلى أن توفي" كما يقول ابن القوطية[2] ويقول ابن الأبار[3] " ولم ينل الحكم بعد وقيعة الربض حلاوة العيش، وامتحن بعلة صعبة طاولته أربعة أعوام، فلت غربه، وأطالت ضناه.. فمات عن توبة من ذنوبه، وندم على ما اقترف منها".

وبذلك تبدأ الفترة الثانية من فترتي حكم الأمير الربضي والتي تستمر على مدى أربعة أعوام تقريباً (٢٠٢-٢٠٦هـ/٨١٧-٨٢١م) وهي الفترة التي عاد فيها الحكم إلى انتهاج سيرة وسياسة والده هشام الرضا فعفا عن العلماء " [4]. "وقرب الفقهاء والعلماء والصالحين"[5]، وتقرب

=

الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٤٣.

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٥، ص ١٧٢-١٧٣. ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٢.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٥، السبعة الأعوام التي ذكر هنا على اعتبار بداية الحادثة في عام ١٨٩هـ/ حين قتل الحكم بعض العلماء.

(٣) الحلة السيراء: حـ١، ص ٤٦-٤٧.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٣-١٠٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٢٦٠.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٦٣. المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٢٧.

إلى العامة، وسار فيهم بالعدل والاحسان، وابتعد عن المحرمات[١].

وفي ضوء هذا التقسيم لعهد الأمير الحكم الربضي يمكن الجمع بين تلك الصفات المتضاربة التي أوردها العلماء عن الحكم[٢]، فيمكن حمل تلك " السيرة الذميمة"[٣]، التي وردت عنه في المصادر على الفترة الأولى من حكمه، يؤيد هذا ما ذكره ابن الأثير[٤]، من أن «الحكم تظاهر في صدر ولايته بشرب الخمر والانهماك في اللذات»، بينما تحمل تلك الصفات الحميدة والخلال الجميلة التي أوردتها له المصادر الأخرى، على الفترة الثانية من حكمه.

وقد استغل النصارى انشغال الأمير الأموي بالقضاء على الفتن والثورات الداخلية وأخذوا يمدون حدودهم، ويستولون على ثغور المسلمين المجاورة لهم، وكان شارلمان امبراطور الفرنجة أول المستغلين لتلك الظروف، حيث سيَّر حملة عسكرية كبيرة استولت على ثغور برشلونة [٥] الساحلي المهم في شمالي الأندلس في عام

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٧٧.

(٢) انظر: أعلاه ص١٦.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٢٥٥.

(٤) الكامل في التاريخ، جـ٥ص١١٩.

(٥) برشلونة (Barcelona) تقع على ساحل البحر المتوسط، إلى الشمال من ميناء طركونه الأندلسي على بعد خمسين ميلاً، وقد أصبحت عاصمة لمملكة الفرنجة (قطلونية) بعد خروجها من أيدي المسلمين (أبو الفداء، تقويم البلدان، باريس ١٨٩٠م) ص ١٨٢-١٨٣.

١٨٥هـ/٨٠١م[١]. ثم حاول بعد ذلك مدَّ حدوده إلى المدن الواقعة جنوبي برشلونة[٢]، غيرأن قوات الإمارة الأموية استطاعت صدَّ عاديتهم فلم يتمكنوا من احتلال تلك المواضع التي قصدوها في عامي ١٩٢-١٩٣هـ/٨٠٨-٨٠٩م[٣].

وبوفاة الأمير الحكم الربضي تولى الأمر بعده ابنه عبدالرحمن " الأوسط" (٢٠٦/١٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م) واسطة عقد الإمارة الأموية. وأظهر حكامها بعد جده الأعلى عبدالرحمن الداخل " فهو الذي استكمل فخافة الملك بالأندلس وكسا الخلافة أبهة الجلالة"[٤]، "وكان وادعاً محمود السيرة"[٥] أمتاز بأنه " سار بخير سيرة.. فعاش بخير وكانت رعيته معه بخير"[٦] وكان - رحمه الله - " مكرماً لأصناف العلماء محسناً لهم"[٧]، "ملتزماً أكرام أهل العلم، وأهل الأدب والشعر

=

الحميري: الروض المعطار، ص ٨٦-٨٧.

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ٥، ص ١١٠-١١١، ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٦١.

(٢) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٠. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٧٢-٧٣.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٧٢-٧٣.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيرا، جـ١، ص ١١٣.

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٢. الحميدي: جذوة المقتبس، جـ١، ص ٣٩.

(٦) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٦.

(٧) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٦.

في دولته، وإسعافهم في مطلبهم كلها"[1].كما كان أيضاً: «ملكاً كبيراً، قارع الثوار، وهزم الكفار، وأبعد الآثار»، كما يصفه ابن الخطيب[2]. وفي المجال الإدارية رتب الأمير عبدالرحمن شؤون الدولة، ووزع المهام على عدد من الوزراء بحيث اختص كل وزير بعمل محدد[3]. فهو «أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر.. وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم»[4].

ورغم هذه الصفات الحميدة فإن عهد الأمير عبدالرحمن لم يخل من ظهور بعض الفتن والثو رات[5] ضده، خاصة في بعض المدن مثل طليلطة[6]، وماردة[7]، وفي بعض الكور مثل كورة تدمير[1] التي انبثقت

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٦.

(٢) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٦.

(٣) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٤) أعمال الاعلام، جـ٢،ص ٨.

(٥) مثل ثورة عمه عبدالله البلسني (انظر: ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص١٦٣) وثورة موسى بن موسى الثائر بتطيلة من الثغر الأعلى (انظر: ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص٤٩).

(٦) انظر تفصيل تلك الثورات في: ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ١٦٤-١٦٥. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٨٤-٨٥.

(٧) ماردة: تقع في الجوف من قرطبة على بعد خمسة أيام (١٢٥) ميل تقريبا. وإلى الغرب منها وكانت من قواعد الأندلس الهامة في زمن القوط. وقد شهرت بأسواقها وفنادقها الكبيرة (مجهول: ذكر بلاد الأندلس، جـ١، تحقيق: ليوس مولينا - مدريد معهد ميجل آسين ١٩٨٣م). ص ٥٦-٥٧.

فيها التفنة بين اليمنية والمضرية، ورغم محاولات الأمير عبدالرحمن الأوسط إطفاء نار تلك الفتنة، وتدخل جيوشه مرات متعددة، فقد شغلت من عهده سبع سنوات متوالية[٢].

ولقد استثمر الأمير عبدالرحمن الأوسط أيام حكمه التي امتازت بأنها "أيام هدوء وسكون[٣]" في بناء مؤسسات الدولة، وتنظيم الوضع الداخلي للبلاد، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الرقي الحضاري، والتقدم الاقتصادي مما جعل الأندلس تشهد في عهده نهضة حضارية شاملة، وتقدماً اقتصادياً كبيراً، وتطوراً علمياً ومعرفياً واسعاً[٤].

وفي مجال الجهاد ضد نصارى الشمال بذل الأمير عبدالرحمن الأوسط جهوداً كبيرة، وأخرج إليهم عدداً من الحملات قاد بعضاً منها بنفسه، وكلف بعض قادته بالأخرى[٥]، وكان لتلك الحملات أثرها في المحافظة على

=

(١) كورة تدمير: (Tudmir) كورة تقع في شرق الأندلس، وتجاور كورة جيان شرقاً وهي كورة متناهية في كرم البقعة، وطيب الثمرة. وحين اختطت مدينة مرسية سنة ٢١٦هـ/٨٣١م سميت الكورة باسمها. وأصبحت قاعدتها (انظر: ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٢٨٤، العذري: ترصيع الأخبار، ص ١، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٣٩).

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٢٠٥، ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٨.

(٣) المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٣٢.

(٤) عن تلك النهضة الحضارية انظر (حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط١، (القاهرة: دار المستقبل، ١٩٨٠م) ص ٢٨٤-٢٩٨. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، د.ت) ص ١٣٧-١٤٢.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٦٥. ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ١٩-٢٠.

حدود الدولة الاسلامية في الأندلس، وصد عادية النصارى عنها[١].

وفي مجال العلاقات الخارجية اتسعت صلات الدولة الأموية في عهده بشكل كبير لم يسبق له مثيل في عمر هذه الدولة، فقدمت إلى بلاد عبدالرحمن الأوسط عدد من السفارات من مختلف الدول المعاصرة له، تخطب ودّه، وتعقد الاتفاقيات السياسية والاقتصادية مع الدولة الأموية[٢].

ولقد دهم الأندلس في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط خطر جديد، لم يكن له بها ذكر من قبل، وهو خطر النورمان[٣] الذي غزوا الأندلس عن طريق المحيط الأطلسي لأول مرة في عام ٢٢٩هـ/٨٤٣م. فهاجموا بعض المدن الساحلية في غربي الأندلس، ثم صعدوا بمراكبهم عبر نهر الوادي الكبير حتى هاجموا إشبيلية[٤]. وقد تمكن الأمير عبدالرحمن الأوسط من

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٨٥-٨٧.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٦٦، المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٣١.

(٣) يعرفون في المصادر الاسلامية باسم " الاردمانيون" (انظر: ابن سعيد، المغرب، جـ١، ص ٤٩). أو المجوس، انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٨٧، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص٢٠. ابن خلدون: المصدر نفسه جـ٤، ص ١٦٥. المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٣٠) ويعرفون في المؤلفات الأوروبية باسم "الفايكنج" وموطنهم الأصلي البلاد الاسكندنافية في أقصى شمال أوروبا، وقد هاجموا الأندلس مرات متعددة، وكانوا متبريرين يدمرون ويسرقون وينهبون كلما أتوا عليه. (انظر: حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب، ص ٢٨٢).

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٨٧-٨٨، ابن خلدون، المصدر نفسه، جـ٤، ص

إخراج هؤلاء الغزاة من الأندلس. ثم حصن تلك المدن التي هاجموها[1]، وكانت أهم النتائج المترتبة عن تلك الغزوة هي نشأة الأسطول الأموي وتقويته، واهتمام الأمير به لمواجهة مثل تلك الأخطار[2]. التي تكررت فيما بعد – كما سيأتي بيانه إن شاء الله –.

في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م توفي الأمير عبدالرحمن الأوسط، ليورث لابنه محمد وخليفته محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) دولة ثابتة الدعائم، خضعت لها كل كور الأندلس – تقريباً – وامتدت علاقاتها الخارجية إلى أقصى الشرق والشمال والجنوب. وأصبحت الدولة الأموية حينها تتبوأ منزلة سامية بين الدول المعاصرة لها.

ورغام ذلك فقد واجه الأمير محمد بن عبدالرحمن لأول ولايته مصاعب ظهرت له في مختلف النواحي، وكانت بداياتها من مدينة طليطلة حيث لقي من أهلها عناءً شديداً، واستمرت ثوراتهم المتتالية طوال فترة حكمه تقريباً، رغم أن قواته قد استطاعت أن تحرز عليهم الانتصار في أكثر الأوقات، وأن تجبرهم على طلب الموادعة، وتلزمهم إظهار الولاء والطاعة[3].

=

١٦٥-١٦٦.

(١) العذري: ترصيع الأخبار، ص ٩٨-٩٩. المقري: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٢) انظر ابن عذارى: المصدر نفسه، ج٢، ص ٨٠-٨٥.

(٣) عن ثورات طليطلة المتكررة انظر: ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٩٤-٩٦. ابن

كما ثار عليه أهل ماردة في ٢٥٤هـ/٨٥٩م،[١] فخرج إليهم الأمير بنفسه فهزمهم حتى أذعنوا له بالطاعة، ثم أخذ من مشاهيرهم وقوادهم رهائن عنده كان منهم عبدالرحمن بن مروان الجليقي[٢]- الذي سيكون له بعد ذلك أثر كبير في تاريخ غربي الأندلس[٣].

وبالرغم من كثرة وقوة الثورات التي شهدها عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن إلا أن التحول الأكبر في تاريخ هذا الأمير حدث عندما قام بتعيين هاشم بن عبدالعزيز[٤] وزيراً له[١] حيث نتج عن هذا التعيين تغيير

=

الخطيب: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٠-٢١.

(١) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٠٠.

(٢) هو عبدالرحمن بن مروان بن يونس الجليقي، نسبة إلى جليقية حيث أصله من هناك وكان من أشد الثوار في غرب الأندلس حتى توفي بها في عام ٢٧٦هـ/٨٨٩م وهو باني مدينة بطليوس التي أصبحت قاعدة الغثر الأدبي الأندلسي في ٢٦١هـ/٨٧٤م، وكان ذا بأس وكيد عظيم إلى دهاء ومكر لا يلاحقه فيه أحد كما يصفه ابن حياة (المقتبس (م) ص ٣٤٣). وانظر: الضبي: بغية الملتمس، جـ٢، ص ٤٨٣).

(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٧٠.

(٤) أبو خالد هاشم بن عبدالعزيز بن هاشم، أصله من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه، حاز أسلافه الرياسة بالبيرة، وعظم قدره في قرطبة على يدي الأمير محمد الذي يؤثره بالوزارة ويرشحه على بنيه، ويوليه الامارة والقيادة، وقد تولى قيادة جيوش الإمارة أكثر من مرة، وتعرض لعدد من الهزائم، ظل في الوزارة إلى وفاة الأمير محمد ثم عينه خلفه المنذر بن محمد في الحجابة لأول عهده، ثم نكبه وقتله لأشياء حقدها عليه في خلافة ابيه. وكان مقتله في سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م. (انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ١٣٧-١٤٢. ابن سعيد: المغرب، جـ٢، ص ٩٤-٥٩. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١١٥).

جوهري في السلطة السياسية في الدولة الأموية، إذ تحولت الوزارة على يد هاشم هذا من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض[٢]. يفصح عن ذلك تمام الافصاح ابن سعيد[٣] حيث يقول: "وكان محمد قد فوَّضَ أمور دولته لهاشم بن عبدالعزيز أعظم وزرائه، واشتمل عليه اشتمالاً كبيراً". ويزيد الخشني[٤] الأمر توضيحاً فيقول عن هاشم: «فكان الناهض بأعباء الخلافة، والمتصرف في وجوه النظر والمستولي على أسباب التدبير، لا تنفذ العقود إلا به، ولا يحكم الأمير إلا على يده».

وتصف المصادر هاشم بأنه كان " تياهاً معجباً، كثير الاعتماد على ما يحقد عليه قلوب العباد"[٥] كما كان حاداً في طباعه وتصرفاته وتعامله مع زعماء البلاد ورؤساء القبائل[٦].

متعجلاً في قراراته[٧]. وكان من نتائج تعيين هذا الوزير، وتفويض الأمر إليه أن " اضطربت الأندلس بسوء تدبيره"[٨]. وكثر بها الثوار،

=

(١) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ٢١.

(٢) انظر عن تقسيم الوزارة وشروطها: ابن الخطيب، المصدر نفسه، ج٢، ص ١٨.

(٣) المغرب، جـ١، ص ٥٢-٥٣.

(٤) قضاة قرطبة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢، (القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص ١٥٩.

(٥) ابن سعيد: المغرب، جـ٢، ص ٩٤.

(٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٢١.

(٧) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٢٤.

(٨) ابن سعيد: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٩٤.

وتعاظمت قوتهم، حتى أعي البعض منهم الدولة، وكان من أشهرهم عبدالرحمن بن مروان الخليفي - السابق ذكره - الذي فر من يد الأمير محمد بن عبدالرحمن بعد أن استأمنه وأنزله معه قرطبة[١]. ثم استولى على معظم مناطق غرب الأندلس، واتخذ من بطليموس[٢] قاعدة له، ولم تستطع كل الحملات التي أخرجها إليه الأمير القضاء على ثورته، بل اضطر الأمير محمد في نهاية الأمر أن يعترف بابن مروان حاكماً على غرب الأندلس، مع الإقرار بالتبعية الإسمية للإمارة الأموية[٣]

وشهد عهد الأمير محمد بداية ثورة عمر بن حفصون[٤]، الذي يعد "أكبر الثوار بالأندلس" كما قال ابن حيان[٥]، والذي "أعي الخلفاء أمره، وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره"[٦] تلك الثورة التي أزرت بكل ثورة، والفتنة التي أقعدت كل فتنة. حتى أصبحت "فتنة سمر الركاب، وحديث الرفاق، شدة أسر،

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٢١.

(٢) بطليوس: تقع إلى الشمال الغربي من اشبيلية على بعد ستين فرسخاً (١٨٥ميل) منها وهي على نهر وادي يانة بنيت على يد الثائر عبدالرحمن بن مروان الجليقي في عام ٢٦١هـ/٨٧٩م (انظر: البكري المسالك والممالك، جـ٢، تحقيق: أدريان ليوفن واندري فيري (دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٢م) ص ٩٠٦-٩٠٧. سحر السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ بطليوس الاسلامية، جـ١، (الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة د.ت) ص ١٣٧-١٤٤.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٢٤-١٢٥.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٠٦ (نقلاً عن ابن حيان).

(٦) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٠٤.

وثقل وطأ وسعة ذرع، واتصال حبل" كما وصفها ابن الخطيب[١].

ويمكن أن نلخص العوامل التي نبعت منها قوة ثورة ابن حفصون في ثلاثة عوامل رئيسة هي:

١- رفعها لواء الشعوبية: حيث دعا إلى الثورة ضد العرب، ونزع السلطان من أيديهم، فانضم إليه المولدون والمسالمة، والمستعربون (نصارى أهل ذمة)[٢] وهم يمثلون أكبر عناصر السكان في الأندلس[٣]، فامتد بذلك تأييده في معظم كور الأندلس ومدنها -فضلاً عن مناطق ثورته في الجنوب[٤] -.

٢- سيطرتها على المناطق الجنوبية والشرقية للأندلس الغنية بمواردها الاقتصادية، والتي تقوم بها أهم الموانىء الأندلسية على شاطىء البحر المتوسط، مما مكنه - بعد استغلاله لتلك الموارد - من الاتصال بالخارج بسهولة.

٣- تلقيها الدعم الخارجي من قبل أعداء الأمويين في المغرب[٥]،

(١) الاحاطة، جـ٤، ص ٤٠.

(٢) ابن حيان: المقتبس، ق٣، تحقيق: مشلورم: انطونية (باريس، ١٩٣٧م)، ص ٥١.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٢٧-١٢٨.

(٤) محمد أبا الخيل: الأندلس الربع الأخير من القرن الرابع، ط١ (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ)، ص ١٢٢.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٦٥.

أو من قبل النصارى في شمال الأندلس[١].

لقد اشتملت تلك الثورة منذ قيامها في سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م عهد الأمير محمد ثم ابنيه المنذر وعبدالله ثم بداية عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، ولقد سير الأمير محمد إلى هذا الثائر عدداً كبيراً من الحملات المتتالية منها ما قادها بنفسه[٢]. ومنها ما استناب عليها ابنه المنذر[٣] أو بعض قادته ووزرائه[٤] بيد أن تلك الحملات لم تستطع القضاء النهائي على ثورة ابن حفصون، وإن نجح البعض منها في هزيمته، واضطراره إلى التسليم المؤقت[٥].

وكان آخر الحملات التي بعثها إليه الأمير محمد بن عبدالرحمن حملة عام ٢٧٢هـ/٨٨٥م بقيادة ابنه المنذر[٦]، والتي فرضت على ابن حفصون حصاراً شديداً، حتى كاد أن يسلم لها، لولا ورود خبر

وفاة الأمير محمد بن عبدالرحمن، مما اضطر المنذر إلى العودة

(١) ابن حيان: المقتبس جـ٥، تحقيق: شالميتا وآخرون (مدريد: المعهد الاسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩م)، ص ١٦٨.. أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري (عصر الخلافة) (دمشق ١٩٧٤م)، ص ٦-٧.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطه، جـ٤، ص ٤٠-٤١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٠٦.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٢٧.

(٥) ابن الخطيب: الاحاطة، جـ٤، ص ٤٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ٦، ص ٦٠، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٠٦.

السريعة إلى قرطبة[1].

إلى جانب ذلك كان الأمير محمد محباً للجهاد «غزَّاءً لأهل الشرك والخلاف، وربما أوغل في بلاد العدو الستة الأشهر أو أكثر يحرق وينسف»[2]. وقد تعرضت مملكة النصارى في آلبه والقلاع لعدد من الحملات الجهادية المتكررة من قبل قوات الأمير محمد بدءاً من عام ٢٤١هـ/٨٨٥م[3] كما بعث الجيوش أيضاً إلى أراضي برشلونه في الشمال الشرقي فكان لها هناك وقائع مذكورة[4].

وحينما هاجم المجوس النورمان سواحل الأندلس في عام ٢٤٥هـ/٨٥٩م لم يستطيعوا أن يحدثوا بها ضررا، حيث "وجدوا البحر محروساً، ومراكب المسلمين معدة، تجري من حائظ إفرنجة إلى حائط جليقية في الغرب الأقصى[5] " مما جعل تلك المراكب الغازية تعود خائبة بعد أن هاجمت بعض شواطىء المغرب الإسلامي[6].

وفي عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن اتسعت علاقات الدولة الأموية الخارجية، وارتفعت مكانتها، ووثقت صلاتها مع العديد من

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٠٦.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٤٩.

(٣) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٩٥. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٢١.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٩٥. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص١٦٧.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٩٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص ٢٩٩-٣٠٠، ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٦٧.

الدول المعاصرة لها في بلاد المغرب، والمشرق[١] وكان ملوك الفرنجة بها يُهادونه ويخطيون وده[٢].

استطاع الأمير محمد بن عبدالرحمن أن يُحكم قبضته على البلاد، في الفترة الأولى من حكمه، بيد أن الأمور قد بدأت تتخذ وجهة مخالفة لما كانت عليه، وذلك في أواخر حكمه، حيث كثرت الثورات، وتعدد المنتزون في أطراف الدولة، حتى اتسع الخرق على الراقع، وبدأت الأمور تسير إلى الانحدار - كما ذكر سابقاً - فلم يمت الأمير محمد في سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م إلا والأندلس تضطرم بنار الفتنة، وتسودها عوامل الفرقة والانقسام لتدخل الأندلس بموته مرحلة حرجة جداً في تاريخ الدولة الأموية.

ولي الأمر من بعد الأمير محمد ابنه الأمير المنذر (٢٧٣/٢٧٥هـ-٨٨٦م/٨٨٨م) وقد كان "

بعيد الهمة، قوي الشكيمة" كما يصفه كل من ابن عبدربه[٣]، وابن الخطيب[٤]. ويصفه ابن عذارى[٥] بقوله: " ولم يكن أحد من الخفاء قبله مثله

(١) ابن الخطيب أعمال الأعمال، جـ٢، ص ٢٢.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٣.

(٣) العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٥١.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٣.

(٥) المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٢٠.

شجاعة وصرامة وعزماً وحزماً". بتلك الصفات القوية بدأ المنذر حكمه وعقد عزمه على استرجاع هيبة الدولة، وإعادة المناطق الخارجة عن سلطة بني أبيه إلى حضيرة الدولة[١]. فكانت أول خطوة قام بها أن قتل وزير أبيه هاشم بن عبدالعزيز - حين رأى أن له دوراً رئيساً في فساد الأمور[٢].- ثم ركز المنذر جهوده في سبيل القضاء على ابن حفصون، فتابع الحملات إليه، وقادها بنفسه حتى ضيق الخناق عليه، وكسر شوكته "وأوفى به لولا أن المنية عاجلته[٣] ". توفي الأمير المنذر وهو يحاصر ابن حفصون في سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م وحمل في نعشه حتى دفن بقرطبة[٤]. لقد عاجلت المنية الأمير المنذر فلم يستطع " لقصر مدته، وتقلص أيامه رتق ما كان انفتق من الملك"[٥]

أجمع من حضر وفاة الأمير المنذر بقلعة ببشتر من قواد الدولة وولاتها وكبرائها على بيعة أخيه عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) "دون بيعة متقدمة، ولا وصية متبعة " كما يقول ابن حيان[٦]. فتم له الأمر، وسلمت إليه مقاليد الحكم.

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٢٥. ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٦٩.

(٢) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٥٣. ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٦٩.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣٢.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس جـ١، ص ٤٠-٤١. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٢٥.

(٥) مجهول: أخبار مجموعه، ص ١٢٥.

(٦) المقتبس (ط) ص ١.

ويصف عدد من المؤرخين الوضع الذي كانت عليه الدولة الأموية بالأندلس عشية تولي الأمير عبدالله الحكم، فيقول ابن حزم[١]: "وفي أيامه امتلأت الأندلس بالفتن وصار في كل جهة متغلب" ويقول ابن حيان[٢]: "هذا الأمير عبدالله المُنغَّص دنياه بتوسع فتاق الفتنة، وتضيق نطاق الخطة، وقصور مقدار الجباية عن عرض النفقة". ويقول ابن الأبار[٣]: "وفي أيامه اضطرمت نار الفتنة بالأندلس فتنغص عليه ملكه". وكان ابن الخطيب[٤] أكثر دقة وتفصيلاً في وصفه لتلك الأوضاع حيث يقول: "وتصيرت إليه الخلافة، وقد تحيف النكث أطرافها، واقتسمها الثوار، وكلب عليها الأشرار، ولم يبق منها إلا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة، والقليل من غيرها".

ويقول مؤلف كتاب "أخبار مجموعة"[٥] " ثم إن الأمور تفاقمت في ولايته وتفاوتت وبعد قرب تداركها، فتفرقت أجناده، وعجز عن نصره قواده... وأهلك الجبايات باشتداد شوكة الثوار عليه بكل ناحية... واستولى الفساد في كل وجه".

إذا فقد أفضت الإمارة إليه وقد تصدعت عصا الجماعة، وفرق الشقاق

(١) رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٣.

(٢) المصدر نفسه (ط) ص ٣٩.

(٣) الحلة السيراء، جـ١، ص ١٢٠.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٧.

(٥) مجهول: ص ١٢٥.

وحدة البلاد، وانحصر سلطان بني أمية في قرطبة وضواحيها، بفعل الثوار الذين استقلوا بالكور، ونافسوا بني أمية سلطانهم، وفي الجانب الآخر تطاولت أعناق النصارى ومدوا أيديهم إلى بلاد المسلمين. فاستولوا على الثغور القريبة منهم، وضايقوا المسلمين فيما يليهم، مستغلين سوء الوضع الداخلي في الدولة الأموية، ويصف ابن عذارى[1] ذلك بقوله: "وأفضت الخلافة إليه وقد تحيفها النكث، ومزقها الشقاق... وقد تمالا على أهل الايمان حزب الشيطان، وصار الناس في ظلماء ليل داجٍ لا إشراق لصباحه، ولا أفول لنجومه، وتألب على أهل الاسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جردوا سيوفهم على أهل الاسلام، فصار أهل الاسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيش مجهوداً، ويموت هزلاً".

لقد استدعى ذلك الوضع المتأزم من الأمير عبدالله بذل جهود كبيرة جداً في سبيل المحافظة على ملك بني أمية في الأندلس، ثم في سبيل إعادة بسط سلطانهم على أقاليم الأندلس وكورها. كما استدعى ذلك منه أن يكون على حذر شديد من كل من يتعامل معه من أقاربه، وقواده ووزرائه وغيرهم، وإن كان قد بالغ في الحذر كثيراً حتى أفضى به الأمر إلى قتل ولديه محمد والمطرف واحداً بعد الآخر بتهمة الخيانة له، والتآمر عليه[2]. وكذلك فعل ببعض إخوانه[1].

(١) البيان المغرب، جـ٢، ص ١٢١.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣٢-١٣٥. ابن حيان: المقتبس (ط) ص٣٩،

وفي جانب إعادة بسط سلطان الدولة، رأى الأمير أنه لا بد من الجمع بين القوة والسياسة في التعامل مع أولئك الثوار. فرأى أن أول من يجب البدء به هو كبير أولئك الثوار، وهو عمر بن حفصون، فبعث إليه بطلب بيعته وبيعة من قبله فما كان من ابن حفصون غير السمع والطاعة " فبقي ابن حفصون سامعاً مطيعاً منتهياً عما نهى عنه، واقفاً عند ما أمر به[٢] " غير أن تلك المسالمة والموادعة من ابن حفصون لم تكن حقيقية وإنما كان "ينافقه" كما وصفه ابن حيان[٣]. إذ ما لبث ابن حفصون أن نقض عهده مع الأمير، واستأنف ثورته، وزادت جموعه، وكثر أتباعه، وتحيز إليهم نصارى الذمة، فصار جميعهم إلباً على العرب قائمين بدعوة عمر بن حفصون"[٤]. ولقد اضر ابن حفصون بالإمارة الأموية كثيراً، وأخاف قرطبة وأهلها، وضيق عليهم الخناق في حياتهم ومعاشهم بسيطرته على الطرق الشرقية والجنوبية[٥].

لذلك ركز الأمير عبدالله جهوده في سبيل القضاء على تلك الثورة، وتابع الحملات إليها حتى ألزم ابن حفصون الفرار إلى معقله في قلعة

=

ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٧٥-١٧٦.

(١) ابن حيان: المصدر نفسه (ط)، ص ٥٠-٥١.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٢١-١٢٢.

(٣) المصدر نفسه (ط) ص ٥٠.

(٤) ابن حيان: المصدر نفسه (ط)، ص ٥١.

(٥) محمد أبا الخيل: الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ١١٩-١٢٠.

بيشتر[١] فتحصن بها[٢].

لقد أسهم في إضعاف قوة ابن حفصون - رغم كثرة أتباعه، وحصانة موقعه - الضربات المتتالية التي وجهها له الأمير عبدالله، إلى جانب تلك الحملات التي كان يشنها عليه باستمرار عدد من قادة القبائل العربية القاطنة في مناطق جنوب الأندلس، والتي خشيت على نفسها من ثورة المولدين التي يتزعمها ابن حفصون[٣].

وفي مناطق غرب الأندلس اشتدت الثورات وكثرت الغارات على اشبيلية من قبل كثير من الخارجين عن سلطان الدولة هناك ونشبت الحروب العصبية البغيضة بين العرب والبربر والمولدين هناك، حتى انفرط حبل الأمن بها " وظهر عجز السلطان وبان وهنه، ومقتتة الرعية، وقويت أطماع أهل الشر في كل جهة"[٤].

(١) بيشتر: Bobastro حصن منيع من أعمال رية، يقع بين مدينتي رندة ومالقة، وبينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً، وهو حصن على صخرة صماء منقطعة (انظر: ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٥٣ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٧٩).

(٢) عن تلك الحملات وآثارها،انظر: ابن حيان: المقتبس (ط) ص ٩٣، ٩٧، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٢٩، ص١٤٢. وحسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) مثل حملات سوار بن حمدون وسعيد بن جودي زعيما قبائل العرب في كورة البيرة ضد ابن حفصون (انظر عنها: ابن حيان،المقتبس (ط) ص ٢٩-٣١. ابن الخطيب: الاحاطة، جـ٤، ص ٢٧٠-٢٧٢، ٢٧٥-٢٧٧. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٣٤-١٣٥).

(٤) ابن حيان: المصدر نفسه (ط) ص ٦٩-٧٠.

وقد أسهب ابن حيان[1] في الحديث عن تلك الثورات المتتالية، وتلك الفوضى التي عمت غرب الأندلس بأكمله في أيام الأمير عبدالله، والتي تباينت في موقفها من الإمارة الأموية بين رافض لحكم بني أمية معارض لهم[2]، وبين معلنٍ للولاء والطاعة لهم وإن كان ذلك اسماً لا حقيقة[3].

وقد اضطر الأمير عبدالله - حيال قوة تلك الثورات، وما أحدثته من أضرار بالغة بالعاصمة قرطبة عسكرياً واقتصادياً[4]. أن ينتهج أسلوب المسايسة وتأليف القلوب مع بني حجاج[5] – ليكسب بذلك اعترافهم بالإمارة الأموية وطاعتهم لها[6].

لقد أمضى الأمير عبدالله حكمه كله في حروب متصلة مع أولئك الثوار الذين تكاثروا في كل ناحية من نواحي الأندلس[7]، ولئن كان الأمير عبدالله - رغم جهوده الكبيرة التي بذلها - لم يستطع القضاء التام

(١) المصدر نفسه (ط) ص ٦٧-٨٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ١٧٤-١٧٥.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٣٩.

(٥) بنو حجاج: يرتفع نسبهم إلى قبيلة لخم اليمنية، وكان أشهر زعمائهم ابراهيم بن حجاج اللخمي الذي استولى على اشبيلية أيام الفتنة - هذه - فرأس فيها وظل حتى وفاته في عام ٢٩٨هـ/٩١٠م (انظر: ابن حيان المقتبس (ط ١ ص ١١-١٢) العذري: ترصيع الأخبار، ص ٣٣.

(٦) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٣٨. ابن حيان: المصدر نفسه، (ط) ص ٨٢-٨٤.

(٧) حسين مؤنس: معالم تاريخ الأندلس، ص ٣٠٥.

على أولئك الثوار، ولا نجح في إعادة وحدة الأندلس تحت حكم بني أمية كما كانت في أوائل عهد والده الأمير محمد بن عبدالرحمن. فإنه قد نجح في استعادة هيبة الدولة - ولو جزئياً - وفي تقليم أظافر أقوى الثوار بها مثل ابن حفصون وبني حجاج وابن مروان الجليقي، وثوار سرقسطة ونحوهم[١]، وأثبت أنه لا زال لدى بني أمية من القدرة والقوة ما يستطيعون به إعادة بسط سلطانهم، وتثبيت دعائم حكمهم للأندلس، وعقد عزمه على مواصلة استئصال شآفة أولئك الثوار، وقطع كل دعوة في البلاد غير دعوة بني أمية[٢]، غير أن الأجل وافاه قبل إتمام تلك المهمة حيث توفي شهر ربيع الأول من عام ٣٠٠هـ/٩١٢م[٣].

ورغم وجود عدد كبير من أخوته وأبنائه وأبناء إخوته[٤] الذين كانوا مؤهلين للحكم، إلا أنهم رغبوا عنه جميعاً لما رأوا من كثرة الثورات وتزعزع عرش بني أمية، وتقلص سلطانهم، وانحصار أمرهم، فدفع الحكم إلى عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله (٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) الأثير المحبوب لدى جده عبدالله[٥] قال ابن حزم[١]: «وكانت

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٧٥-١٧٦. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٢٥-١٥٢.

(٢) الضبي: بغية الملتمس، جـ١، تحقيق: ابراهيم الأبياري، ط١ (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م) ص ٣٨.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٣. ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ١٢٠.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٢٩.

(٥) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص١٨٢.

ولايته من المستطرف، لأنه كان في هذا الوقت شاباً، وبالحضرة جماعة أكابر من أعمامه وأعمام أبيه، وذوي القُعْدُد في النسب من أهل بيته، فلم يعترض معترض واستمر له الأمر».

لقد خلّف الأمير عبدالله لحفيده عبدالرحمن بن محمد تركة مثقلة بالفتن والثورات حيث كانت الأندلس «جمرة تحتدم، وناراً تضطرم، وشقاقاً ونفاقاً» كما يصفها ابن عبد ربه[٢].

وكان على الأمير الجديد أن يواجه كل تلك الفتن، ويتصدى لها - رغم صغر سنه- إذ كان سنه حين بويع بالحكم لا يتجاوز الثانية والعشرين[٣]- فإن الله قد وهبه من القدرات النفسية والذهنية ما استطاع به أن يعيد بسط سلطان بني أمية على الأرض الأندلسية بكاملها من جديد[٤]. حيث «كان شهماً صارماً» كما يصفه كل من الحميدي[٥]، والذهبي[٦]، إلى جانب ما أثر عنه من قدرة كبيرة على «اصطفاء الرجال واستمالة أهوائهم بالمواعيد وبذل الأموال «كما يذكر ذلك عنه

=

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٩٤.

(٢) العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٣) ابن سعيد: المصدر نفسه، جـ١، ص ١٨١.

(٤) أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٤.

(٥) جذوة المقتبس، جـ١، ص ٤٢.

(٦) سير أعلام النبلاء،جـ٨، ص ٢٦٦.

الحجاري في المسهب»[١].

وقد اتضح أثر تلك الصفات في السياسة التي انتهجها في مواجهة الثوار الذين كان في مقدمتهم عمر بن حفصون الذي ركز الناصر على محاربته والقضاء على ثورته، فجرد إليه الحملات المتتابعة، واستطاع أن يقضي على كل من كان يمده أو يعاضده من بعض المتنمرين في جنوبي الأندلس[٢]. كما استطاع أن يقطع عنه الإمدادات التي تصل إليه من خارج الأندلس[٣]، وبذلك ضيق عليه الخناق حتى كانت نهاية تلك الثورة التي أقضت مضجع الدولة الأموية على يديه في عام ٣١٥هـ/٩٢٨م حين دخلت قوات بني أميه إلى حصن ببشتر« لسبع بقين من ذي القعدة من هذه السنة، وملكها السلطان»[٤].

واتبع الناصر الأسلوب نفسه مع بني حجاج المستولين على إشبيلية وضواحيها في غربي الأندلس حتى استطاع في عام ٣٠١هـ/٩١٤م أن يستعيد من يدي بني حجاج تلك الكورة المهمة، بعد حملات عسكرية ناجحة[٥].

بعد ذلك وجه الناصر همه إلى بني مروان الجليقي المستولين على الثغر الأدنى فاستطاع في عام ٣١٨هـ/٩٣٠م أن يقضي على تمردهم

(١) ابن سعيد: المصدر نفسه، جـ١،ص ١٨٢.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٧٩.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٦٥.

(٤) ابن حيان: المقتبس (ش) ص ٢١٣.

(٥) ابن حيان: المصدر نفسه، (ش) ص ٦٩-٨٤. ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٧٩.

ويستولي على بطليوس قاعدة ثورتهم[١] ثم انطلق بعد إخضاع الثغر الأدنى لإخضاع الثغر الأوسط وعاصمته طليلطة - مركز المعارضة الدائم - واضطر لقوة المدينة وشدة منعتها، وتأصل الثورة في أهلها - أن يبتني أمامها حصناً أسماه "مدينة الفتح"[٢]. "وشحنها بالأقوات والعدد وأنزلها طوائف من نخب الجند أولى الغناء والجلد" كما يقول ابن حيان[٣]. ورغم أن أهلها استعانوا بالنصارى عدة مراة فإنهم " لم يغنوا عنهم فتيلاً، ولا كشفوا عنهم عذاباً، ولا جلبوا إليهم إلا خزياً وهواناً"[٤] وبعد حصار دام سنتين اضطر أهل طليطلة إلى التسليم والرضوخ للطاعة، وتقديم الولاء والعودة إلى الجماعة[٥].

وعن طريق المسايسة والتأليف استطاع الناصر أن يستعيد الثغر الأعلى كاملاً[٦]، كما استعاد مناطق أخرى في شرقي الأندلس بالأسلوب نفسه[٧].

---

(١) ابن حيان: المصدر نفسه (ش) ص ٢١٧-٢٧٢، ويجعل مؤلف كتاب «تاريخ عبدالرحمن الناصر» سقوط المدينة في عام ٣١٧هـ/٩٢٩م انظر: مجهول: تاريخ عبدالرحمن الناصر، تقديم: عدنان آل طعمه، ط١، (دمشق، دار سعد الدين، ١٩٩٢م)، ص ٥٨-٥٩.

(٢) ابن حيان: المقتبس (ش) ص ٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه (ش) ص ٢٨٣.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٠٦.

(٥) ابن حيان: المصدر نفسه (ش) ص ٣١٧-٣٢٢.

(٦) أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع، ص ١٧-١٨.

(٧) مجهول: المصدر نفسه، ص ٤٧-٤٨. ابن حيان: المصدر نفسه (ش) ص٢٧١. العذري:

وبفضل الله تعالى ثم بفضل تلك الحملات العسكرية المتتالية وذلك الأسلوب المتميز في تأليف القلوب، وفي الوفاء بالعهود والمواثيق، وحفظ مكانة ومنزلة الخصوم - وإن غلبوا - [1]، استطاع عبدالرحمن الناصر أن يبسط سلطان بني أمية من جديد على بلاد الأندلس " فأخمد نيرانها، وسكن زلازلها، وافتتحها عَوداً كما افتتحها بدءاً سميه عبدالرحمن بن معاوية - رحمه الله[2] - ". فلم يبق عليه في الأندلس مخالف ولا نازعه منازع، ودخل الناس أفواجاً في طاعته، ورغبوا في مسالمته"[3].

ولم يكتف الخليفة عبدالرحمن الناصر بإعادة بسط سلطان الدولة الأموية على أرجاء الأندلس، وخضوعها لسلطانه وحكمه، بل مدَّ حدود دولته إلى ما وراء البحر، فخضعت له بلاد العدوة المغربية بعد حروب وحملات مكثفة مع حكامها وولاتها[4] .

=

ترصيع الأخبار، ص ١٣-١٤.

(١) عن وفاء الخليفة عبدالرحمن الناصر بما يبرمه من عقود ووفائه لمن ينزل مصالحاً له، ثم حفظه لمكانة أولئك الثوار حين يسلمون إليه. انظر: ابن حيان: المقتبس (ش) ص ٢٧١، ٣٢٢، ٣٩٠، ٤٠٤-٤٠٥ وغيرها.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، ص ٤٥٣.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٢٩.

(٤) ابن حيان: المقتبس (ش) ص ٢٠-٢٩، ٢٥٠-٢٥٤.. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس (الرباط: دار المنصور للطباعة والنشر، ١٩٧٢م) ص ٨٩-١٠٢.

وبعد أن بسط عبدالرحمن الناصر سلطانه على معظم أرجاء الأندلس، وأصبحت تدين له بالولاء، وتقر له بالتبعية اتخذ لنفسه مسمى "أمير المؤمنين"[١] و"تلقب بالناصر لدين الله"[٢] وكان ذلك في سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[٣] وهو أول من تسمى بذلك من حكام بني أمية في الأندلس[٤]. إذ اكتفى من سبقه منهم بلقب "الأمير[٥]".

إلى جانب ما سبق كان أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر " كثير الجهاد والغزو إلى دار الحرب"[٦]. حيث غزا بنفسه بلاد الروم إثنتي

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ١٩٨.

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٤.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٤. ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ١٨٢. ويؤكد أن ذلك كان في أواخر السنة السابعة عشرة من ولايته بينما يقول ابن الأبار أن ذلك كان بعد سنتين من خلافته "الحلة السيراء، جـ١، ص ١٩٨" ويجعل ابن حيان ذلك في سنة ٣١٦هـ (المقتبس (ش) ص ٢٤١. وكذلك ابن الخطيب (أعمال الأعلام جـ٢، ص ٢٩)، ويوافقهما على ذلك صاحب كتاب الحلل الموشيه "مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامه ط١ (الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ص ٣٠-٣١.

(٤) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ١٨١-١٨٢، ابن الخطيب: أعمال الأعمال، جـ٢، ص ٢٩. ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ١٧٦.

(٥) الحميدي: جذوة المقتبس، جـ١، ص ٤٢.ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص٤٢.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٧٧.

عشرة غزوة"[١] فضلاً عما قاده أبناؤه وقواده من حملات جهادية إلى تلك الممالك[٢]. مما كان له أبعد الأثر في صد عادية أولئك النصارى عن بلاد الاسلام وثغوره، فضلاً عن إعلان بعضهم التبعية له" فوضع عليهم الخراج، ودانت له ملوكها"[٣].

وفي شهر رمضان من سنة خمسين وثلاثمائة توفي الخليفة عبدالرحمن الناصر[٤] " أعظم ما كان سلطانه، وأعز ما كان الاسلام بملكه[٥] " حيث كانت الدولة الأموية تقف في قمة الهرم بين الدول المعاصرة لها وقد بلغت من القوة والنفوذ حداً بعيداً، فالوضع الداخلي في غاية الاستقرار إذ " صار جميع أقطار الأندلس في طاعته[٦] " والتقدم العمراني والعلمي قد بلغ غاية كبيرة بتشجيعه للعلم وطلابه[٧]، وبما أنشأه من مباني وقصور ومدن كان أشهرها مدينة الزهراء[٨] التي

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٢٦٧.

(٢) ابن حيان: المقتبس (ش) ص ١٢٧-١٢٨، ١٥٥-١٥٧، ١٨٦-١٨٨. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٧٥-١٧٩، ١٨٥-١٨٩.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٢٦٧.

(٤) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٤.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٨٥.

(٦) الحميدي: جذوة المقتبس، ق ١، ص ٤٢.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٨) الزهراء: بناها الخليفة الناصر بدءاً من عام ٣٢٥هـ/٩٣٦م في سفح جبل العروس على بعد خمسة أميال إلى الغرب من قرطبة، واتخذها مقراً للخلافة، ومسكناً لخاصته ووزرائه،

اتخذها عاصمة له.

ونمت العلاقات الخارجية وتطورت بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه الدولة، فهادت الناصر ملوك النصارى في شرق أوروبا وغربها وشمالها[١]. وهاداه ملوك بلاد المغرب[٢]، فضلاً عمن تبعه ودان له بالولاء والطاعة منهم[٣].

ثم تولى بعد الخليفة عبدالرحمن الناصر الحكم ابنه الخليفة الحكم المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ - ٩٦١-٩٧٧م)[٤] الذي ورث عن أبيه دولة ثابتة الدعائم، راسخة البنيان، فكانت سياسته امتداداً لسياسة والده، مما جعل الجبهة الداخلية تسير على ما كانت عليه من قبل في هدوء وسكينة، دون حدوث ثوراتٍ ولا فتنٍ ولا قلاقل، يعبر عن ذلك ابن

=

وجلب إليها الرخام من مختلف مدن الأندلس ومن القسطنطينية والمغرب. كذلك أنشأ بها مسجداً جامعاً ودوراً لصناعة الآلات الحربية إلى جانب تصنيع أدوات الزينة والحلي. وقد توفي الناصر قبل أن يتم بناءها فأتمه الحكم المستنصر من بعده، وظلت الزهراء قائمة إلى أيام الفتنة في أواخر عصر الخلافة حيث هاجمها البربر ودمروها تماماً حوالي عام ٤٠٠هـ-١٠١٠م انظر: المقري: نفح الطيب جـ٢، ص ١٠٠-١١٢. السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس (الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥م)، ص ٤٥-٥٠.

(١) المقري: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤٨-٣٥٥.

(٢) ابن حيان: المصدر نفسه (ش) ص ٢٦٧-٢٦٩.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٠٠-١٠٢.

(٤) ابن حزم: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٩٤. الحميدي: المصدر نفسه، ق١، ص ٤٦.

الخطيب[1] بقوله: " وفي أيَّامه، سكنت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة".

وكان الخليفة الحكم المستنصر بالله " حسن السيرة فاضلاً عادلاً شغوفاً بالعلوم، حريصاً على اقتناء دواوينها، يبعث فيها الى الأقطار والبلدان" كما يصفه ابن الأبار[2]. ويصفه الحميدي[3] بأنه كان " محباً - للكتب - مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله" ونتيجة لهذا فقد صرف الحكم المستنصر بالله جل همه إلى بناء نهضة علمية بارزة، كانت السمة الغالبة على عهده، حتى اعتبر رائداً للنهضة العلمية في عصر الخلافة[4].

وإلى جانب ذلك أهتم الخليفة الحكم المستنصر بتأمين حدود بلاده والمحافظة عليها، وصد اعتداءات النصارى، ومنعهم من الأضرار بالمسلمين في مناطق الثغور، إذ رأى الجلالقة في وفاة الخليفة عبدالرحمن الناصر فرصة للاعتداء على الثغور المحاذية لهم، والاستيلاء عليها، فقاموا بمهاجمتها، غير أنهم وجدوا الحكم منتهباً لهم حيث بادر بالخروج اليهم " بنفسه واستباحها، وقفل، فبادروا إلى عقد

(١) أعمال الأعلام، جـ٤، ص ٤١.

(٢) الحلة السبراء، جـ١، ص ٤١.

(٣) جذوة المقتبس، ق١، ص ٤٣.

(٤) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ط١، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي، بجامعة أم القرى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٧٢.

السلم معه، وانقبضوا عما كانوا فيه"[١].

وحذا حذو الجلالقة معظم حكام النصارى الشماليين الذين أكدت لهم حملات الحكم المستنصر المتكررة إلى بلادهم، أنه حريص على حدود بلاده منتبه لتحركاتهم، وأن إطلاق أسير واحد من أيدي النصارى هو " أفضل ما يسر به أمير المؤمنين ويبتهج به، ويكافىء عليه"[٢]. لذلك لزموا الطاعة وقدمت رسلهم إلى بلاد الخليفة تعلن الولاء والتبعية له[٣]. بل وتطلب مساعدته في بعض قضاياها الداخلية[٤].

كما استطاع الحكم المستنصر المحافظة على ولاء عدد من ولاة وحكام المغرب الأقصى لبني أمية، ولم يتوان في بعث الحملات العسكرية المتتالية إلى مواقع أخر في بلاد المغرب لطرد قوات العبيديين[٥] منها وضمها إلى سلطان بني أمية، وقد تحقق بذلك بسط نفوذه على بلاد المغرب الأقصى كاملة[٦].

ورغم ما حظيت به الأندلس في عهد الحكم المستنصر من هدوء واستقرار داخلي، وما حققته من تقدم كبير في توثيق العلاقات الخارجية

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٨٥.

(٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: عبدالرحمن الحجي (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م)، ص ٢١.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ٢٢.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٣٥. ابن خلدون: العبر، جـ٤،ص ١٨٦.

(٥) انظر عنهم: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٤٠- ٢٤٥.

(٦) عن تلك الحملات انظر: ابن حيان: المصدر نفسه (ح)، ص ٣٨-٣٥٦، ٨٩-٩٦، ١٠٢، ١٠٨ -١١٨، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٨٧-٩٨، أحمد بدر، الأندلس في القرن الرابع، ص ٩٢.

للدولة مع القوى المعاصرة لها، فإن عهد الحكم قد شهد تطوراً سياسياً داخلياً سيكون له أثر كبير في مستقبل البلاد عموماً، وفي تاريخ الدولة الأموية خصوصاً. وهو ذلك التنافس الشديد الذي قام بين بعض مراكز القوى في الدولة في أواخر عهد الحكم المستنصر وكان ميدانه قصر الخليفة نفسه، وسببه تولية الخليفة الحكم المستنصر ولاية العهد ابنه القاصر هشام المؤيد (٣٦٦-٤٠٣هـ/٩٧٦-١٠١٢م) الذي لم يتجاوز سن الحادية عشرة من عمره[١]، مما فتح الباب بين كبار رجال الدولة للتنافس على الانفراد بالسلطة، وتسيير مقالد الأمور، والسيطرة على شؤون الدولة، وتصريفها باسم الخليفة القاصر.

وكان قطبا ذلك الصراع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي[٢]

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٦. الحميدي: جذوة المقتبس، ق١، ص ٤٧، المراكشي: المعجب، ص ٤٥.

(٢) أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز عن عبدالله بن كسيلة، الحاجب المصحفي، أصله بربري من شرق الأندلس، كان في أيام الخليفة الناصر كاتباً، ثم رقاه الحكم المستنصر إلى الوزارة ثم عينه حاجباً له، وظل كذلك، حتى تولى هشام المؤيد، فأقر في بداية الأمر في الحجابة وتصرف في الأمور عام واحد، ثم نكبه المنصور بن أبي عامر حينما سيطر على أمور الدولة وأودعه السجن، وظل به حتى قتله ابن أبي عامر في سجنه سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م. انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ق١، ص ٢٨٩. ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٥٧-٢٦٧. الفتح ابن خاقان: مطمع الأنفس ومسرح التأنس، تحقيق: محمد علي شوابكه، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٥٣-١٦٦).

حاجب الخليفة الحكم المستنصر ومحمد بن أبي عامر[١] ، قائد الشرطة وقاضي القضاة في غرب الأندلس[٢].

لقد ظل ذلك التنافس والصراع بين أولئك المتنفذين يسير داخل قصر الخلافة في سرية وخفاء طوال حياة الخليفة الحكم، حتى إذا توفي الخليفة في شهر صفر من سنة ست وستين وثلاثمائة للهجرة[٣]. وبويع لولي عهده هشام بن الحكم - الذي تلقب بالمؤيد بالله[٤] - " فلم يزل متغلباً عليه، لا يظهر ولا ينفذ له أمر " [٥]، انفجر ذلك الصراع، وظهر علناً، حتى أودى

(١) محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعافري. الملقب بالحاجب المنصور، دخل جده عبدالملك إلى الأندلس في أوائل الفتح الاسلامي، وسكن الجزيرة الخضراء في جنوبي الأندلس، وبها ولد محمد هذا ثم رحل إلى قرطبة فدرس بها على كبار العلماء في حينها، وكان في أول أمره كاتباً للعرائض على باب الخليفة، ثم تقرب من الخليفة الحكم حتى أصبح وكيلاً لصبح أم هشام المؤيد للنظر في أموالها وضياعها، ثم ولاه الحكم عدة مناصب في الدولة، حتى إذا توفي الحكم وولي هشام المؤيد استولى ابن أبي عامر على الحجابة وصرَّف أمور الدولة، وأصبح الحكم في يده إلى أن توفي عام ٣٩٢هـ/١٠٠١م (انظر: الفتح ابن خاقان، مطمع الأنفس ص ٣٨٨-٣٩٧. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٤، م١، تحقيق: إحسان عباس، ط١ (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م، ص ٥٦-٥٧. ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٦٨-٢٧٧. ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ١٩٩-٢٠٣.

(٢) ابن حيان: المقتبس (؛) ص ٤١. ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٤٧.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ العلماء، جـ١، ص ١٥. الضبي: بغية الملتمس، جـ١، ص ٤٢.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٤٣.

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٦.

بحياة عدد من كبار رجالات الدولة وقادتها، وكان في مقدمتهم الحاجب جعفر المصحفي الذي قتله ابن أبي عامر في سجنه سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م[١] وانفرد ابن أبي عامر بمقالد الأمور، وسلمت له السلطة مذعنة.

وكان ابن أبي عامر رجل دهاء وفطنة، بعيد الهمة، شديد الحرص[٢]، فما إن تخلص من المصحفي ووصل إلى سدة الحكم حتى ركز جهوده في ثلاثة محاور رئيسة رأى أنها هي التي ستمكن له، وأول تلك المحاور: التخلص من رجال الحكم المستنصر، الذين عرفوا باسم "الصنائع الحكميين"[٣] ليأمن من بطشهم، وينجو من مؤامراتهم[٤]، واستبدلهم برجال اصطنعهم لنفسه[٥] " فنسخ رجال الدولة برجاله "[٦].

والثاني: محاولة استمالة الجند إليه حيث " أرخص لهم العطاء"[٧] ثم استكثر من البربر الذين استقدمهم من بلاد المغرب، فأصبحوا يكونوا

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق٤، م١، ص ٦٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٨٩.

(٣) وهم كبار رجال الدولة من القادة والوزراء الذين خدموا الحكم المستنصر (أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٣٠).

(٤) أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٣٠.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٥٩-٦٠.

(٦) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٢٠٠.

(٧) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٨٩.

صلب جيشه، وكبار قادته[١]. وكان كثير البذل للجند، حتى قال ابن سعيد[٢] واصفاً تلك السياسة لابن أبي عامر: "وقد ملك الجند بما رأوه من حسن كرمه". ويقول: ابن بسام[٣] عن ذلك: " فخلص له الجند، واستهلكوا في طاعته لما رأوا من كرمه". وبذلك ضمن الجيش إلى جانبه.

والمحور الثالث: التقرب إلى الرعية وتمثل ذلك في أمرين: أولهما: تقريبه للعلماء وإعلائه مكانتهم يقول ابن خلدون[٤]: " وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع" ويقول المراكشي[٥]: " وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة". إلى جانب ما أثر عنه من السيرة الحسنة، والعدل، إذ كان " متسماً بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذكر الله ذكِّر، وإذا خوف من عقابه ازدجر"[٦].

والأمر الثاني: كثرة جهاده، فقد كان كثير الغزو والجهاد إلى بلاد النصارى، حتى بلغت غزواته في تلك البلاد أكثر من خمسين غزوة[٧] "لم

(١) المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٨٠-٨٣١.

(٢) المغرب: جـ١، ص ٢٠٠.

(٣) الذخيرة: ق٤، م١، ص ٦٢.

(٤) العبر، جـ٤، ص ١٨٩.

(٥) المعجب، ص ٦٠.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٨٩.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٦٩. وقد أورد العذري قائمة بغزوات ابن أبي عامر

ينكسر له راية، ولا فل له جيش"[١] وكان لغزواته تلك أبعد الأثر في كسر شوكة النصارى وإلزامهم الطاعة والولاء يقول عن ذلك ابن خاقان[٢]:

وبعد كل غزوة كان ابن أبي عامر يعود مثقلاً بالسبي والغنائم[٣] وبتلك الانتصارات وبذلك السبي والغنائم "استطاع محمد.. استمالة قلوب العامة والخاصة، وتعرفوا فيه يُمن النقيبة، فبعد صيته" كما يقول ابن عذارى[٤].

بكل ذلك استطاع الحاجب المنصور أن ينفرد بالخليفة هشام المؤيد وأن يحجر عليه، ويقصيه عن أمور الحكم والدولة حتى لم يبق لهشام المؤيد من أمور الدولة والحكم غير الاسم خاصة[٥] "واستبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما تفرد وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوه"[٦].

ومع أن أبي عامر قد أصبح هو الحاكم الفعلي للأندلس، مصدر الأمر منه، ومنتهاه إليه في كل شؤون البلاد والعباد هناك، فإنه " لم

=

إلى ممالك النصارى (ترصيع الأخبار، ص ٧٤-٧٩).

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٩٠.

(٢) مطمع الأنفس، ص ٣٩٠.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق٤، م١، ص ٦٢.

(٤) البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٦٦.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٦٩.

(٦) الفتح ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص ٣٨٨.

يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفته والاجابة"[١] بل ظل مكتفياً بلقب الحاجب، تاركاً لقب الخلافة واسمها لمحجوبه هشام المؤيد. وظل ابن أبي عامر متصرفاً في أمور الدولة " وأشاع أن السلطان فوّض إليه النظر في أمر الملك، وتخلى بعبادة ربه"[٢] ولا زال على تلك الحال إلى أن وافاه أجله المحتوم أثناء إحدى غزواته إلى الممالك النصرانية في الشمال وذلك في صفر من سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م[٣].

ولى الحجابة بعده ابنه عبدالملك الذي تلقب بالمظفر[٤] " فقام بالدولة مقام أبيه، وأغنى في غزو العدو"[٥] ، وكان عبدالملك المظفر خير وريث لحكم أبيه، فانتهج نفس السياسة تجاه الخليفة هشام المؤيد، من الحجر عليه والاستبداد بالأمر دونه[٦]. ومع ذلك " أحبه الناس، وأنصبَّ التأييد والاقبال عليه انصباباً لم يسمع بمثله، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة"[٧].

وشهدت أيام المظفر هدوءً وسكينة واستقراراً كبيراً في الأندلس

(١) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص ٣٨٩.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ٦٢.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق٤، م١، ص ٧٣.

(٤) المراكشي: المعجب، ص ٦٢-٦٣.

(٥) ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ١٩٠.

(٧) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٢١٢.

عامة حتى كانت " أيامه أعياد في الخصب والأمان" كما قال المراكشي[١]. ومال الناس في أيامه إلى حياة الرغد والرفاه " وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان "[٢]، فكان بذلك " أسعد مولود" على أهل الأندلس كما حكى ذلك ابن حيان[٣]. وبلغت الأندلس في مدته " إلى نهاية الهدوء والرفاهية " [٤].

ظلت الأندلس في سعد واستقرار مع الحاجب عبدالملك المظفر بن المنصور حتى وافاه الأجل في بداية عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م[٥]. فتولى الحجابة بعده أخوه عبدالرحمن[٦] الذي تلقب بلقب " الناصر"[٧] وكان عبدالرحمن كما وصفه ابن سعيد[٨] " نحساً على نفسه وعلى أهل الأندلس، فمنه انفتح باب الفتنة العظمى وفسد الناموس".

وذلك أن عبدالرحمن شنجول لم يكتف بما سار عليه والده ثم أخوه من قبل، حيث اكتفيا بلقب الحجابة ولم يتطلعا إلى الخلافة

(١) المعجب، ص ٩٣.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق٤، م١، ص ٧٨.

(٣) نقلاً عن ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٧٠.

(٤) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٢١٣.

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، م١، ص ٨٦.

(٦) وقد غلب عليه لقب شنجول الذي كانت أمه تدعوه به، وهو نسبة إلى جده لامه ملك بناره الذي تطلق عليه المصادر الاسلامية اسم " شانجه" وشنجول تصغير له. (أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص ٤٨).

(٧) المراكشي: المعجب، ص ٦٣.

(٨) المغرب: جـ١، ص ٢١٣.

والإمامة، بينما تطلع عبدالرحمن إليها، ورغَّب نفسه في التحلي بها، مستغلاً ضعف هشام المؤيد فطالبه بأن يوليه العهد، ويكتب له بذلك، فما كان من هشام المؤيد غير الاستجابة لذلك المطلب[1].

لقد كان لهذا الحدث أثر عظيم في تاريخ الأندلس عامة، وفي تاريخ بني أمية خاصة، حيث كان بداية النهاية لتصرف بني عامر في أمور الأندلس، كما كان بداية النهاية للدولة الأموية برمتها. يقول بان الأبار[2] "هو الذي جرَّ افتراق الجماعة، وجر أعلى خلعان الطاعة، وعلى رجله كان الفساد العام" حيث لم يقبل بنو أمية بذلك التطاول من شنجول إلى الخلافة، وعدوا ذلك اغتصاباً للخلافة منهم، من قبل من ليس من أهلها[3].

بذلك انفتح باب الشر في الأندلس حيث قام من بني أمية محمد بن هشام بن عبدالجبار[4] بقرطبة فاستولى عليها ودخل إلى الزهراء[5] مقر حكم بني عامر، فهدمها ودمرها تدميرا بمن معه من جموع العامة

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٣، ص ٣٨-٤٠. ابن الخطيب: أعمال الاعلام، جـ٢، ص ٩٠.

(٢) الحلة السبراء، جـ١، ص ٢٧٠.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٣، ص ٤٢.

(٤) محمد هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، أعلن في سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م خلعه لهشام المؤيد وعدم اعترافه بولاية عبدالرحمن شيخول. وتسمى بالمهدي وظل حاكماً ستة عشر شهراً فقط. انظر الحميدي: المقتبس، ق١، ص ٤٧-٤٩)

(٥) المراكشي: المعجب، ص ٦٦.

وغيرهم[١]. مستغلاً غياب عبدالرحمن شنجول في مناطق شمالي الأندلس، الذي ما لبث حين بلغه بناء ثورة المهدي أن عاد مسرعاً إلى قرطبة، فأسلمته جيوشه - لسوء سيرته[٢] - فقتل وصلب[٣].

بمقتل عبدالرحمن شيخول في جمادى الآخرة من سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م دخلت الأندلس فيما عرف بعصر الفتنة[٤] الذي سوف يستمر إلى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م والذي تعاقب الحكم فيه عدد من أفراد البيت الأموي[٥]، وشاركهم في ادعاء الخلافة والوثوب إليها ثلاثة من بني حمود الحسنيين[٦]. وكانوا جميعاً خلفاء فتنة لم ينفذ لهم قرار، ولا

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ق١، ص ٤٨.

(٢) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٢١٣.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٦.

(٤) المراكشي: المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٥) وهم محمد بن هشام (المهدي) وسليمان بن الحكم المستعين، وعبدالرحمن بن هشام المستظهر، ومحمد بن عبدالرحمن المستكفى، وهشام بن محمد المعتد الذي كان آخر خلفاء بني أمية. انظر: ابن حزم رسائل ابن حزم، جـ٢، ص ١٩٦-٢٠٤. الحميدي جذوة المقتبس، ق ١ ص ٤٧-٦١. الضبي: بغية الملتمس جـ١، ص ٤٤-٥٨).

(٦) بنسيون إلى ادريس بن ادريس بن عبدالله ثاني حكام دولة الأدارسة بالمغرب الذين يرفعون نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان علي بن حمود وأخوه القاسم ضمن جيش سليمان المستعين الثائر على محمد المهدي، وقد ولاهما حكم الجزيرة الخضراء، بالاندلس وسبتة وطنجة من بلاد المغرب، ثم ثار عليه علي بن حمود وزعم أن هشاماً المؤيد قد ولاه العهد وطلب منه نصره، فانضم إليه كثير من العبيد

استجيب لهم أمر، وافترق الناس إلى أحزاب وشيع، وكثرت الحروب. وبلغ القتلى المئات، ودمرت المنشآت[1]. وعلى أيامهم محيت رسوم الدولة وإن بقيت اسماؤها قائمة، يقول ابن حيان[2] واصفاً حال أولئك الحكام ومن عاضدهم من وزراء وقادة: "وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل فلم يجلو منها بنائل، ولا قبضوا منها مرتزقاً، ولا تألوا بها مرتفعاً، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور، وعمل مغصوب، وخراب مستولٍ مع سلطان فقير، لا يقع بيده درهم، إلا من صبابة مستغل جوف المدينة، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها.. ويتطرق الى ما يقبح من ظلم رعيته".

تلك كانت حال معظم خلفاء عصر الفتنة. أما بالنسبة لحالة البلاد

=

وجموع من البربر فزحف إلى قرطبة، ودخلها في ٤٠٨هـ/١٠١٧م وتولى الحكم بها وأعلن نفسه خليفة للمسلمين، وظل يحكم قرطبة عامين تقريباً حتى قتله بعض عبيده، فتولى الحكم بعد أخوه القاسم بن حمود إلى عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م. حيث ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود فولي قرطبة وتلقب بالخلافة وكل ذلك إلى عام ٤١٧هـ/١٠٢٦م حيث اتفق رأي أهل قرطبة على إعادة الأمر إلى بني أميه فوقع اختيارهم على عبدالرحمن بن هشام. المستظهر (انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم جـ٢، ص ١٩٩-٢٠١. المراكشي: المعجب، ص ٦٧-٨٣).

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص ٢٤٨-٢٤٩.- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٢، ص ١١١-١١٢. المقري: نفح الطيب، جـ٢، ص ٢٨-٣٥.

(٢) نقلاً عن: ابن بسام: الذخيرة، ق١، م١، ص ٥٢.

التي كانت تحت حكم بني أمية فيعبر عنه ابن الخطيب[1] بقوله "وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار". إذ تشعبت الأندلس بعد ذلك إلى طوائف وفرق متعددة.

وظل الحال على ذلك إلى أن اتفق رأي الجماعة بقرطبة على "محو رسم الخلافة الأموية، لعدم الصلوح في أهل بينها، وسوء الجوار وفناء الأموال[2]..". وكان ذلك في عام ٤٢٢هـ/١٠٣٠م " وانقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائق، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض"[3].

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٤٤.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، جـ٢ص١٤٧.

(٣) المقرى: المصدرنفسه، جـ١، ص ٤٢٠. وعن تفصيل هذه الأحداث وأسباب سقوط الدولة الأموية، انظر: يوسف حواله: بنو عباد في أشبيليه ٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م، دراسة سياسية وحضارية، ط١، (جدة، مطابع شركة دار العلم، ١٤١٠هـ/١٩٩٩م، ص ٤٢-٥٩).

((المصادر التاريخية في كتاب المرقبة العليا للنباهي))

" دراســـــة وتوثيق "

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

منذ وقت مبكر اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بالتراجم وسير الرجال وعدَّوا ذلك من أولويات كتاباتهم وتآليفهم، وانتشر ذلك العلم العظيم في شرق العالم الإسلامي وغربه على حد سواء، ولا يكاد يخلو عصر من عصور التاريخ الإسلامي، ولا جزء من بلاد المسلمين من مؤلفين تصدوا لهذا العلم وكتبوا فيه. اذ اتجه عدد كبير من علماء المسلمين على مختلف عصورهم ومذاهبهم إلى تدوين السيرة الذاتية لآلاف العلماء الذين سبقوهم أو عاصروهم وبذلك جمع علماء التراجم والسير سجلا ضخماً جداً لعلماء الأمة وفقهائها وقضاتها ومؤرخيها وأدبائها وشعرائها وأطبائها وغيرهم ممن برز وكان له في ميدان العلم والمعرفة إسهام ودور.

وتُمثل كتب التراجم والسير مرجعاً رئيساً وموثوقاً إلى حد كبير لدراسة التاريخ العلمي والحضاري بصفة عامة لفترة زمنية معينة، أو منطقة محددة من مناطق العالم الإسلامي التي تناولتها هذه المؤلفات، كما تعتبر مرجعاً مهماً للدارسين والباحثين في التاريخ لتصحيح الكثير من المرويات التاريخية التي وردت في كتب التاريخ العام بما تضمنته من معلومات تاريخية موثقة من خلال المعاينة والمشاهدة وأمثالها مما تختص به كتب التراجم والسير.

وتمتاز كتب التراجم والسير بأنها تشتمل - في الأغلب الأعم - على قوائم ليست باليسرة من المصادر التي يعتمد عليها المؤلف في استنباط المادة العلمية لمن يترجم له ممن سبق عصره، وهي بهذا تحتفظ للدارسين والباحثين التالين بالكثير من المصادر المهمة في المجال ذاته التي ربما عدت عليها عوادي الزمن فغيبتها، ولولا ورود أمثال تلك المصادر في كتب التراجم والسير التالية لها لربما ذهبت في طيات المجهول، ولم يعلم بها أحد، فضلا عن كتب التاريخ العام، وكتب الجغرافية والرحلات، وكتب الأدب، وعلوم اللغة وغيرها.

وبما أن مصادر أي كتاب تعد مرآة لثقافة المؤلف، وسعته العلمية، ودليلا على مدى دقته وأمانته، فقد رأيت أن المصادر التاريخية في كتاب النباهي الموسوم" بالمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" والمنشور تحت عنوان " تاريخ قضاة الأندلس" جدير بالدراسة والبحث لما احتواه ذلك المؤلَف من مصادر تاريخية مهمة للغاية تدل على أن المؤلِف قد استقصى جهده في سبيل الوصول إلى المادة العلمية لمن ترجم له من العلماء والقضاة من مضانها الموثوقة لديه، وقد اقتصرت على المصادر التاريخية في الكتاب دون غيرها من المصادر الأخرى وذلك رغبة في تركيز الموضوع، إذ أن تناول كل مصادر الكتاب على كثرتها وتنوعها سوف يكون من السعة بحيث يصعب على الباحث أن يستوفي كل ذلك،في بحث مثل هذا.

- كما أنني ركزت على المصادر التاريخية التي رجع إليها النباهي في ثلاثة مواضع من كتابه فأكثر،ونقل عنها نقلاً مباشراً أو بواسطة، أما ما دون ذلك – مما أكتفى بالإشارة إليه - فقد أشرت إلى أمثلة لها في نهاية البحث، وذلك لكونها وردت – في الأغلب- عرضاً دون أن يعتمد المؤلف عليها بشكل مباشر، كما حرصت على المقارنة بين ما نقله النباهي من المصادر التاريخية التي سبقته والمتوفرة الآن بين أيدي الباحثين ومواطن النقل منها، وذلك لمعرفة مدى دقة المؤلف في النقل من مصادره، والكشف عن أمانته العلمية، فضلا عن بيان تنوع أساليب العزو إلى مصادره التي نقل منها من مصدر إلى مصدر، وألمحت في البحث إلى موفقه من الروايات التي نقلها عن بعض مصادره، وموفقه من تلك المعلومات إما بالتوثيق والتأكيد على صحتها، وإما بالانتقاد لها وتصحيحها من خلال ما توفر لديه من معلومات تحقق منها بطرقه الخاصة من مثل المشاهدة أوالسماع ونحوها.

أولاً: ترجمة النباهي:

لم يحظ أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد النُّبَاهي باهتمام كبير من قبل كتاب التراجم والسير المعاصرين له، أو اللاحقين لعصره في المغرب والأندلس – كما كان حال غيره من القضاة والأعلام- رغم كونه من أعلام عصره في مجال القضاء، ومن وجوه دولته المعدودين وأعيانها المرموقين[1].

(١) التنبكتي،أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج،ج١، ط١(منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ١٣٩٨هـ/١٩٨٩م)، ص ٣٢٩

وقد غلب ما دار من خلاف بينه وبين معاصره ابن الخطيب[1] على معظم ما ورد من ذكر للقاضي ابن الحسن – كما كان يعرف[2]- بل الأغرب من هذا أن أكثر ما ورد في ترجمة القاضي النباهي أورده ابن الخطيب نفسه مادحاً له قبل نشوب الخلاف بينهما، وذاماً له بعد ذلك[3].

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي الشهير بلسان الدين بن الخطيب (٧١٣- ٧٧٦هـ / ١٣١٣-١٣٤٧م) وزير بني الأحمر بغرناطة قبل أن يقع الخلاف بينه وبينهم، ويفر على أثره إلى فاس حيث يلجأ إلى المرينيين ويظل في كنفهم مع السعاية المستمرة من بني الأحمر لاستعادته، والتي انتهت بقتله وصلبه بفاس، وهو أديب وشاعر ومؤرخ كبير، له عدد من المؤلفات والرسائل تزيد على الستين مؤلفاً ورسالة (أنظر: ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ط٢(بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨/) ص ٥-١٢. الاحاطة في أخبار غرناطة،تحقيق: محمد عبد الله عنان، ج١،ط٢، (القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) مقدمة المحقق ص ١٧-٧١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون، ج٧، ط١(بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ /١٩٨١م) ص٤٤٠-٤٤١.

(٢) المقري، أحمد بن محمد التلمساني:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد البقاعي، ط١(بيروت، دار الفكر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج ٧ ، ص ١١٩. التنبكتي، نيل الابتهاج، ج١، ص ٣٢٩.

(٣) انظر ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص ٨٨-٨٩. ولن نتوقف عند الخلاف الذي دار بين العلمين ولا أسبابه ومظاهره غير أن القراءة المتأنية لما دار بينهما من خلال ما كتبه ابن الخطيب توضح بجلاء تذبذب الأخير في الحكم على ابن الحسن النباهي، حيث مدحه مدحاً عظيماً، حين كان الود بينهما سائداً، وذكر من صفاته وقدراته ما جعله في مصاف العظماء في مجاله، وحين انقلب الأمر بينهما ونفي ابن الخطيب إلى المغرب قلب ظهر المجن للنباهي وأقذع في شتم ممدوحه السابق، وقد لا يكون النباهي خلياً مما لحق بابن الخطيب من اتهامات ومطالبة أودت بحياته في نهاية المطاف.(أنظر ابن الخطيب:

في سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م. ولد أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي المعروف بالنباهي[١] في مالقة(Malaga)[٢] التي نسب إليها، وبها نشأ وترعرع وفي حلقات مشائخها وعلمائها درس وتعلم. وبيته في مالقة معروف باسم بيت بني الحسن المالقيين[٣] حيث تولى جدهم الأعلى القضاء في مالقة زمن المنصور بن أبي عامر[٤].

أما الحسن بن محمد بن الحسن النباهي فقد كان قاضياً بغرناطة في عصر الطوائف[٥]، وفي المحصلة فبيته بيت قضاء وعلم وجلالة، لم

=

"الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة " تحقيق: إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م) ص ١٤٦-١٥٢.

(١) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص٨٨.

(٢) مالقة: ميناء مشهور في القديم والحديث، تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لاسبانيا، وتعرف اليوم باسم (مالجا malaga)، وكانت تعتبر من موانئ الأندلس الرئيسة، وحواضرها الكبرى (أنظر: الحميري،محمد بن عبد الله: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢ (بيروت١٩٨٤م) ص ٥١٧-٥١٨.

• بالباس، ليوبولو تورس: المدن الاسبانية الإسلامية، ط١(الرياض: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م) ص١٣٦-١٣٨

(٣) ابن الخطيب، الاحاطة، جـ١، ص ٤٦٦.

(٤) ابن الخطيب. الاحاطة، جـ١، ص ٤٦٦.

(٥) ابن بشكوال،خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها....،نشر وتصحيح: عزت العطار، جـ١،ط٢(القاهرة: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص١٣٦-١٣٧و لم يحدد ابن بشكوال سنة توليه القضاء مباشرة ولكن يذكر أن وفاته كانت في سنة ٤٧٢هـ، وهو ما يقابل أواخر عصر الطوائف.

يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر، كما قال عنه معاصره ابن الخطيب[١].

وقد تتلمذ أبو الحسن النباهي على يدي عدد كبير من العلماء والمشائخ في بلده الأصلي مالقة، وفي رندة (Ronda)[٢] وغرناطة (Granada)[٣]، وغيرها من بلدان الأندلس[٤]. ولم يكتف بذلك بل رحل إلى بلاد المغرب، فدرس على مشائخ تلمسان وباجة وغيرها من بلدان المغرب، ثم ارتحل إلى المشرق ودرس على علمائها "وأجازه من أهل المشرق والمغرب عالم كثير"[٥].

وكان لهذه الرحلات العلمية، ومجالسة العلماء، والتلقي المباشر عن البارزين منهم، أثر كبير في تكوين شخصيته العلمية، وبروز نجمه في مجال العلوم الشرعية، وخاصة في مجال القضاء، مما جعله يلي القضاء في عدة مدن أندلسية[٦]، وأخيراً يعين قاضياً للجماعة في حاضرة الدولة النصرية غرناطة للسلطان الغني بالله (٧٥٥-٧٦٠هـ) إلى جانب

(١) الاحاطة، جـ١، ص ٤٦٦.

(٢) المقري، أحمد بن محمد التلمساني:أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (المعهد الخليفي للأبحاث المغربية – بيت المغرب – د.ت)، ج٢، ص ٧.

(٣) ابن الخطيب،الاحاطة، جـ٤، ص ٩٠.

(٤) ابن الخطيب،الاحاطة، جـ٤، ص ٩٠.

(٥) ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية،ص ١١٣- ١٢٦.

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤،ص ٨٩.

الخطابة في جامع السلطان بغرناطة.

وتعد الوظيفتان (قاضي الجماعة، وخطابة جامع السلطان) من أهم الخطط والمهام التي يمكن أن يتولاهما شخص في الدولة، مما يؤكد المكانة الرفيعة التي حظي بها أبو الحسن النباهي لدى الحاكم النصري.

ولم يقف دور النباهي عند هاتين الخطتين المهمتين بل تجاوزهما إلى جانب آخر ذي بعد سياسي مهم ألا وهو تولي أمر السفارات بين الحاكم النصري وبين حكام المغرب المعاصرين له، حيث ذكر أنه قام بسفارتين في سنتي ٧٦٧هـ/١٣٦٥م و ٧٨٨هـ/١٣٨٦م. إلى فاس في مهام سياسية بين الدولتين[١]. وقد ذكرت بعض المصادر أنه قدم فيما بين سنتي ٧٧٣هـ/١٣٧١م، و ٧٧٤هـ/١٣٧٢م إلى السلطان عبدالعزيز في فاس بشأن ابن الخطيب[٢].

وكان إلى جانب ذلك أديباً وشاعراً وناثراً له مكانته، وقد أورد ابن الخطيب[٣] له بعض المقطوعات الشعرية والنثرية الجيدة.

وبالرغم من المهام الكبيرة التي اضطلع بها النباهي في قضاء الجماعة والسفارات وغيرها، فإنه أسهم بدور محمود في التأليف والكتابة، حيث أشارت المصادر إلى أن النباهي ألف عدداً من الكتب ومنها: رسالة في

(١) المقري: أزهار الرياض، جـ٢، ص ٦.

(٢) انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ٤، ص٤٤٥ ، المقري: أزهار الرياض، جـ٢،ص ٧.

(٣) الاحاطة، ج٤،ص٩٠-٩١. الكتيبة الكامنة، ص ١٥٠- ١٥٢.

مسألة الدعاء بعد الصلاة[1]. و رسالة في "شرح المقامة النخلية" وضعها بأسلوب حواري شيق يجريه المؤلف بين نخلة وشجرة تين، وفيه تعرض لبعض حوادث الدولة النصرية في غرناطة من خلال استطرادات الحوار[2]. وله أيضاً مؤلف بعنوان"ذيل أو تذييل تاريخ مالقة"[3]. ويبدو أنه وصل به كتابي كل من ابن عسكر وابن خميس[4] عن مدينة مالقة وأعلامها.

ورغم بروز القاضي ابن الحسن النباهي، وكونه من أركان دولته، إلا أن المصادر التي ترجمت له لم تورد تاريخاً محدداً لوفاة لهذا العلم، وإنما اكتفى البعض منها بالقول أنه " ما زال بقيد الحياة في سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م)[5].

ثانياً: كتاب "المرقبة العليا":

أما أشهر مؤلف عُرف لابي الحسن النباهي فهو كتاب " المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا " والذي نشر باسم " تاريخ قضاة

(١) المقري: أزهار الرياض، ص ٧.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (مقدمة الكتاب، ص: ط).

(٣) تاريخ قضاة الأندلس.مقدمة الكتاب (ص ط).

وقد أورد ابن الخطيب نصاً في التمثيل على نثره قال أنه وصف نخلة بإزاء باب الحمراء في غرناطة، فهل هو جزء من هذا التأليف الذي أوردته لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة التي نشرت كتاب "المرقبة العليا" مما جعل الأمر يختلط عليهم بين هذه القطعة النثرية الجميلة للمؤلف فعدوه مؤلفاً مختلفاً (انظر:الاحاطة، جـ٤، ص ٩٥-١٠٠).

(٤) سوف يرد الحديث عن المؤلفين والكتابين ضمن مصادر النباهي أدناه.

(٥) التنبكتي: نيل الابتهاج، ج١، ص٣٣٠.

الأندلس" [1] كما ورد لدى التنبكتي[2] باسم "المرقاة العليا في مسائل القضاء".

وقد بين المؤلف في مقدمة كتابه مضمون ومادة هذا الكتاب حيث قال: "فهذا كتاب أرسم فيه بحول الله نبذاً من الكلام في خطة القضاء، وسير بعض من سلف من القضاة، أو بلغ رتبة الاجتهاد، وفيمن يجوز له التقليد ومن لا يجوز له، وصفات المفتي الذي ينبغي قبول قوله والاقتداء به لمن ذهب إلى مقلده، وبالجاري من الفتاوى على منهاج السداد، وهل يجوز للمفتي قبول الهدية من المستفتى، أم هي في حقه من ضروب الرشاء المحرمة على الجميع"[3].

وقد قسم النباهي مؤلفه هذا إلى أربعة أبواب، خصص كل باب منها لموضوع محدد على النحو الآتي:

الباب الأول: في القضاء وما ضارعه[4]: ويبحث هذا الباب في خطة القضاء ومكانتها بين خطط الدولة الإسلامية. وشروط وصفات من يمكن أن يتولى هذه الخطة ويقوم بأعمالها بدءاً من القاضي ووصولاً إلى قاضي القضاة وقاضي الجماعة. كما تحدث فيه عن مهام

(١) نشر: دار الآفاق الجديدة في بيروت، بتحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق وكان ذلك في سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٢) نيل الابتهاج، ج١،ص٣٣٠ ولعل ذلك وهم وخطأ من النساخ.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١.

(٤) النباهي. تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢.

وصلاحيات القضاة وهو ما سماه بـ "حدود القضاة"[١]. ثم ختم هذا الباب بإيراد أسماء وسير مجموعة من العلماء الذين عُرض عليهم القضاء فأبوا من قبوله، أو اعتذروا عنه، وأدى ذلك بالبعض منهم إلى السجن[٢].

أما الباب الثاني من الكتاب فقد خصصه للحديث عن "سير بعض القضاة الماضين وفقر من أبناء الأئمة المتقدمين"[٣]. وقد ترجم فيه لعدد كبير من الذين تولوا القضاء في المشرق والمغرب، مركزاً على الأعلام منهم، وسارداً للعديد من قصصهم ومواقفهم في القضاء[٤]. وقد ابتدأ هذا الباب بالحديث عن تولي عمر بن الخطاب ﷺ القضاء في عهد أبي بكر الصديق ﷺ ثم أتبعه بسرد عدد كبير من تراجم القضاة في الشرق والغرب، وإن كان القضاة في المغرب والأندلس قد استأثروا بالنصيب الأغلب في التراجم.

ويُمثل هذا الباب ما يقرب من ثلاثة أرباع الكتاب المنشور[٥]. وقد علل النباهي الاسهاب في هذا الباب بقوله:"ولما رجوناه من الانتفاع

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٥.

(٢) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١-٢١.

(٣) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٢.

(٤) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٨.

(٥) حيث امتد هذا الباب على مدى ١٥٦ صفحة من إجمالي صفحات الكتاب المنشور التي بلغت ٢٠٨ صفحات غير الفهارس.

بذلك كله[١] أشفعنا القول في هذا الباب، وجلبنا من الأنباء ما فيه عبرة لأولي الألباب".[٢] والحقيقة أن هذا الباب يمثل لب الكتاب وجوهره، وهو الذي استند فيه على قائمة طويلة من المصادر التاريخية المهمة، منها ما اطلع عليه مباشرة، ومنها ما نقل ممن نقل عنها، وخاصة بعض المصادر التاريخية المفقودة.

أما الباب الثالث من أبواب الكتاب فقد عنونه بـ "باب في كتب القضاة إلى القضاة"[٣] وقد تحدث فيه عن بعض الأمور الإجرائية في عمل القضاة، مثل أن يكتب قاضي إلى آخر يطلب منه إحضار شخص مطلوب للقضاء وهو في عمالته. ومثل أن يكتب قاض في مدينة ما إلى قاض آخر يستشيره في مسألة قضائية عرضت عليه ويكون فيها اختلاف بين الفقهاء[٤]. وفصَّل فيه في موضوع الشهادة والإشهاد على القضايا ووجودها وأسلوب القضاة فيها [٥].

ثم عقب بالحديث عن طريقة كتابة نصوص المرافعات التي تقع بين يدي القاضي وهي التي سماها "محاضر"[٦]. حيث أورد عدة

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٨.

(٢) يقصد الانتفاع بما ورد من سير وتراجم، وما تضمنه من حوادث وقصص ينتفع بها.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٩.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٨٥-١٩٠.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٨.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأنلدس، ص ١٩٤.

نصوص لكيفية كتابة تلك المرافعات (المحاضر)، وبما تستفتح من عبارات مثل قوله "حضرني فلان"[١]أوقوله: "قال القاضي فلان بن فلان، ببلد كذا، حضرني فلان...."[٢]. وختم الباب بالحديث عن "الشهادة على الخطوط وبعض ما يرجع إليها، ويتعلق بها من المسائل"[٣].

وهذا الباب على قصره فيه فوائد كبيرة جداً في آليات القضاء وطرائقه ومناهج القضاة في التعامل مع القضايا التي تردهم، وعلاقتهم بالحاكم أو الوالي، وموقفه من الأحكام الصادرة عنهم.

وبعد فراغه من متعلقات الباب الثالث عقب بما سماه "الفصل الثاني"[٤] ويظهر أن المقصود هو "الباب الرابع" من أبواب الكتاب حيث أشار في المقدمة إلى أنه قسم كتابه إلى أربعة أبواب. وموضوع هذا الفصل – كما سماه – الحديث "في صفات من بلغ من القضاة رتبة الاجتهاد وحكم " القاهر" [٥] عن تلك المنزلة في استنباط الأحكام"[٦]. وقد أوجز الكلام في هذه الفقرة فيما لا يتجاوز ثلاث صفحات. حدد فيها الصفات التي ينبغي أن

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٩٤.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٩٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٢٠٦.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٢٠٦.

(٥) ويظهر أنه خطأ مطبعي، أو خطأ من النساخ إذ سياق الكلام يقتضي أن تكون الكلمة هي"القاصر" عن بلوغ مرتبة الاجتهاد.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٠٦.

تتوفر في"كملاء القضاة"[1]كما سماهم. ولم يتحدث إلا عن شرط واحد فقط وهو:"العلم بالكتاب والسنة وماوقع عليه إجماع الأمة"[2].

لينتقل الحديث في هذا الفصل إلى مسألة "السجن" وهل يكون للقاضي سجن خاص به؟ وهل يجوز له سجن الخصوم؟ ومتى يكون له ذلك؟ وغيرها مما يتعلق بهذه المسألة[3].

وقد لا يسوغ إنهاء الحديث عن هذا الكتاب إلا بعد ذكر سبب التأليف والهدف منه وإن كان تخصص المؤلف في القضاء وعمله فيه حتى بلغ منصب قاضي الجماعة في عاصمة الدولة غرناطة، إلى جانب ما حازهالنباهي من علم غزير، ومعرفة واسعة جعلته في مصاف كبار علماء عصره في بلده بل وفي بلاد المغرب عامة. يجعل المنتظر من مثله إمداد المكتبة الإسلامية بمثل هذا الكتاب المهم وغيره.

حيث المؤلف يفصح عن هدفه من تأليف هذا الكتاب وذلك بقول:"وقد ذكرت فيه من أعلام الرجال ما عولت عليه، وأدتني المذاكرة إليه.. وفيما جلبته من الأنباء، وأدرجته من الأخبار طيَّ الأسماء، ما يحمل الناظر فيه على الاعتبار، وإيثار سير الفضلاء والأخيار... إذ حاصل مجموعها مناقب ومواعظ... سئل الجنيد"ما للمريدين في

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٠٦.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٠٦.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٠٦-٢٠٨.

مجازات الحكايات؟ فقال: الحكايات جند من جنود الله، يقوى بها قلوب المريدين، قيل له فهل في ذلك شاهد، فقال: نعم. قوله عز وجل « وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك»[1].

ثم أورد بعد ذلك عدداً من الروايات والمقولات التي تدعم هدفه في التأليف وهو الاتعاظ والاعتبار من سير الماضيين وجهودهم[2]. وهو هدف نبيل، وغاية شريفة، وأُسّ من أسس التاريخ.

ويعد هذا الكتاب من المصادر الرئيسة والمهمة جداً لأي باحث في التاريخ الإسلامي عامة والأندلسي على وجه الخصوص. وذلك لما تضمنه الكتاب من مادة تاريخية موثوقة عن جوانب متعددة لأوجه الحياة في الأندلس على فترة زمنية طويلة سواءً كان ذلك في الجوانب الإدارية والتنظيمية والرسوم السلطانية، أم كانت في الجوانب الاجتماعية، أم العلاقات الخارجية، أم كانت في جانب الحياة العلمية ومسيرتها وأبرز أعلامها في الأندلس والمغرب، بل حتى في بعض مناطق المشرق الإسلامي. ويعزز قوة هذا الكتاب أنه اعتمد على قائمة طويلة من المصادر المهمة جداً في فنون مختلفة. حيث حظيت قائمة موارد النباهي في هذا الكتاب بتنوع كبير في الموارد التي استخرج منها مادته العلمية، ليصوغها بعد ذلك بأسلوب شيق وجميل.

(١) سورة هود، من الآية (١٢٠).

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٧، ١٧٨.

مصادر الكتاب:

لقد حرص كثير من المؤلفين القدماء على تنويع مصادر مادتهم العلمية فيما يؤلفونه من كتب، كما حرصوا على اختيار الأجود مما سبقهم من المؤلفات، وعمد الغالبية منهم إلى ذكر تلك الموارد التي استقوا منها مادة مؤلفاتهم، إذ عدَّوا تلك المصادر مرآة لثقافة المؤلف، ودليلاً على سعة علمه، وعلو كعبه، ورسوخ قدمه في الفن الذي يكتب فيه. وانطلاقاً من هذه النظرة فقد تنوعت مصادر النباهي في كتابه "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" وزخر الكتاب بعدد كبير من المصادر المتنوعة حسب تنوع مادة الكتاب إذ نجده في الباب الأول يركز على الكتب الشرعية واللغوية أكثر من غيرها، حسب ما اقتضته طبيعة الحديث في الباب، ففي مجال المصادر الشرعية نجد قائمة طويلة من كتب الفقه المتنوعة – وإن كان أغلبها مالكية المذهب – إلى جانب كتب القضاء، وكتب الحديث النبوي الشريف، وكتب الحسبة والنوازل وغيرها، وحرص كل الحرص على أن ينتقي من تلك المصادر ما يختص بالقضية التي يتحدث عنها مباشرة، دون إسهاب أو تطويل مع حرصه الشديد –في الأغلب الأعم – على الإشارة إلى مصدر المعلومة سواءً بذكر اسم المؤلف(١)، أو بذكر اسم الكتاب(٢)، أو بذكرهما معاً(٣).

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأنلس، ص ٢، ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٢، ١٣ وغيرها.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦، ٨، ٩، ١٠، ١٤، ١٧ وغيرها.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٤، ٦، ٨،٩، ١٥، ٢٠، ٢٣، ٢٦ وغيرها.

وفي مجال كتب اللغة والأدب نجد قائمة طويلة بالمؤلفات التي استخدمها النباهي في هذا لمجال، إذ حرص على أن يوثق المعنى اللغوي للكثير من المصطلحات والألفاظ التي وردت لديه، وأن يعيدها إلى أصولها ومعانيها في معاجم اللغة، وأن يستشهد على ما ذهب إليه من أقوال العرب وأشعارهم[1].

ورغم الأهمية الكبيرة لتلك المصادر ودورها الرئيس في إمداد المؤلف بمادة علمية أصيلة في كتابه – وخاصة في الباب الأول من الكتاب – فإننا سنتجاوزها في الحديث وذلك للوصول إلى صلب موضوع هذا البحث وهو عن المصادر التاريخية التي اعتمد عليها المؤلف.

أ) المصادر التاريخية المكتوبة:

اعتمد القاضي أبو الحسن النباهي على المصادر التاريخية المدونة بشكل كبير- وخاصة كتب التراجم والسير - ولا عجب في ذلك فمادة كتابه وهدفه التراجم بالدرجة الأولى، وكان من أهم كتب التراجم التي اعتمد عليها في هذا المجال ما يلي:

* الخشنى: أبو عبدالله محمد بن حارث الخشني (ت: ٣٦١هـ١٩٧١م)، وهو قيرواني المولد، رحل عنها إلى الأندلس، حيث درس، وبرز بها حتى وصفه ابن الفرضي[2]بأنه "حافظاً للفقه، عالماً بالفتيا حسن

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٩، ٤٧.

(٢) أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بان الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم في

القياس.. شاعراً، بليغاً..." ووصفه الحميدي [1]بأنه "من أهل العلم والفضل". وبرز الخشنى في مجالات علمية متنوعة ففي مجال الفقه أصبح من المفتين، وفي مجال القضاء أصبح من المشاورين[2]، وفي مجال الأدب والشعر تسنم الذروة في عصره حتى قيل أنه "ألف مائة ديوان"[3] للخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ٩٦١- ٩٧٦م)، وفي مجال التاريخ "جُمع له في رجال الأندلس كتاباً.."[4] وقد أفاد من مؤلفاته عدد كبير ممن جاء بعده ممن الف في تاريخ الأندلس ورجالها.

أما كتاب الخشني الذي اعتمد عليه النباهي في تاريخه فهو كتاب "قضاة قرطبة"[5] والذي نشر أول مرة في مدريد (Madrid) عام ١٩١٤م على يد المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا.

وقد ألف الخشني هذا الكتاب للخليفة الحكم المستنصر حينما كان

=

الأندلس،نشر وتصحيح: السيد عزت العطار،ج٢، ط٢(القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ١١٥.

(١) ابو عبد الله محمد بن أبي نصر المعروف بالحميدي: جذوة المقتبس،تحقيق: إبراهيم الأبياري، ق١،ط٢ (القاهرة ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م) ص٩٤.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ العلماء، جـ١، ص ١١٥.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ العلماء، جـ١، ص ١١٥.

(٤) ابن الفرضي: تاريخ العلماء، جـ٢، ص ١١٥.

(٥) ورد لهذا الكتاب عدد من المسميات ومنها " أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس "و" تاريخ قضاة الأندلس " و " أخبار القضاة بالأندلس " و " أخبار القضاة " إلى غيرها من المسميات التي استعرضها وناقشها بالتفصيل إبراهيم الأبياري في تحقيقه للكتاب.أنظر: قضاة قرطبة: تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢ (القاهرة ١٤١٠هـ /١٩٨٩)، مقدمة المحقق، ص١٧-٢٢.

ولياً للعهد وخصصه لترجمة من تولى القضاء في قرطبة، وأفصح عن ذلك بقوله في مقدمة كتابه " فإنه لما أمر الأمير – أبقاه الله – بتأليف كتاب القضاة مقصوراً على من قضى للخلفاء – رضي الله عنهم- بأرض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة"[١].

وقد تضمن هذا المؤلف ترجمة عدد كبير ممن تولى قضاء الجماعة في قرطبة إلى عهد الحكم المستنصر.

ومثَّل كتاب الخشني مصدرا رئيساً للنباهي في " المرقبة العليا " حيث نقل عنه في أكثر من اثني عشر موضعاً من كتابه، بعضها نقول مطولة تصل في بعض الأحيان إلى صفحات كاملة أو شبه كاملة[٢]، وبعضها نقولات قصيرة[٣].

وقد صرح في أغلب المواقع بالنقل من محمد بن حارث الخشني، وتعددت عنده صيغة العزو إليه فأحياناً يورد اسمه "محمد بن حارث"[٤]. وأحياناً باسم "ابن حارث"[٥]. وتارة "بابن الحارث"[٦]. وتارة ينقل من كتاب الخشني عن رواة الخشني الذين أوردهم في كتابه دون

(١) قضاة قرطبة ص ٢٤.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٤،١٥، ٤٨....

(٣) النباهي: قضاة الأندلس، ص ١٢،٢١،٤٢....

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٢١، ٤٨، ١٩٤.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٢، ١٤، ٥٥، ٦٤، ٧٨.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٤٢.

أن يشير إلى محمد بن حارث مباشرة[1].

وقد نقل النباهي عن الخشني تراجم عدد ممن أبى القضاء، وتمنع من أن يليه من الأندلسيين والمغاربة، دون أن يشير إلى الخشني مباشرة[2]. كذلك أفاد منه كثيراً في تراجم عدد من القضاة المتقدمين في الأندلس خلال العصر الأموي وما سبقه[3].

وبالرغم من الإفادة الكبيرة من الخشني فإن النباهي لم يشر في جميع نقولاته إلى اسم كتاب الخشني مطلقاً، واكتفى بإيراد اسم المؤلف بألفاظ متنوعة كما سبق القول ويتضح من خلال مراجعة النصوص المنقولة عن الخشني أنها من كتاب " قضاة قرطبة".

ويمكن القول أن النباهي قد اعتمد بشكل مباشر في تراجم القضاة الأوائل في الأندلس- خاصة خلال عصر بني أمية - على ما أورده ابن حارث الخشني ونقل عنه أغلب تلك التراجم بشكل شبه حرفي، وكان اميناً إلى درجة كبيرة في العزو إلى مصدره.

ولم يقتصر النباهي في نقله واعتماده على الخشني في سياق التراجم للقضاة الأندلسيين الذين ترجم لهم، بل نقل عنه معلومات

(١) مثل قوله: " قال أحمد بن خالد " وأحمد بن خالد هذا من الرواة الذين نقل عنهم الخشني. انظر: النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٤٨.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٢، ١٣، ١٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٤٢-٤٥.

مهمة جداً في جانب تراتيب القضاء عند بني أمية، وطريقة تسجيل القضايا وتوثيقها في ذلك العصر، وهي تكشف عن جانب مهم من جوانب التنظيم الإداري لدى بني أمية[١] .

* ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي(ت ٤٠٣هـ١٠١٢م) كان "حافظاً متقناً عالماً، ذا حظ من الأدب وافر"[٢] طلب العلم في الأندلس، ثم رحل في طلبه إلى أفريقية ومصر ومكة المكرمة، وتلقى على يدي عدد كبير من العلماء والمشائخ في تلك البلدان[٣]. وعاد إلى الأندلس وقد جمع علماً كثيراً في فنون العلم المختلفة[٤].وعُدَّ ابن الفرضي شيخ أصحاب المعاجم والتراجم الأندلسية.[٥]

وقد ألف ابن الفرضي في التاريخ وفي أخبار الشعراء وأدبهم، وفي المؤتلف والمختلف وفي مشتبه النسبة، فضلا عما أحرزه من تقدم في علمي الحديث والرجال إلى غير ذلك من جمعه وتصنيفه[٦].

ولعل أشهر كتبه هو كتاب " تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس " الذي عني بتراجم نخبة من علماء المجتمع الأندلسي منذ فجر

(١) النباهي: قضاة قرطبة، ص١٩٥،١٩٤

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، جـ١، ص ٣٩٦.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ٢٤٦.

(٤) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ٢٤٦.

(٥) مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (ط٢،القاهرة،١٣٨٦م).ص٩٩.

(٦) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ٢٤٦.

الإسلام بها إلى نهاية القرن الرابع الهجري[1]، ويُعد كتابه هذا من أقدم كتب السير والتراجم في الأندلس والمغرب، وقد عول عليه معظم إن لم يكن كل من جاء بعده وطرق هذا الفن من الأندلسيين[2].

ورغم الأهمية الكبرى لهذا المؤلف، ورغم اشتماله على تراجم عدد ممن أورد النباهي تراجمهم في كتابه موضع الدراسة فإنه لم يعتمد عليه بالإشارة الصريحة إلا في موضع واحد فقط وذلك في ترجمة القاضي محمد بن عبدالله بن أبي عيسى (ت ٣٣٩هـ) حيث قال:"قال ابن الفرضي: وكان حافظاً للرأي، معتنياً بالآثار..." [3]. وهذا ربما دعا إلى القول أن ابا الحسن لم يطلع على كتاب ابن الفرضي مباشرة، وإنما نقل عمن نقل عنه، ومع هذا فإنه يتضح من بعض التراجم الواردة في " المرقبة العليا " أنها مأخوذة في الأصل من ابن الفرضي[4] وإن لم يشر إليه مباشرة.

* ابن عفيف: أحمد بن محمد بن عفيف بن عبد الله الأموي يكنى

(١) السحيباني: مصادر الحافظ ابن الفرضي في كتابه تاريخ العلماء والرواة للعلم " (مجلة جامعة أم القرى للعلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٢، العدد١٩، شعبان ١٤٢٠هـ) ص ٩-١٠.

(٢) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص٩٩.

- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس(القاهرة ١٩٥٥م) ص٢٧١-٢٧٢.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٥٩.

(٤) مثل ترجمة القاضي: سعيد بن سليمان الغافقي(انظر: ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة، جـ١، ص ١٩٣)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٥٤.

أبا عمر، ولد بقرطبة وبها توفي عام(٤٢٠هـ١٠٢٩م) [١]، وطلب العلم بها، وتوسع في الرواية والإكثار من العلم، وعني بالفقه وعقد الوثائق والشروط حتى برز واشتهر فيها[٢]، ومال إلى الزهد والوعظ، واعتزل السياسة وأعمالها، حتى إذا استعرت نار الفتنة في قرطبة(Cordoba) بعد سقوط بني عامر سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م. خرج من قرطبة وقصد المرية(Almeria) حيث نزل في كنف حاكمها[٣] الذي أكرم وفادته، وعينه قاضياً لمدينة لورقة(Lorica)[٤]، وإماما وخطيباً لجامعها[٥].

وقد ألف ابن عفيف في مجالات متنوعة مثل الفقه، والآداب، وغيرها[٦].

---

(١) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص ٤٢-٤٣.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص ٤٣.

(٣) وهو خيران العامري أحد الموالي العامريين، كان محباً للعلم، مكرماً لأهله، حكم المرية من عام ٤٠٥هـ إلى عام ٤١٩هـ ٠ أنظر: ابن سعيد،علي بن موسى: المغرب في حُلي المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، " ج ٢، ط٣ (القاهرة ١٩٥٥م) ص ١٩٤. ابن عذاري، أوب العباس أحمد بن محمد: البيان المغرب، تحقيق: ج.س.كولان و ليفي بروفنسال، ط٣(بيروت،دار الثقافة ١٩٨٣م) ج٣،ص١٦٦-١٧٦.الطويل، مريم الطويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح،ط١ (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص٢٩-٣٠.

(٤) لورقة: مدينة حصينة على ظهر جبل مرتفع بين مدينتين مشهورتين هما المرية ومرسية، وبها أسواق وتجارات كبيرة، ومعادن شهيرة.(أنظر: الأدريسي: نزهة المشتاق، م٢ص٥٦١-٥٦٢.بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية،ص٤٤٠-٤٤٦.

(٥) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٤٣.

(٦) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٤٣.

أما كتاب ابن عفيف الذي اعتمد عليه النباهي في " المرقبة العليا" فقد أورده ابن بشكوال[١] أثناء ترجمته لابن عفيف باسم " أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة" بينما سماه عياض[٢] باسم " الاحتفال في علماء الأندلس "[٣]وقد وضع ابن عفيف كتابه هذا تكملة لكتاب ابن عبد البر - الذي سوف يأتي الحديث عنه لاحقاً – ولذلك جاء كتاب ابن عفيف مختصراً، حيث شمل الحديث عن ست وسبعين سنة فقط من سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م، إلى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م[٤].

وقد صرح النباهي بالنقل عن ابن عفيف هذا في ثلاثة مواضع فقط، الا أنه نقل عنه في البعض منها صفحات مطولة، وخاصة في ترجمته للقاضي المنذر بن سعيد[٥]حيث تجاوز عدد الصفحات المنقولة عن ابن عفيف في هذه الترجمة ثلاث صفحات متتالية بدأها النباهي بقوله:

(١) الصلة، ج١، ص٤٣.

(٢) عياض بن موسى اليحصبي:ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، ج٢ (بيروت، دار مكتبة الحياة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) ص ٧٣٥.

(٣) وقد وهم القاضي عياض في مسمى الكتاب وخلط بينه وبين كتاب معاصره الحسن القبشي وهو المسمى " الاحتفال " كما سيأتي الحديث عنه أدناه.انظر: عياض، ترتيب المدارك، ج٢، ص٧٣٥.

(٧) بني ياسين: الحسن بن محمد القبشي وكتابه الاحتفال، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الإردنية، م٣٦، ع٢٠٠٩،٣م، ص٥٥٧.

(٥) انظر عنه: الخشني: قضاة قرطبة، ص٢٣٧. ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم،ج٢،ص١٤٢-١٤٣.

قال ابن عفيف"[1]. وفيما اقتصر نقل النباهي عن ابن عفيف في الموضع الثاني على سطرين فقط[2]. فقد بلغ النقل عنه في الموضع الثالث ما يقارب الصفحتين، وذلك في ترجمته للقاضي أبي العباس بن ذكوان[3].

وفي كل مرة نقل النباهي عن ابن عفيف يعزو إليه بقوله " قال ابن عفيف" دون أن يذكر اسم الكتاب الذي نقل عنه مباشرة – كعادته مع الكثير من مصادره-.

* القُبَّشي الحسن بن محمد بن مفرج بن حماد المعافري (ت بعد٤٣٠هـ/١٠٣٨م)[4] ويعرف بالقبشي نسبة إلى " عين قُبَّش"[5] ويّعدُّ القُبَّشي من مؤرخي الأندلس الأوائل ومن " أعلام علماء الأندلس، وممن يعول على قوله، ويستحسن كلامه لبلاغته وبراعته."[6] أما كتاب القبشي الذي اعتمد عليه النباهي في "المرقبة العليا" فهو الموسوم " الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء"

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٦٦-٦٩.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٧.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٨٤.

(٤) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ١٣٥-١٣٦.

(٥) وهي عين تقع في غربي قرطبة، وكان سكنه بالقرب منها، ولذا نسب إليها (الحموي،ياقوت: معجم البلدان،ج٤، (بيروت، دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص٣٠٦.

(٦) الحموي: معجم البلدان، ج٤،ص ٣٠٦.

كما أورده ابن بشكوال[١]، بينما اكتفي كل من ابن دحية[٢]، وابن سعيد[٣] والنباهي[٤]،بإيراده باسم" الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال"

ويمثل كتاب " الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال" مصدرا مهماً للغاية من مصادر التراجم الأندلسية، وتعود أهميته لقدمه، فهو يعود إلى القرن الخامس الهجري حيث يقول مؤلفه" ابتدأت الاحتفال في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء – رحمنا الله وإياهم –في المحرم من سنة سبع عشرة وأربع مائة بمرسية، في دار بني صفوان بربض بني خطاب قرب المسجد الجامع، تَّم بحمد الله وعونه للنصف من المحرم من سنة عشرين وأربع مئة" كما نقل ذلك عنه ابن بشكوال[٥].

كما تعود أهمية هذا المصدر لما تضمنه من تراجم لعدد كبير من الخلفاء والوزراء والحجاب والعلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والزهاد والشعراء وغيرهم ممن برع في الأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى عصر المؤلف، وهو جهد كبير يحمد له[٦].وقد اعتمد على كتاب القبشي هذا عدد

(١) الصلة، ج١، ص ١٣٦.

(٢) أبو الخطاب عمر بن حسن: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق:إبراهيم الأبياري وآخرون، ط١(القاهرة ١٩٥٤م) ص١٥١.

(٣) المغرب في حلي المغرب،ج١، ص ١٥٧.

(٤) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٨.

(٥) الصلة، ج١، ص١٣٦.

(٦) بني ياسين: الحسن بن محمد القبشي وكتابه الاحتفال، ص٥٥٤-٥٥٥.

كبير ممن جاء بعده من المؤرخين الذين كتبوا في التراجم الأندلسية[١].

وقد اعتمد النباهي على كتاب القبشي " الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال..."في عدة مواضع صرح في البعض منها باسمه مباشرة بصيغ مختلفة من مثل قوله:"وفي كتاب الحسن بن محمد "[٢]،وقوله " قال الحسن بن محمد في كتابه"[٣]،فيما كناه مرة واحدة بقوله: " وذكر ابن مفرج"[٤].وافصح مرة واحدة باسم الكتاب مباشرة حيث قال: " قال الحسن بن محمد في كتابه المسمى ب((الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال))[٥].

وبالرغم من أن النباهي لم يشر إلى القبشي مباشرة إلا في ستة مواضع من كتابه - كما سبق بيانها- الا أنه نقل عنه في أغلب تلك المواضع نصوصاً مطولة يكاد البعض منها يتجاوز الصفحتين[٦].وقد استفاد النباهي من كتاب القبشي هذا في تراجم قضاة الدولة الأموية في الأندلس، خلال عصري الإمارة والخلافة، حيث انتهى القبشي من كتابه

(١) من أمثال: ابن حيان في المقتبس، وابن دحية في المطرب، وابن سعيد في المغُرب في حلى المغرب، وابن الأبار في التكملة لكتاب الصلة، وغيرهم..

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٤٦.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٨،٧٣.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٦٠.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٨.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص، ٤٦،٧٣، ٧٨-٧٩.

سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، أي قبيل سقوط الخلافة الأموية بسنتين تقريباً[١].

* ابن عبدالبر: أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد القرطبي النمري (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م). ويعتبر ابن عبدالبر من أبرز وأظهر علماء الأندلس قاطبة حتى قيل عنه: "لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبدالبر في الحديث "[٢]وقد " أدرك الكبار، وطال عمره، وعلا سنده وتكاثرت عليه الطلبة، وجمع وصنف، ووثق وضعف، وسارت بتصانيفه الركبان"[٣]. وقد برع في التأليف وأكثر فيه[٤].

وبالرغم من أن النباهي نقل عن ابن عبدالبر في ما يقرب من عشرة مواضع في كتابه نقلاً مباشراً يذكره فيها" بابن عبد البر"[٥]أو يكنيه في

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٣، ص ١٤٨-١٥٢. نعنعي،: عبد المجيد نعني: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس(بيروت دار النهضة العربية ١٩٨٦م) ص٥٣٠-٥٣١.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، جـ٢، ص ٦٤١.

(٣) الذهبي،شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء،تحيق:شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي،جـ١٨، ط٢(بيروت مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ١٥٤.

(٤) أورد ابن خلكان و الذهبي وغيرهما لابن عبدالبر أكثر من عشرين مؤلفاً مشهورا، يتكون البعض منها من سبعين جزءاً (انظر: ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان،تحقيق: إحسان عباس، ج٧،(بيروت، دار صادر.د.ت) ص ٦٦-٧٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٨، ص ١٥٨-١٥٩.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٢، ٤٧، ٤٥....

بعضها " بأبي عمر "[1]، إلا أنه لم يشر في أي من هذه النقولات إلى كتاب محدد من كتب ابن عبدالبر، حيث أن لأبي عمر بن عبدالبر عدداً كبيراً من المؤلفات، منها ما هو موجود ومتداول، ومنها ما هو مفقود، فإن من الصعوبة بمكان أن يحدد مصدر النقل المباشر من تلك المؤلفات باستثناء موضع واحد فقط تبين أن النباهي نقله من كتاب: "الاستيعاب في معرفة الأصحاب "وذلك حين قال: "وأول من قدَّم قاضياً في الإسلام على ما حكاه ابن عبدالبر، عمر بن الخطاب..."[2].

ومن خلال تتبع منقولات النباهي عن ابن عبدالبر يتضح أن كل ما ورد عبارة عن مرويات من سير بعض القضاة الذين سبقوا ابن عبدالبر أو عاصروه في الأندلس وقصص مختارة من أقضيتهم تدل على مدى عدلهم وصلابتهم في الحق وإنفاذه على من توجب عليه كائناً من كان، وحرصهم على استقلالية القضاء، وعدم السماح للحاكم من التدخل في أحكامهم[3].

وبما أن معظم ما كتبه ابن عبدالبر عن تراجم الفقهاء والعلماء الأندلسيين قد فقد ولم يتبق منه إلا ما احتفظت به كتب التراجم

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٤٤، ٥٥، ٥٦، ٦٤....

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٢، وانظر ابن عبدالبر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي معوض، وعادل الموجود، جـ٣، ط١، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٢٣٩.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٤٤، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٤.

الأندلسية التي نقلت عن ابن عبدالبر[1] فإن الأغلب أن معظم تلك المنقولات التي لم يشر النباهي إلى اسم كتاب ابن عبد البر الذي نقل عنه، ربما تُعزى إلى كتاب وضعه ابن عبد البر " في أخبار القضاة "[2]. وهو من المؤلفات التي فقدت كحال غيره من كتب ابن عبد البر وغيره من علماء الأندلس، ويظهر من خلال نقولات النباهي عن ابن عبد البر أن هذا الكتاب تناول سير عدد من قضاة الأندلس إبان العصر الأموي، وخاصة عصر الإمارة الأموية (١٣٨ -٣١٦هـ/٧٥٦-٩٢٨م).

وقد يُعزي عدم ذكر النباهي لاسم كتاب ابن عبد البر الذي نقل عنه تلك التراجم إلى أن النباهي لم يطلع على كتاب ابن عبد البر هذا، وإنما نقل عمن نقل عنه، ولعل مما يدعم القول بهذا أن النباهي حينما ترجم للقاضي " المنذر بن سعيد البلوطي، لم يرجع إلى ابن عبد البر، ولا أشار إليه في هذه الترجمة التي تكاد تكون أطول ترجمة في كتابه" المرقبة العليا"[3].مع أن ابن عبد البر قد كتب كتاباً خاصاً في ترجمة القاضي المنذر

(١) وقد نقل عن تلك التراجم كل من الحميدي في جذوة المقتبس، وابن بشكوال في الصلة والضبي في بغية الملتمس، وعياض في فهرسة شيوخه وغيرهم.
وانظر عن مؤلفات ابن عبدالبر في تراجم الفقهاء والعلماء الأندلسيين: جاسم: ليث سعود: ابن عبدالبر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ط٢،(المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنسر والتوزيع،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٣٠٨-٣٢٥.

(٢) جاسم: ابن عبدالبر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٣٠٨-٣٢٥.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٦-٧٥.

بن سعيد[١].ولعل هذا يوحي بأن فقد كتب ابن عبد البر كان متقدماً.

* ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)[٢].

من أشهر مؤلفي الأندلس وأعلامها،" له حظ وافر من العلم والبيان، وصدق الإيراد" [٣] " كان صاحب لواء التاريخ في الأندلس، أفصح الناس بالتكلم فيه، وأحسنهم تنسيقاً له "[٤]. وقد عدَّ البعض لابن حيان نحو خمسين مؤلفاً[٥]، ولعل أشهرها كتاب " المتين " الذي فقد ولم يبق منه الا ما نقلته المصادر التي جاءت من بعده[٦] وكذلك كتاب " المقتبس " والذي حقق منه بعض أجزائه، فيما فقد البعض الآخر[٧].ولم يبين النباهي أياً من كتب ابن حيان نقل عنه، حيث لم يورد

(١) جاسم: ابن عبد البر ومنهجه في كتابة التاريخ، ص٢٢٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢،ص٢١٨-٢١٩.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، تحقيق: إبراهيم الأبياري،ق١، ط٢،ص ٣١٢

(٤) الزركلي، خير الدين: الأعلام، م٢،ط٦،(بيروت،دار العلم للملايين ١٩٨٤م) ص ٢٨٩.

(٥) ابن حيان،خلف بن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي،(بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥م) مقدمة المحقق ص١٢-١٥.

(٦) ابن حيان: المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق: إسماعيل العربي، ط١،(المغرب، دار الآفاق الجديدة، ١٤١١هت/١٩٩٠م) مقدمة المحقق ص٧.

(٧) حقق عدد من أجزاء الكتاب بيد كل من: عبد الرحمن الحجي، محمود علي مكي، إسماعيل العربي، صلاح الهواري، وملشورم أنطونية، وبدروشالميتا وآخرون. وقد نشرت هذه الأجزاء المحققة.

اسم الكتاب أبداً وانما اكتفى بالعزو إليه في المواقع الأربعة التي صرح فيها بالنقل عن ابن حيان بقوله" وذكر ابن حيان"[١]. أو بقوله:" قال ابن حيان"[٢]. دون أن يورد اسم الكتاب الذي نقل عنه كما فعل مع غيره من مصادره التي اعتمد عليها. ورغم قلة المواضع التي صرح النباهي بالاعتماد على ابن حيان فيها الا أنه نقل عنه في تلك المواضع نصوصاً مطولة يصل البعض منها إلى ما يقارب الصفحتين[٣].

* ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك المعروف بابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) يُعد من أبرز المؤلفين في فن التراجم والسير في الأندلس وقد عدَّه ابن الأبار[٤]"بقية المسندين بقرطبة والمسلم له حفظ أخبارها ومعرفة رجالها". وهو غزير التأليف إذ ذكر أن له أكثر من خمسين مؤلفاً في فنون مختلفة[٥]. والمؤلف الذي يعنينا هنا هو الموسوم "كتاب الصلة"[٦] حيث وصل به مؤلفه كتاب شيخه ابن

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٤٠.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٧، ٨٨، ٩٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٤٠-٤١، ٨٨، ٩٤.

(٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي: التكملة لكتاب الصلة: تحقيق عبدالسلام الهراس، ج١، (الدار البيضاء، دار المعرفة، د.ت) ص٢٤٨.

(٥) ابن بشكوال: الصلة، ج١، مقدمة المحقق،ص د.

(٦) كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وأدبائهم: نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، القاهرة.

الفرضي"تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس" – الذي سبق الحديث عنه – وقد نقل النباهي عن ابن بشكوال في عشرة مواضع من كتابه "المرقبة العليا"حيث ينقل عنه فقرات مطولة في ترجمة بعض من رفض القضاء في الأندلس [١]، كما نقل عنه ترجمة بعض قضاة الجماعة في قرطبة[٢]. وكانت تلك النقولات في معظمها نصوص مطولة تصل في بعض المواضع ما يقرب من الصفحة[٣]، بل أنه نقل بعض التراجم كاملة كما وردت في الصلة[٤].وكان معظم القضاة الذين نقل النباهي ترجمتهم عن ابن بشكوال من قضاة عصر الطوائف والمرابطين في الأندلس، باستثناء القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث (٤٢٩هـ/١١٤٩م)[٥]الذي ولي القضاء في عصر الفتنة التي سقط على أثرها حكم بني أمية في الأندلس[٦]

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٠-٢١.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٠،٩٨،٩٦،٩٥...

(٣) انظر مقال ذلك في ترجمة القاضي يونس بن مغيث (النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٩٥-٩٧).

(٤) انظر: ترجمة القاضي محمد بن أحمد بن رشد (النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٩٨-٩٩)، وانظر: الترجمة ذاتها في الصلة، جـ٢، ص ٥٤٦-٥٤٧. وكذلك ترجمة القاضي عياض اليحصبي (النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠١، وانظر ابن بشكوال: الصلة، جـ٢، ص ٤٢٩-٤٣٠).

(٥) الحميدي: جذوة المقتبس،، ص ٦١٣.الضبي،أحمد بن يحي: بغية الملتمس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج٢،ط١(القاهرة، دار الكتاب المصري،١٤١٠هـ/١٩٨٩م) ص ٦٨٨.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٩٥-٩٦.

وكما تعددت مواطن نقل النباهي عن ابن بشكوال فقد تنوعت أيضاً أساليب العزو إليه، فمرة يكتفى بإيراد كنيته فيقول" ذكره ابن بشكوال"[1].أو "ذكره ابن بشكوال في كتابه"[2]، وأخرى يورد الاسم كاملاً مع اسم الكتاب فيقول: "و ذكره خلف بن عبد الملك بن بشكوال في صلته"[3]. وهكذا تتعدد أساليب العزو إلى ابن بشكوال حال النباهي في ذلك حاله مع باقي موارده التي اعتمد عليها في كتابه، إلا أن الملحظ الرئيس على تعامل النباهي مع كتاب "الصلة" أنه أورد اسم الكتاب مباشرة في أغلب المواضع التي نقل عنه فيها، وهذا ما لم يفعله النباهي مع المصادر الأخرى إلا في النادر جداً.

* **القاضي عياض اليحصبي**:أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي(ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) من أهل سبته، قدم الأندلس لطلب العلم على علمائها فأجازوا له، ثم رحل إلى المشرق فجلس في حلقات علمائها ونهل من معين فقهائها ومحدثيها[4]، ثم انصرف إلى المغرب فتولى القضاء في سبته "فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة،

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٩٦.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٣.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠١-١٠٠.

(٤) ابن فرحون، إبراهيم نور الدين المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق: مأمون الجنَّان. ط١، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ص ٢٧٠-٢٧١.

مشكور الحالة"[1] ثم نقل عنها إلى قضاة غرناطة[2]."وهو من أهل التفنن في العلم، والذكاء واليقظة والفهم"[3].

والقاضي عياض مؤلف مكثر له عدد من التصانيف البديعة ومن أشهرها كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" وكتاب "مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم" إلى غيرها من المؤلفات الحسنة[4].

أما الكتاب الذي أفاد منه النباهي: فهو الموسوم " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك". وهو من المصادر الرئيسة التي اعتمد عليها النباهي بشكل كبير، حيث ورد الاقتباس منه في سبعة عشر موضعاً من كتاب النباهي وبمقادير مختلفة بين الاختصار والإطالة في الاقتباس، وأن غلب على التراجم المتأخرة منها الإطالة في النقل عن عياض بعكس أصحاب التراجم المتقدمين.

وكما هي عادة النباهي في تنوع أساليب عزوه إلى مصادره فقد نهج الأسلوب نفسه في العزو إلى كتاب "ترتيب المدارك...." من نحو قوله: "قال عياض بن موسى"[5] و"قال صاحب المدارك"[1] و"قال القاضي أبي

(١) عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك.، ج١، مقدمة المحقق،ص ١٩.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأدلس، ص ١٠١.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، جـ٢، ص ٤٣٠.

(٤) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٢٧٢.

(٥) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٨، ٤١.

الفضل"[٢] و"قال عياض"[٣]، ولم يلتزم النباهي بمسمى واحد لكتاب القاضي عياض عند العزو إليه حيث يورده مرة باسم "ترتيب المدارك"[٤]، وأخرى ينعته بـ "تقريب المسالك"[٥]، وثالثة بـ "ترتيب المدارك وتقريب المسالك"[٦]، فيما يختصره أحياناً باسم "المدارك"[٧]، ويطيل في الاسم أحياناً حتى يكاد أن يورده كاملاً كما نعته مؤلفه فيقول: "كتاب تقريب المسالك بمعرفة أعيان مذهب مالك "[٨].

ولعل تعدد المسميات بين مختصر ومطول – وإن لم تخرج في مجملها عن اسم الكتاب كما وضعه مؤلفه – توحي أن الكتاب كان معروفاً ومنتشراً بشكل كبير في زمن النباهي. وقد صرح النباهي بالاطلاع والنقل المباشر من كتاب "ترتيب المدارك.."حيث يقول: "ورأيت بخط القاضي أبي الفضل"[٩]، كما يقول: "رأيت في كتاب

=

(١) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٣٠، ٨٩.

(٢) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٥، ٣٧.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧، ٧٩، ٩٥.

(٤) تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٥.

(٥) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٤.

(٦) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٧.

(٧) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٥، ٧٧، ٨٥.

(٨) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٣٢.

(٩) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٥.

ترتيب المدارك تصنيف القاضي عياض..."[١]، وهي من المرات القلائل التي يصرح فيها بالنقل والإطلاع المباشر على مصادره المكتوبة.كما يؤكد نقله المباشر من " ترتيب المدارك " في مواضع متعددة من كتابه بقوله "قال عياض بن موسى ومن خطه نقلت "[٢]، وبقوله: "ومن أصله الذي بخط يده نقلت"[٣] ليؤكد بذلك أنه اطلع على النسخة الأصلية التي كتبت بخط المؤلف ذاته رغم أن بينهما ما يقرب من مائتين وخمسين سنة، وهذا مما يعتبره زيادة في التوثيق، ودقة في المعلومة.

* **ابن الزبير**:أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م).

كان ابن الزبير "خاتمة المحدثين، وصدر العلماء والمقرئين، نسج وحده في حسن التعليم، والصبر على التسميع"[٤] انتهت إليه الرياسة بالأندلس في" صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث..."[٥] وصار في زمنه مقصد الرحلة متصدراً للتعليم والتدريس ببلده[٦]. وكما برع ابن الزبير في التدريس برز أيضاً في التأليف حيث عد له محققا كتاب "صلة

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٥.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٢٨.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٢٧.

(٤) ابن الخطيب. الاحاطة في أخبار غرناطة، ص ١٨٩.

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٠٦.

(٦) ابن الخطيب: الاحاطة، م١، ص ١٨٩.

الصلة" ثلاثة عشر مؤلفاً رئيساً في فنون متنوعة من التراجم إلى البرامج والحديث والأصول ونحوها[١].

وقد كان لابن الزبير ومؤلفاته أثر كبير فيمن جاء بعده، حيث أفاد من مؤلفاته عدد كبير من بعده يأتي في مقدمتهم ابن الخطيب الذي وصل كتاب ابن الزبير بكتاب سماه"عائد الصلة"[٢]، وكذلك النباهي في كتابه " المرقبة العليا"مدار بحثنا هذا وغيرهم.

أما المؤلف الذي اعتمد عليه النباهي كمصدر من المصادر التاريخية لكتابه " المرقبة العليا من مؤلفات ابن الزبير فهو كتاب "صلة الصلة "والذي يأتي في مقدمة مؤلفات ابن الزبير، وقد ترجم فيه لعدد كبير من أعلام وأعيان الأندلس والمغرب، وتاريخ بعض الدول هناك، فضلا عما تضمنه من حديث عن الحركة الفكرية والاجتماعية في الغرب الإسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين،[٣]،وقد وضعه مؤلفه صلة لكتاب ابن بشكوال "الصلة" ليشكل بذلك سلسلة متتالية لكتب التراجم الأندلسية[٤].

(١) ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم الغرناطي: كتاب صلة الصلة، القسم الثالث، تحقيق:عبدالسلام الهراس وسعيد أعراب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م،مقدمة المحققين، ص ٢، ٣.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، م١، ص ١٩٠.

(٣) صلة الصلة، ق٣،مقدمة المحققين، ص ١١-١٥.

(٤) هذه السلسلة بدأها الخشني بكتاب "قضاة قرطبة" ثم تلاه ابن الفرضي بكتاب "تاريخ

ويتضح من خلال تتبع نقولات النباهي عن كتاب "صلة الصلة" أنه من أهم المصادر التي اعتمد عليها إذ رجع إليه في ثمانية عشر موضعاً من كتابه.

وقد اختلف النقل بين إشارات عابرة مثل قوله: "ذكره ابن الزبير"[١]. وقوله: "ذكره أبو جعفر بن الزبير"[٢] وبين نقولات مطولة مثل ما نقله عن ابن الزبير في ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م)[٣] ومثل ترجمته للقاضي أبي عبدالله بن عبدالله المراكشي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٤م) [٤]، فقد نقل عنه في ترجمة هذين العلمين نقلاً مطولاً يصل في البعض منها إلى ما يقرب من صفحتين.

ولم يكتف النباهي بالنقل من ابن الزبير بل كان ينقده في بعض ما ورد لديه، ويصحح له بعض ما وقع فيه من الأخطاء، من ذلك الموضع الذي ذكر ابن الزبير أن جثمان القاضي "ابي بكر بن العربي المعافري" دفن فيه، حيث يقول "وما وقع من دفنه بباب الجيسة وهم من ابن الزبير

=

العلماء والرواة للعلم بالأندلس" ثم ابن بشكوال بكتاب "الصلة" ثم ابن الأبار بكتاب "التكملة لكتاب الصلة" ثم ابن الزبير بكتاب "صلة الصلة" ثم وصله ابن الخطيب بكتاب "عائد الصلة" وكذلك وصل بكتاب " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" لابن عبدالملك المراكشي

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٢، ١١٦، ١٢٤، ١٢٦.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٠، ١٣٠.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٥-١٠٧.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٠-١٣١.

وغلط... والصحيح في القاضي أبي بكر أنه أنما دُفن خارج باب المحروق من فاس"[١]

واختلفت أساليب العزو إليه فمرة يعزو إليه بقوله: "ذكره ابن الزبير"[٢] وأخرى يكنيه بـ"بأبي جعفر بن الزبير"[٣] وثالثة يلقبه بـ "الأستاذ"[٤] وهذه الأخيرة "الأستاذ" كانت الأغلب في العزو إليه في المواضع التي عزا إليه فيها، وهي لا شك تدل على المكانة والمنزلة التي بلغها ابن الزبير في عهده حيث كان "الأستاذ" لقبه الذي عُرف به[٥].

وبما أن كتاب ابن الزبير" صلة الصلة" يُعد بمثابة المكمل لسلسلة كتب التراجم الأندلسية – كما سبق بيانه-[٦]،فقد اهتم بتراجم العلماء والقضاة المتأخرين والقريبين من عهده، وعلى ذلك فقد أفاد منه النباهي في تراجم عدد من قضاة عصري المرابطين والموحدين، فضلا عن قضاة بني هود وبني نصر في غرناطة[٧].

ومع أن النباهي نقل عن ابن الزبير الكثير من التراجم – ومنها

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٧

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٢-١٠٣، ١١٢، ١١٦، ١٢٤، ١٢٦.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٦، ١٠٩، ١١٣.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٦، ١٠٩، ١١٣، ١١٨.

(٥) انظر: ابن الخطيب: الاحاطة، ح ، ص ١٩١. عبدالسلام الهراس، مقدمة تحقيق كتاب "صلة الصلة" ق٣، ص٣-٤.

(٦) أنظر أعلاه ص ٢٢، حاشية ٢.

(٧) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٢٣،١١٣،١١٢،١٠٩،١٠٢.

المطولة –الا أنه لم يورد اسم كتابه بكامله، كما فعل مع غيره من مصادره، وإنما اكتفى في الأغلب بقوله: " ذكره ابن الزبير في صلته"[١].

والملاحظ أن النباهي ربط في النقل والاقتباس بين مؤرخين متعاصرين هما ابن الزبير – السابق ذكره – وابن عبدالملك[٢] صاحب كتاب "الذيل والتكملة للكتابي الموصول والصلة"[٣] حيث أشار في معظم المواضع التي نقل فيها عن ابن الزبير إلى كتاب ابن عبدالملك حيث يقول غالباً "ذكره ابن الزبير وابن عبدالملك"[٤].

ولم ينقل عن ابن عبدالملك بشكل مستقل غير ترجمتين مختصرتين لكل من القاضي حمدين بن حمدين التغلبي (ت ٥٤٧هـ/١١٥٢م) [٥]، والقاضي أبي الربيع سليمان الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٦م)[٦].

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٦،١١٢، وغيرها.

(٢) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري المراكشي، قاضي مراكش (ت٧٠٣هـ). انظر عنه: ابن الزبير، صلة الصلة، ق٣، ص٤٤-٤٦،النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٠-١٣٢، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٤١٥-٤١٦.

(٣) ابن عبد الملك: أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة،السفر الثامن، تقدثم وتحقيق: محمد بن شريفة، (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م). ويعد كتاب الذيل والتكملة وصلاً لكتاب ابن بشكوال "الصلة" وكتاب ابن الزبير " صلة الصلة".

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٢، ١١٢، ١٢٣.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٣.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٩.

ولم يثبت على تسمية واحدة لكتاب ابن عبدالملك فمرة يقول: "قال صاحب التكملة"[1] وأخرى يقول: "ذكره القاضي أبو عبدالله بن عبدالملك في الصلة"[2] وفي ثالثة يقول: "قال عنه صاحب الذيل"[3] أما باقي مواضع الاقتباس أو الإحالة إلى هذا المؤلف فيكتفي بذكر كتبه "ابن عبدالملك"، ولعل تكرر وتشابه التراجم لدى كل من ابن الزبير وابن عبدالملك في كتابيهما هو ما جعل النباهي يكتفي في أغلب المواضع التي نقل فيها عن المؤلفين بالإشارة إليهما معاً.

أما تعدد مسميات كتاب ابن عبدالملك لديه مرة بالتكملة ومرة بالصلة وثالثة بالذيل، فهي في نهاية الأمر مختصرات مأخوذة من مسمى الكتاب الكامل "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة".

* ابن الأبار: أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) يُعد من أكابر أعلام الأندلس ومؤلفيها في القرن السابع الهجري، ذا مكانة رفيعة، ومنزلة عالية لدى حكام بلده بلنسية في بدء حياته، وكذا حينما أجبرته ظروف سقوط بلنسية(Valincia) في أيدي النصارى سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م على الهجرة إلى تونس ليعيش في كنف حكامها من بني حفص محفوظ المنزلة

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٩.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٣.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٣.

عالي المكانة لديهم، حتى إذا اعتل له الدهر، وقلبت له الأيام مجنَّها، وكثرت وشايات الحساد من حوله، تطاوله غضب المستنصر الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٦م) فقتله في الحادي والعشرين من المحرم سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وأمر بإحراق مؤلفاته[١]. وقد أمد ابن الأبار المكتبة الإسلامية الأندلسية بعدد غير قليل من المؤلفات العلمية القيمة، منها ما وصل إلينا، ومنها ما اعتورته عوامل الضياع والفقدان - كحال غيره من التراث الإسلامي – وهي جميعاً تدل على أن صاحبها أمضى زمناً غير يسير في التحصيل والدراسة، حتى إذا اكتمل تكوينه الثقافي شرع في التأليف الكتابة فأمدنا بعدد كبير من المؤلفات الأدبية والتاريخية التي حظيت بقيمة كبيرة لدى من تلاه من المؤرخين والكتاب والباحثين[٢].

ويأتي في مقدمة تلك الآثار كتاب " التكملة لكتاب الصلة " وكما يتضح من عنوانه فقد وصل به مؤلفه كتاب " الصلة لابن بشكوال" وقد نص على ذلك مؤلفه حيث قال في خطبة كتابه " فهذا كتاب التكملة

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص ٤١٨، ٤١٩. المطوي،محمد العروسي: السلطنة الحفصية(بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ١٧٣-٢٢٣.

(٢) انظر عن مؤلفات ابن الأبار وموضوعاتها وما وجد منها وما فقد:ابن الأبار: إعتاب الكتاب،تحقيق: صالح الأشقر، ط١(دمشق،١٣٨٠هـ/١٩٦١م) مقدمة المحقق ص ١٩-٢٣.

لكتاب الصلة الذي ألفه أبو القاسم ابن بشكوال[1]. وهو من المؤلفات التي اعتمد عليها النباهي في كتابه بشكل لا بأس به إذ صرح بالنقل عنه في ثمانية مواضع، ورغم قلة الرجوع إليه قياساً على غيره مما سبق من مصادر إلا أن النقل عنه في أغلب المواضع كان بشكل مطول حتى كاد في بعض التراجم أن ينقل الترجمة كاملة كما وردت لدى ابن الآبار، وخاصة إذا ما تضمنت الترجمة الحديث عن الجوانب الأدبية والآثار الشعرية للمترجم[2] والتي يرع فيها ابن الآبار.

وينعت النباهي ابن الأبار بلقب " المحدث "[3] أحياناً، وبلقب " الإمام "[4] أحياناً أخرى، مما يدل على مكانته ومنزلته لدى النباهي.

ويعزو إليه النباهي بصيغ متعددة، يصرح في مواضع منها باسمه واسم كتابه فيقول " وفي تكملة المحدث أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأبار"[5]، ويكتفي في مواضع أخرى بذكر اسمه دون اسم

(١) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٥.

(٢) انظر مثال ذلك في ترجمة القاضي أحمد بن يزيد بن بقي الأموي (ت ٦٢٥هـ). النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١١٧-١١٨، وترجمته في: ابن الأبار: التكملة جـ١، ص ١٠٢-١٠٣. وكذلك في ترجمة القاضي أبي الربيع سليمان الكلاعي: انظر: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٩-١٢٢. وانظر: ابن الأبار: التكملة، ج٤، ص ١٠٠-١٠٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٦-١١٦.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٢٠.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٦.

الكتاب فيقول:" ذكره المحدث أبو عبد الله بن الأبار "[1] أو يقول " قال ابن الأبار "[2]ونحو ذلك من الصيغ.

وإلى جانب ما سبق الحديث عنه من مصادر تاريخية مكتوبة اعتمد النباهي على مجموعة أخرى من المصادر التاريخية، غير أن اعتماده عليها كان بشكل أقل مما سبق، وكان في مواضع محدودة جداً، اكتفى في أغلبها بالإشارة إلى اسم المؤلف وأنه ذكر العلم المترجم له، دون أن ينقل منها نقولاً مباشرة كما فعل في سابقتها، ومن أهم تلك المصادر كتاب للقاضي أبي عبدالله بن عسكر[3] عزا إليه النباهي في خمسة مواضع بشكل مختصر جداً حيث اكتفى في معظمها بقوله: "ذكره ابن عسكر في كتابه"[4]" ونحو ذلك، ولم يورد اسم الكتاب الذي أفاد منه من مؤلفات ابن عسكر، غير أنه يظهر أن كتاب "الإكمال والإتمام في الإعلام بمحاسن

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٦.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٧،١١٧.

(٣) القاضي أبو عبدالله محمد بن علي بن هارون الغساني المعروف بابن عسكر. تولى قضاء مالقة في بداية عصر الدولة النصرية. وكان فقيهاً في الأحكام والنوازل، شاعراً رقيقاً، له جملة تواليف من أشهرها " المشرع الروي في الزيادة على كتاب الهروي في غريبي القرآن والحديث " وكتاب: "التكميل والاتمام لكتاب التعريف والأعلام" توفي في سنة ٦٣٦هـ. انظر: النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٢٣-١٢٤.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢-١٠٠.

الأعلام من أهل مالقة الكرام"[1]هو الأقرب للنقل منه والإفادة في تراجم أولئك القضاة الذين ترجم لهم النباهي في كتابه، وهم جميعاً ممن ولي القضاء في مالقة. ويدخل كتاب "الإكمال" ضمن كتب التراجم البلدانية، حيث خصصه مؤلفه للحديث عن أعلام مالقة مدينته التي نشأ بها، وهذا النوع من التأليف عرف في الأندلس بشكل كبير، حتى لا تكاد مدينة من مدنها الشهيرة تخلو من مؤلف اختص بتراجم أعيانها.

وكذلك اعتمد النباهي على مؤلف آخر معاصر لابن عسكر بل ومن قرابته ألا وهو ابن اختي ابن عسكر- السابق ذكره - المعروف بابن خميس[2]. ومؤلفه بعنوان: " مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار"[3].

(١) اختلف الباحثون حول تسمية هذا الكتاب فمنهم من يسمه "تاريخ مالقة"ومنهم من يسمه "تاريخ ابن عسكر" وثالث ينعته بـ "بعض أخبار فقهاء مالقةوأدبائها". انظر عنه: خواكين: بالبيبرمنجو: مصدر مهم في تاريخ الأندلس، تاريخ ابن عسكر، مجلة الأندلس، العدد (٣١) لسنة ١٩٦٦م، ص ٢٣٧-٢٦٥. المكناسي: محمد العرائسي:"بعض أخبار فقهاء مالقةوأدبائها لابن عسكر" مجلة دعوة الحق، العدد (٢) السنة٢٣، جمادى الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م(تصدرها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالرباط) ص ١١٠-١١٤.

(٢) أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي. توفي بعد سنة ٦٣٩هـ.

(٣) الكتاب صدر بهذا العنوان عن مؤسسة الرسالة ودار البشير عام ١٩٩٩م، تحقيق وتقديم صلاح جرار.وقد قام الدكتور / عبد الله المرابط الترغي بإخراج هاذين المؤلفين (الإكمال، ومطلع الأنوار) ونشرهمافي مجلد واحد سماه "أعلام مالقة" تأليف أبي عبد الله بن عسكر

والكتاب يعتبر تتمة لكتاب ابن عسكر السابق ذكره، وقد احتوى على تراجم لعدد من القضاة والعلماء والأدباء المالقيين.

وأفاد منه النباهي في ثلاثة مواضع اكتفى في موضعين منها بالإشارة إليه بقوله: " ذكره ابن خميس"[1] أما الموضع الثالث فقد نقل فيه نص في سبعة أسطر فقط وذلك عند ترجمته للقاضي (محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي قاضي مالقة المتوفى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م[2]. ولم تتكرر الإشارة إلى هذا المؤلف بشكل صريح في غير هذه المواضع الثلاثة، كما أنه لم يورد اسم الكتاب بشكل صريح، وإنما اكتفى بذكر اسم المؤلف فقط.

وإلى جانب ما سبق من مصادر تاريخية استقى النباهي منها مادة كتابه، ورد في " المرقبة العليا " عدد آخر من المصادر التاريخية المكتوبة التي عزا إليها النباهي بشكل صريح، غير أن العزو إلى تلك المصادر لم يتجاوز نقولات مختصرة جدا، أو إشارات عابرة وسريعة، إما إلى اسم المؤلف دون ذكر الكتاب المنقول منه مثل قوله: "على ما نقله ابن اسحق "[3]، أو قوله: " وذكر ابن هشام"[1].حيث أورد عن هذا

=

وأبي بكر بن خميس " ونشرته دار الغرب الإسلامي في ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١١٢- ١١٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٧٤. والمقصود محمد بن اسحق صاحب " السيرة

المصدر ثلاثة أبيات شعرية فقط، ولم يتكرر المصدر في غير هذا الموضع.أو مثل قوله " قال الفرغاني التاريخي"[٢]، حيث نقل عنه بعض الصفات للقاضي إسماعيل بن حماد الأزدي[٣]، ولم يذكر اسم الكتاب الذي نقل عنه، كما لم يرد هذا المؤلف الا في هذا الموضع فقط. او بذكر الكتاب دون ذكر مؤلفه، مثل قوله " هذا نصُّ ما وقع إثر اسمه عند ذكره في الكتاب المسمى ب"عائد الصلة "[٤]، وذلك عند ترجمته

=

النبوية" المتوفى سنة (١٥٠هـ تقريبا) والتي وصلت إلينا مختصرة عن طريق محمد بن هشام.انظر: ابن هشام،أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون،ق١،(بيروت، مؤسسة علوم القرآن، د.ت) ص ١١٦.

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٧٤.

(٢) وهو الأمير العالم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر التركي الفرغاني، صاحب التاريخ المذيل على تاريخ محمد بن جرير الطبري، توفي في جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين وثلاث مائة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) هو شيخ الإسلام أبو اسحاق إسماعيل بن اسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد قاضي بغداد، صاحب التصانيف الكثيرة، من فقهاء المذهب المالكي، توفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين للهجرة. (انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص ٣٣٩-٣٤٢.ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٥١-١٥٥.الزركلي: الأعلام، م١، ط٦، ص٣١٠. وانظر: النباهي: تاريخ قضاة الأندل، ص ٣٢.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٤١. وكتاب عائد الصلة للسان الدين بن الخطيب كما سبق ذكره أعلاه. ولعل الخصومة بين النباهي وابن الخطيب منعته من ذكر اسم مؤلف الكتاب مباشرة مع معاصرته له.

للقاضي محمد بن يحي الأشعري (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م)[١].إلى غير ذلك مما ورد من مصادر تاريخية بشكل عابر ولا يتكرر.

ب- المشاهدة والسماع:

وإلى جانب المصادر التاريخية المكتوبة التي اعتمد عليها النباهي في كتابه " المرقبة العليا " والتي سبق الحديث عن أهمها، اعتمد النباهي كذلك على مصدر آخر لا يقل أهمية عما سبق من مصادر إن لم يفوقها أهمية، وهو يمثل – إلى حد كبير – تميزاً لكتاب النباهي الا وهو " السماع والمشاهدة "حيث أن معاصرة النباهي ومشاهدته لبعض الأحداث أو قربه منها، أو لقائه مع من عايشها، أو احتكاكه بمن قرب ممن عاصرها، مكنته من رواية بعض الأحداث كشاهد عيان وفق على الحدث،أو موقعه، أو سمع الحدث بالرواية عمن عاصره، ويوظف النباهي مشاهدته لتصحيح ما وقع من خطأ في المرويات التاريخية لمن سبقه، ومن ذلك تصريحه بماوقع فيه ابن الزبير من خطأ في موضع قبر القاضي ابي بكر بن العربي إذ قال أنه دفن " بباب الجيسة " من أبواب مدينة فاس[٢]. فانتقده بقوله أن ذلك " وهم من ابن الزبير وغلط، وقد زرناه وشاهدنا قبره بحيث ذكرنا "[٣] وذكر " أنه إنما دفن خارج باب

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٤١.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٧.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٧.

المحروق من فاس "[1].

وحرص النباهي على تأكيد حضوره حلقات العلم ومجالس المشائخ الذين عاصرهم وترجم لهم،واستخدم في ذلك عبارات جازمة بالرواية عنهم وحضور حلقاتهم، مثل قوله حينما ترجم للقاضي أبي عبد الله المنستيري، قاض تونس (ت٧٥٠هـ /١٣٤٩م)[2] "حضرت مجلس إقرائه بتونس عند وصولي إليها..)[3]. ومثل قوله أثناء ترجمته للقاضي أبي عبد الله بن عبد الملك المراكشي صاحب - الذيل والتكملة- "وأوقفني ولده صاحبنا الفقيه أبو عبد الله على كثير من المكتوبات الصادرة عن أبيه القاضي أبي عبد الله، ما بين منظوم ومنثور."[4] كما حرص على إثبات روايته المباشرة ممن لقيه ممن ترجم له، أو أنبائهم ومن أخذ منهم مباشرة، ومن ذلك قوله وهو يترجم للقاضي أبي عبد الله المقري التلمساني[5]. " وقد سألته يوماً..."[6].

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٠٧.

(٢) أنظر عنه: ابن فرحون، إبراهيم نور الدين: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ص٤١٨ عمر كحالة:معجم المؤلفين (بيروت، دار إحياء التراث ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ص١٧١.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٣

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣١.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٩-١٧٠.

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٠.

وكذلك فعل حين ترجم للقاضي أبي القاسم الشريف الغرناطي[١]. حيث قال " وأنشدنا القاضي الشريف في تلك الليلة..... ثم أنشدنا القاضي لنفسه"[٢].وكذلك قوله " ومن ذلك ما حدثنا به قريبنا وقريبه "[٣]. وذلك أثناء ترجمته لبعض قضاة غرناطة.

ويستخدم النباهي عبارات دقيقة وصريحة للتعبير عن روايته المباشرة عمن لقي من العلماء والرواة مثل قوله:" أخبرني " وقوله: " حدثني " لإثبات السماع المباشر من رواته، ومن ذلك قوله في ترجمة القاضي أبي عمرو عثمان بن موسى الجاني[٤]". " أخبرني الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن محمد الساحلي الغرناطي أنه لقيه ببلده، وأنه كان من أهل الفضل والعدل.."[٥].ومثل قوله "ويقرب من هذا ما حدثنا به صاحبنا الخطيب.."[٦]. وقوله وحدثني بهذه الحكاية غير واحد من الثقات الأثبات "[٧].

وقد تكرر ورود هذه العبارات لدى النباهي في مواضع متعددة من

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧١-١٧٧.
(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٧٤-١٧٥.
(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٤١.
(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٨-١٦٩.
(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٨
(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٤٥
(٧) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٢

كتابه وذلك حينما يتحدث عن الأعلام المعاصرين له أو القريبين من عصره سواء أكان الحديث في مجال بيان بعض صفاتهم وأخلاقهم، أو كان في سرد بعض القصص والمرويات المأثورة عنهم ومواقفهم من بعض القضايا التي مرت عليهم، وهو دليل على حرصه على توثيق المعلومة التي يوردها عن أولئك الأعلام، والكشف عن مصدر معلوماته، والمصادر التي استقى منها مادته العلمية.

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة في المصادر التاريخية التي استقى منها أبو الحسن النباهي مادة كتابه الموسوم " المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا "والمنشور باسم " تاريخ قضاة الأندلس " يمكن للباحث أن يسجل الملاحظ والاستنتاجات الآتية:

- سعة مصادر النباهي في كتابه هذا وتنوعها حسب موضوعات الكتاب، وامتداد المصادر التاريخية منها على وجه الخصوص على مدى فترة زمنية طويلة تبدا من بداية الوجود الإسلامي في الأندلس، وتستمر إلى عصر المؤلف.

- عمد النباهي إلى اختيار القضاة البارزين والمشهورين في المغرب الإسلامي فترجم لهم – خاصة في الفترات التاريخية المتقدمة – فترجم لهم كنماذج لقضاة المالكية في تلك البلاد، وحلى تلك التراجم بذكر أربعة من أشهر قضاة المالكية في العراق.

- سيطر البعد المذهبي على اختيارت النباهي للقضاة الذين ترجم لهم في كتابه، فالنباهي مالكي المذهب ولذلك كان جل الأعلام الذين ترجم لهم من المالكية سواء في الأندلس أو المغرب، وحينما ترجم لبعض قضاة المشرق الإسلامي اختيار منهم من كان مالكي المذهب مثل القاضي إسماعيل بن حماد والقاضي أبي بكر الباقلاني وغيرهما.

- ركز النباهي في معظم التراجم الواردة في كتابه على إيراد الصفات الخلقية للمترجم لهم، مما يدلل على تقواهم، وعدالتهم، ونزاهتهم، ولعل كونه من العاملين في مجال القضاء جعله يركز على هذه الصفات بشكل مباشر، في رسالة منه إلى من يطلع على كتابه أن هذه الصفات هي ما يمكن للقاضي ويظهره، وقد يكون في ذلك يدفع بعض ما قد يثار حول عدالة ونزاهة بعض القضاة.

- الأمانة العلمية التي اتصف بها النباهي في العزو إلى مصادره، وإظهارها بشكل واضح في معظم المواطن التي نقل عنها، فقل أن ينقل من مصدر تاريخي الا ويشير إليه مباشرة إما باسم الكتاب أو اسم المؤلف ونحو ذلك، ورغم حرصه على هذا فقد وردت بعض المواضع القليلة التي نقل فيها عمن سبقه ولم يشر إلى مصدر نقله للمعلومة مباشرة، ولعل ذلك يعود إلى قرب ذكره للمصدر غالباً.

- تعددت أساليب العزو إلى مصادره فمرة يستخدم كلمة " قال.." ومرة يستخدم عبارة " ذكره...ابن.. في كتابه " وأخرى يستخدم قوله "

ورد في كتاب..." وهكذا، كما يعمد أحياناً إلى ذكر اسم المؤلف الذي نقل عنه مباشرة دون ذكر اسم الكتاب، ولا يلبث أن يعود فيذكر اسم الكتاب الذي ينقل عنه دون ذكر اسم المؤلف، وهكذا لا يثبت النباهي على طريقة واحدة في العزو إلى مصادره، بل يتنقل من عبارة إلى أخرى، ومن أسلوب إلى أسلوب آخر وهكذا.

- يعمد النباهي أحياناً إلى إيراد اسم المؤلف دون تحديد اسم الكتاب الذي نقل منه معلوماته عن العلم المترجم، في حين قد يكون للمؤلف الذي أورد اسمه أكثر من كتاب، مما يجعل القارئ في حيرة من أي كتاب جاءات المعلومة من مؤلفات من نقل عنه، ومثال ذلك قوله: " قال ا بن حبيب في كتابه.." ولم يحدد أياَ من مؤلفات ابن حبيب نقل في حين أن لعبد الملك بن حبيب عدة مؤلفات في مجال التاريخ والتراجم ومنها: كتاب " حروب الإسلام " وكتاب " طبقات الفقهاء والتابعين " وكتاب " مصابيح الهدى " وغيرها من الكتب ذات المنحى التاريخي، فأي من هذه المؤلفات لابن حبيب نقل منه النباهي، خاصة وأن الأغلب منها مفقود، ولا يعرف على وجه التحديد متى فقدت.

- ظهر الحس النقدي عند النباهي في بعض المواضع من كتابه – وإن لم يكن بشكل متصل- وتمثل ذلك في نقده لبعض الروايات التاريخية التي نقلها ممن سبقه، وتصحيحه لها، وفق ما شاهده عياناً، أو سمعه ممن عاصر الحدث، ونحو ذلك، كما تمَّ بيانه في مواضعه من البحث.

- نقل النباهي بعض الروايات ذات النفس الصوفي وخاصة ما يتعلق بالرؤى والمنامات، وبعض الكرامات للمتوفين وغيرهم، ورغم أنه كان يعزو تلك المرويات الى أصحابها الذين نقل عنهم، الأ أنه في الغالب لا يعلق عليها ولا ينقدها، بل يمرها كما وردت لدى المصدر.

- حرص النباهي إلى درجة أن يأخذ ترجمة العلم من أقرب مصدر إلى عصر المترجم له، ولذلك نراه يركز في تراجم القضاة المتقدمين في الأندلس والمغرب على كتابي الخشني وابن الفرضي، وهما من أقدم كتب التراجم في المغرب الإسلامي، وهكذا فيما تلاهما من الفترات الزمنية التي تناولها الكتاب

- جعل النباهي المشاهدة والمعاينة والسماع من مصادر ترجماته للقضاة القريبين من عهده أو المعاصرين له، وهذا مما زاد من قيمة الكتاب وأهميته.

هذا من أبرز ما توصل إليه البحث من استنتاجات، برزت تفصلاتها في ثنايا الدراسة. والله الموفق.

الأزديون
ودورهم في الحياة العلمية بالأندلس
من خلال كتاب " الصـــلـة "
لابن بشكوال.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين وبعد..

فمن خلال تتبعي لكتب السير والتراجم الأندلسية، وقراءتي عن مسيرة الحركة العلمية في الأندلس الإسلامية لاحظت أن للقبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى الأندلس - منذ مراح الفتح الإسلامي المبكر لتلك البلاد وما تلاه من عهود- دور بارز ورئيس في البناء الفكري والتقدم الحضاري الذي شهدته تلك البلاد إبان توَّهج نور الإسلام فيها، وفت نظري كثرة المنتسبين إلى قبيلة الأزد – تلك القبيلة العربية الشهيرة- الذين كان لهم دور بارز، وفعل ظاهر، في مسيرة الحركة العلمية في الأندلس، ولذلك رأيت أن أتتبع دور أولئك الأعلام المنتسبين إلى هذه القبيلة وأثرهم في الحياة العلمية ومقدار ما أسهموا به في المنتج العلمي في الأندلس، وأثر ذلك في تقدم وازدهار العلوم والمعارف في الأندلس.

وحرصاً على حصر الموضوع رأيت أن أكتفي بما أورده المؤرخ والفقيه والمحدث الأندلسي أبو القاسم خلف بن عبدالملك المعروف بابن بشكوال والمتوفى في سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) في مؤلفه القيم الموسوم «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وأدبائهم» ذلك الكتاب الذي يُعد في مقدمة كتب التراجم والسير لعلماء

الأندلس. حيث وصل به ابن بشكوال كتاب شيخه وإمامه ابن الفرضي الأزدي الموسوم «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» فكان للمؤلفين قصب السبق في رصد الحركة العلمية في الأندلس، وإبراز رموزها ومخرجاتها العلمية.

وكما اقتصر البحث على كتاب «الصلة» فقد ركز على الأعلام الذين حملوا لقب «الأزدي» مباشرة دون غيرهم ممن ورد ذكرهم في الكتاب، ولو كانوا يعودون في نسبهم إلى الأزد. وحرص البحث على استجلاء الصورة الكاملة – حسبما أورده المؤلف – عن الدور الذي اضطلع به الأزديون في الحياة العلمية في الأندلس خلال الفترة الزمنية التي تناولها الكتاب، وأثرهم في التأليف والتدريس والإفتاء والإمامة والخطابة ونحوها، مستعرضاً حلقات العلم التي أقاموها، والفنون التي درسوها لطلاب العلم في الأندلس، فضلاً عن تتبع النشأة العلمية لأولئك الأعلام، والكشف عن تكوينهم المعرفي، والعلوم التي برزوا فيها، واهتموا بها، من خلال معرفة الشيوخ والعلماء الذين تتلمذوا على أيديهم في الأندلس وخارجها، كما تتبع البحث الرحلة العلمية لأولئك الأعلام، ومدى ما انتهت إليه في شرق العالم الإسلامي، وأثرها في تكوينهم العلمي وتوجههم الفكري، مع الإشارة إلى المواقع التي استقر بها الأزديون بعد دخولهم إلى الأندلس ضمن حملات الفتح الإسلامي وما تلاها.

ولا شك أن دراسة مثل هذا الموضوع تسهم في تسليط الضوء – بشكل جلي ومباشر- على الدور الذي قدمه الأزديون في البناء الحضاري الإسلامي في الأندلس، وما حققوه للحركة العلمية بها تدريساً وتصنيفاً وتعليماً.

سائلاً الله تعالى أن أكون قد وفقت في خدمة هذا الموضوع بالشكل الذي يميط اللثام عن دور أولئك الأعلام – إلى جانب إخوانهم المسلمين من مختلف الأعراق والأنساب – في خدمة العلم وأهله.

والله ولي التوفيق،،،

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

تمثل قبيلة الأزد أحد الفروع الكبيرة لعرب الجنوب (القحطانية) ويعود نسبها إلى الأزد[1] بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[2].

ولقد تفرعت تلك القبيلة بشكل كبير، وانتشرت في أرجاء الجزيرة العربية إنطلاقاً من موقعها الأساسي في بلاد اليمن حالها في ذلك حال معظم القبائل القحطانية التي هاجرت إلى وسط وشمال الجزيرة العربية وما وراءها[3].

وحينما انتشر نور الإسلام في جزيرة العرب كان الأزديون أول المنضمين تحت لوائه ومن المساهمين الأولين في حركة الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب على حدٍ سواء[4].

(١) وقيل اسمه «أُدَد» انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٣٣٠.

(٢) ابن حزم: المصدر السابق، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٣) عن هجرة القبائل اليمنية. انظر: أبو الفداء: تاريخ أبي الفداء، تعليق محمود ديوب، جـ١، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. ص ١١١-١١٤، ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون. مج١، ط١، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ١٤٥-١٥٦.

(٤) عن دور القبائل اليمنية في الفتوحات الإسلامية ومنها الأزد انظر:

وفي بلاد المغرب استقرت القبائل اليمنية إلى جانب غيرها من القبائل العربية الأخرى التي أسهمت في فتح بلاد المغرب بداءً من برقة ووصولاً إلى شواطىء المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى[1].

بل وكونت بعض القبائل اليمنية ممالكاً خاصة بها في تلك البلاد[2] مما يدل على كثرة وقوة القبائل اليمنية التي انتشرت بعد الفتح الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي.

وحينما بدأ المسلمون التوجه إلى الأندلس لفتحها بداءً من عام ٩١هـ أسهمت القبائل اليمنية – ومنهم الأزد – في الحملات الإسلامية التي تولت فتح الأندلس، حيث كان أول قائد مسلم يدخل شبه الجزيرة

=

- خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ١٢٤-١٥٢.
- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مج٢، جـ٤، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص٢٨-٨٢.
- البلاذري: فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٢٢٥-٢٣٢.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ١، تحقيق: ج.س. كولان و: ليفي بروفنسال، ط٣، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م، ص ٢٣-٤٥٦.

(٢) مثال ذلك مملكة الحميريين التي أسسها صالح بن منصور الحميري في بلاد الريف في المغرب الأقصى سنة ٩٢هـ/٧٠٩م، والتي كانت تضم مساحة كبيرة حددها البعض بمسيرة عشرة أيام. انظر:

- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٢٨٣-٣٨٤.
- الحميري: الروض المعطار، تحقيق: إحسان عباس ط٢، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٥٧٦-٥٧٧.
- السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ١، تحقق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤م، ص ٩٤-٩٥.

الأيبيرية عربي يمني وهو القائد طريف بن مالك النخعي كما يذكر ذلك كثير من المؤرخين[١].

وإذا كان من المسلم به أن القبائل العربية قد شاركت في حملة طارق بن زياد ذات الأغلبية البربرية[٢] فإن المؤكد أن الأغلبية الساحقة من جنود حملة الفتح الرئيسة للأندلس والتي قادها موسى بن نصير في سنة ٩٣هـ كانت من العرب اليمانية والشامية[٣]. وأنها كانت بمثابة البداية الحقيقية والظاهرة لاستقرار العرب في الأندلس.

مواطن استقرار الأزديين في الأندلس:

استقر الأزديون – كغيرهم من الفاتحين – في بلاد الأندلس، ويلاحظ المتتبع لكتب التراجم الأندلسية وكتب الجغرافية والبلدان ونحوها وجود الأزديين في معظم أقاليم ومدن الأندلس بداءً من الجزيرة الخضراء[٤] في

(١) ذكر ذلك كل من الرازي وابن الكرديوس وابن خلدون وغيرهم. وإن كان هناك من قال أنه بربري (انظر تفصيل ذلك في حسين مؤنس: فجر الأندلس، ط٢، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٦٦ حاشية (٤).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٤، ص ١٥٠.

(٣) ابن خلدون: المرجع السابق، جـ٤، ص ١٥٠-١٥١.

(٤) الجزيرة الخضراء: وتعرف أيضاً بالخضراء وبجزيرة أم حكيم نسبة إلى جارية طارق بن زياد. تقع على ربوة مشرفة على مضيق جبل طارق، وبها يوجد مسجد الرايات وهي تُعد وسطى مدن الساحل الجنوبي للأندلس، وأقرب مدن الأندلس مجازاً إلى العدوة المغربية (انظر: البكري: المسالك والممالك، جـ٢، تحقيق: أدريان فان ليوفن، وأندري فيري، ط١٩٩٢، دار الغرب الإسلامي، ص ٩٠٥، ٩٠٦.. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٢٣-٢٢٤.

جنوبي الأندلس ووصولاً إلى أقاصي الشمال والشمال الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية مروراً بمدن وأقاليم وسط الأندلس.

فلا تكاد تلك المصادر تتحدث عن مدينة من المدن الأندلسية إلا ويرد في ثنايا حديثها أعلام ينتسبون إلى الأزد. ومن خلال تتبع تراجم عدد كبير من الأزديين في الأندلس نستطيع القول إن الأغلبية منهم قد استقروا في بداية الأمر في جنوبي الأندلس. وهو بدون شك أمر طبيعي أن تكون مدن جنوبي الأندلس مواطن الاستقرار الأولى للفاتحين القادمين من جنوب شبه الجزيرة الايبيرية.

فابن بشكوال يورد في تراجمه عدداً كبيراً من الأزديين الذين استقروا في الجزيرة الخضراء، ومالقة[1]، والمرية[2]، وغرناطة[3] التي

(١) مالقة: مدينة قديمة تقع في جنوب الأندلس، وهي عاصمة مقاطعة مالقة في إقليم الأندلس – حالياً– وتطل على البحر المتوسط، وهي من أهم موانىء الأندلس الإسلامية وتعد حالياً ثاني أهم ميناء في إسبانيا بعد برشلونه (انظر: الحميري: المصدر السابق ص ٥١٧-٥١٨).

- خالد الشريف: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، منشورات، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، الرياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ٢٥-٣٠.

(٢) المرية: ميناء أندلسي مشهور على الساحل الجنوبي الشرقي للأندلس، أمر ببنائها الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة (٣٤٤هـ) وكانت في بداية الأمر مرصداً لمدينة بجانة. وقد بلغت في القرن الرابع الهجري شأناً كبيراً بين مدن الأندلس وأصبحت مقر الولاية بدلاً من بجانه:

=(انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس، ١٨٥٠م، ص ١٧٦-١٧٧، سعيد أبو زيد: خبران العامري صاحب مملكة المرية الأندلسية ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ص ٥٧-٦٥).

(٣) غرناطة: من أكبر وأشهر مدن الأندلس، وكانت المدينة المقصودة في الإقليم هي البيرة ثم

يؤكد ابن الخطيب[1] كثرة وجود الأزديين فيها في معرض حديثه عن سكان هذه المدينة بقوله:

«وأنسابهم.. عربية يكثر فيها القرشي والفهري.....والازدي". وغيرها من مدن جنوبي الأندلس. كما يشير إلى وجودهم في مدن الوسط الجنوبي للأندلس في كل من مدينة قرطبة[2] واستيجة[3] وأشبيلية[4] وغيرها.

=

خلت وانتقل أهلها إلى غرناطه فعمرت وكبرت، وأصبحت بعد سقوط المدن الأندلسية الكبرى ملجأ للمسلمين الفارين من وجه النصارى في عصر بني الأحمر (بني نصر). انظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٤٥-٤٦.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: جـ١، تحقيق، محمد عبدالله عنان، ط٢، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٣٥.

(٢) قرطبة: قاعدة الأندلس وأم مدنها، تقع على ضفاف نهر الوادي الكبير، وتتربع على سفح جبل سبيرانيفادا. كانت عاصمة الوجود الإسلامي في الأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى أن سقطت في أيدي النصارى سنة ٦٣٣هـ. وظهر بها عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء وغيرها. (انظر: ابن بشكوال: الصلة، جـ١، نشر: عزت العطار الحسيني، ط٢، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ١٨، ٣٣، ٩٧، ١١٠، ١٦٢، ١٧٢ وغيرها،الحميري: المصدر السابق ص ٤٥٧-٤٥٩، ليوبولدو نورِّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، منشورات: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ص ٢٩-٣٣..

(٣) استيجة: قع بين القبلة والمغرب من قرطبة وبينهما حوالي ٧٥كم. وبها حركة تجارية كبيرة، وأسواق واسعة، وهي على نهر شنيل، وكانت تسمى باستيجة القطن لكثرة إنتاج القطن بها. (انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٠٧). ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ٥٧٩، ٦٤٨ وغيرها.

(٤) اشبيلية: مدينة قديمة تقع إلى الغرب من مدينة قرطبة على نهر الوادي الكبير ولها أقاليم كثيرة تتبعها، كانت تعتبر المقر الرئيس للأسطول البحري في عهد بني أمية، وبها دار

وإذا ما اتجهنا إلى شرقي الأندلس وجدنا الأزديين يستوطنون مدنها الرئيسة مثل دانية[1]،

بل ويتجاوزنها إلى الجزيرة البحرية مثل ميورقة[2] وغيرها. وفي وسط الأندلس استقر الأزديون في مدينة طليطلة[3] عاصمة الثغر الأوسط، ومنها انساحوا فيما جاورها من مدن وأقاليم وسط الأندلس.

ومن المؤكد أن ثمة مواطن أخرى – غير الأمثلة السابق ذكرها – من مدن وأقاليم الأندلس استقر بها الأزديون، لم تشر الصادر إليها، وذلك إما لعدم بروز أعلام منهم بدرجة تستوقف المؤلفين، وإما لبروزهم في مجالات لا تدخل ضمن اهتمام ومجال ما وصل إلينا من كتب التراجم، وإما لكون من ظهر منهم كان في مجالات لا تدخل

=

لصناعة السفن. (انظر: البكري: المصدر السابق، جـ٢ص٩٠٣-٩٠٥) وانظر: ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ٢١٦، ٥٨٧ وغيرها.

(١) دانية: تقع دانية على الساحل الشرقي للأندلس، وكانت ميناءً بحرياً مهماً في العصر الإسلامي، وبها دار لصناعة السفن الحربية. (انظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) ميورقة: إحدى جزر الأندلس المعروفة بجزر البلبار، بل هي أكبر الجزر الثلاث فتحها المسلمون في مطلع القرن الثالث الهجري، وظلت تحت الحكم الإسلامي إلى عام ٦٢٧هـ حيث سقطت في يد النصارى. (انظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٥٦٧، ٥٦٨).

(٣) طليطلة: أكبر مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل الفتح الإسلامي تقع على مسافات متساوية بين كل من قرطبة وبلنسية والمرية. وهي غزيرة المعادن كثيرة الأسواق، رابحة التجارات ظلت في أيدي المسلمين منذ فتحها في سنة ٩٢هـ إلى أن سقطت في أيدي النصارى سنة ٤٧٨هـ. (انظر: ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس، ط٢، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٨٣. وانظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٣٩٣-٣٩٥).

ضمن مجال هذا البحث، وشروطه.

الأسر العلمية الأزدية:

لقد تنوعت العناصر السكانية في بلاد الأندلس بعد الفتح الإسلامي ما بين العرب والبربر والإسبان وغيرهم، ونتج عن ذلك التنوع السكاني تلاقح ثقافي متعدد أثمر تراثاً حضارياً أندلسياً متميزاً، وكان لكل عنصر من تلك العناصر إسهامات مشهودة، ومشاركات فاعلة، في ذلك السجل الحضاري الأندلسي العظيم، والمستعرض لذلك الناتج الحضاري الكبير يجد أن للأزديين فيه دور بارز، وجهد ظاهر، وإسهامات ثرية.

ومن خلال تتبعنا لتراجم الأزديين التي أوردها ابن بشكوال في الكتاب- موضع الدراسة- يتضح الدور المهم الذي اضطلع به الأزديون في رفد الحركة العلمية في الأندلس منذ استقرار المسلمين بها إلى نهاية عصر المؤلف، وإن كان ذلك الإسهام العلمي لم يكن على وتيرة واحدة وإنما يتضح من خلال نصوص الكتاب أنه يبرز في فترة ما، ويخفت ظهوره في أخرى كما أنه يتجلى في مدينة أو إقليم ما، ويخف في جهات أخر تبعاً لعدد من العوامل المؤثرة في الحياة العلمية بصفة عامة. فضلاً عن الوجود الأزدي في الإقليم أو المدينة.

وبالنظر إلى الأندلس بصفة عامة مكاناً وزماناً يظهر العطاء المتواصل للأزديين في الجوانب العلمية إما بصفتهم طلاب علم أو

علماء لهم مجالسهم ودروسهم وتلاميذهم أو مصنفين يتتلمذ الطلاب على مؤلفاتهم، أو وعاظاً وخطباء وأئمة يقومون بإرشاد العامة وتوجيههم في أمور دينهم ودنياهم. أو مفتين وقضاة ونحوهم.

وبذلك برز عدد من الأعلام الأزديين في فنون علمية مختلفة بلغوا من العلم غاية بعيدة، وطبقت شهرتهم الأفق، كما برزت بيوت من الأزد توارث أبناؤها العلم أباً عن جد. مثل أسرة بني أصبغ التي برز منها عدد من العلماء توارثوا العلم كابرا عن كابر، فكان منهم: محمد بن محمد بن أصبغ الأزدي (ت٤٧٧هـ)[١] الذي تولى الصلاة بجامع قرطبة. وكان «رجلاً فاضلاً، ديناً متواضعاً، مجوداً للقرآن، كثير العناية بسماع العلم من الشيوخ والاختلاف إليهم» كما وصفه ابن بشكوال[٢]. ولا شك أن توليه أمر الصلاة بجامع قرطبة يدل على علو منزلته في العلم ومكانته بين علماء عصره.

ثم أخذ العلم عنه ابنه أبو القاسم أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي (ت ٥٠٥هـ) الذي برز في العلم حتى أصبح «كبير المفتين بقرطبة»[٣] والذي عُدَّ من جلة العلماء، وكبار الفقهاء في عصره[٤]. وقد أهله علمه ومنزلته لتولي عدد من المناصب والمهام حيث كان «مقدماً في

(١) الصلة، جـ٢، ص ٥٢٤-٥٢٥.

(٢) المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٢٤.

(٣) ابن بشكوال، المصدر نفسه، جـ١، ص ١١٠.

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ ١ص١١٠.

الشورى، عارفاً بالشروط وعللها،... وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة. حدَّث وسمع الناس منه، وناظروا عليه»[١].

ثم برز من هذه الأسرة ابنه أبو عبدالله محمد بن أصبغ بن محمد الأزدي (ت٥٣٦هـ)[٢] الذي بلغ من علمه ومكانته أن تولى «قضاء الجماعة بقرطبة»[٣] وهي مرتبة عالية وكبيرة لا ينالها إلا من كان على قدر كبير من العلم والعدالة والتمكن، فضلاً عن مدى صلته بالحاكم[٤].

كما تولى أبو عبدالله صلاة الفريضة بجامع قرطبة[٥]. وكان من «أهل الفضل الكامل والدين والتصاون، والعفاف، والعقل الجيد مع الوقار والسمت الحسن.. كثير المعروف والخيرات، مشاركاً بجاهه وماله، كثير البر بالناس»[٦]. وأضاف ابن بشكوال[٧] في صفات أبي عبدالله الأزدي أنه « خاتمة الأعيان بحضرتها – أي قرطبة -.. عديم النظير في وقته» وكفى بهذا الوصف دليلاً على المنزلة العلمية والمكانة الاجتماعية التي كسبها هذا القاضي الأزدي وأسرته.

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ١١٠.

(٢) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٥٤.

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، صن ٥٥٤.

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه جـ٢، ص ٥٥٤.

(٥) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٥٥.

(٦) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٥٥.

(٧) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٥٥.

وكان من هذه الأسرة «أبو بكر عباس بن أصبغ» الذي كان من المشايخ الذين جلسوا للتدريس والرواية في قرطبة وكان من تلاميذه الحافظ ابن الفرضي[1].

ومن الأسر الأزدية العلمية في الأندلس – كما ذكر ابن بشكوال – أسرة ابن الفرضي حيث برز منهم العالم النحرير المشهور أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، الحافظ المعروف بابن الفرضي (٣٥١ – ٤٠٣هـ) حيث كان من أكابر علماء الأندلس ومحدثيها ومؤلفيها[2]. درس على يدي علماء قرطبة، ثم رحل إلى المشرق عام ٣٨٢هـ حيث حج، وأخذ عن علماء مكة ومصر و القيروان، ثم عاد إلى بلده الأندلس حاملا علما غزيرا، أضحى به من أكبر علماء الأندلس، وألف عددا من الكتب التي سرت بذكره في العالم الإسلامي عامة ومن أبرزها " تاريخ علماء الأندلس" و " المؤتلف والمختلف في أسماء الرجال، و " أخبار شعراء الأندلس " و ومشتبه النسبة " وغيرها.[3]

وقد ورث العلم عنه ابنه مصعب بن عبدالله بن محمد الأزدي حيث طلب العلم على يد أبيه وغيره من علماء الأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق

(١) ابن بشكوال: الصلة جـ١، ص ٢٤٦.

(٢) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦. الحميدي: جذوة المقتبس تحقيق: إبراهيم الأبياري، ق١، ط٢، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٣٩٦، ٣٩٧.

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق: مأمون محي الدين الجنان، ط١، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م،ص٢٣٣- ٢٣٤.

فأخذ عن جماعة من علمائه واستجازهم [١]، ثم عاد إلى الأندلس وتولى الحكم في الجزيرة الخضراء، وكان «أديباً ومحدثاً وإخبارياً وشاعراً..» [٢].

ومن الأسر الأزدية التي توارث أبناؤها العلم في الأندلس أسرة خلف بن عبدالله بن مُدير الأزدي الذي كان من رواة الأندلس ومحدثيها[٣] وقد ورث العلم عنه ابنه عبدالعزيز بن خلف الأزدي (ت ٥٥٤هـ) [٤] الذي كان «من أهل المعرفة والعلم، والذكاء والفهم، أخذ الناس عنه»[٥].

إلى غير من ذكر من الأسر والبيوتات الأزدية التي أسهم أبناؤها بجهد بارز في الحركة العلمية بالأندلس، وأصبحت تلك الأسر موضع تقدير واحترام من الخاصة والعامة لاهتمامها بالعلم والدرس، ودورها في رفد الحركة العلمية تدريساً وتأليفاً كما سوف يتضح في ثنايا هذا البحث، بإذن الله تعالى.

الرحلة في طلب العلم:

مثلت الرحلة لطلب العلم أهمية قصوى لدى طلاب العلم الأندلسيين بصفة عامة، وعدت الرحلة من أهم وأشهر وسائل تلقي العلم، وتبادل صنوف المعرفة، وكانت منزلة العالم تزيد وترتفع

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢ص٥٩٣.

(٢) الحميدي: المصدر نفسه، ق ٢، ص ٥٦٤.

(٣) ابن بشكوال، المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٤) ابن بشكوال، الصلة، جـ١، ص ٣٥٦.

(٥) ابن بشكوال، المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٥٦.

بارتحاله لطلب العلم، ويزداد عدد المتحلقين في درسه، بل ويدنو من الحاكم، وتكون الرحلة طريقاً لتسنمه المناصب العالية في البلاد، وتوليه الخطط الرئيسة في الدولة عامة وبلدته خاصة[1].

ولذا حرص معظم طلاب العلم من الأندلسيين على الارتحال من الأندلس إلى خارجها - وخاصة إلى المشرق الإسلامي – لطلب العلم، والأخذ عن علمائه المشهورين في فنون العلوم المختلفة، وكانوا يحرصون على النهل من علمهم، والحصول على إجازاتهم العلمية. ومن ثمَّ يعودون إلى الأندلس محملين بما وعته صدورهم من تلك العلوم والمعارف. وما حوته مدوناتهم، أو حملته وسائل نقلهم من ألوان التصانيف، والتآليف من علماء المشرق على امتداده حيثما وصلت بهؤلاء الأندلسيين الرحلة[2].

وعلى هذا سار طلاب العلم من الأزديين في الأندلس فحرص الكثير منهم على الارتحال إلى المشرق الإسلامي فطوفوا ببلدانه بداءً بمصر ووصولاً إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ومنهم من امتدت رحلته إلى العراق وما وراءها، وبلاد الشام وغيرها، فزاحموا في حلق العلماء بتلك الديار. ولقد ذكر ابن بشكوال عدداً من الأزديين

(١) عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ٩١-٩٥.

(٢) عواطف محمد نواب: المرجع نفسه، ص ٧٦-٧٨.

الراحلين إلى المشرق في طلب العلم ومنهم:

خلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزدي المعروف بابن المنفوخ من أهل قرطبة. حيث قال عنه «له رحلة إلى المشرق»[١] ولم يبن لنا تاريخ هذه الرحلة، ولا المواضع التي زارها في رحلته غير أنه يفهم أن هذه الرحلة كانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري حيث أن وفاة هذا العالم كانت بعد سنة (٤٠٣هـ) كما ذكر ابن بشكوال[٢]. وهذا يعني أنه قد ارتحل ربما في أواخر القرن الرابع الهجري. أما الأماكن التي وصل إليها فلعله وصل إلى مكة المكرمة، حيث كانت المقصد الأول لجميع المرتحلين في طلب العلم، وذلك لأداء مناسك الحج، ولما يتوافر بها من العلماء من جميع أقطار العالم الإسلامي، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه قد مر بمصر ولعله أخذ عن علمائها، وكذلك علماء القيروان وفاس وغيرها من بلدان المغرب.

ويشير ابن بشكوال في ترجمته لهذا العلم أنه «كان مشاوراً في أشبيلية»[٣] ولا شك أنه لن يبلغ ذلك إلا بما حازه من علم ومعرفة أهلته لأن يكون من المشاورين في مدينته، بل عده الحميدي[٤] من «فقهاء اشبيلية وعبادها». ولعل

(١) ابن بشكوال، الصلة، جـ١، ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٦٢.. وهذه الفترة الزمنية توافق فترة نفوذ بني عامر وسيطرتهم على أمور الحكم في الأندلس باسم الخليفة الأموي هشام المؤيد، وهي فترة علمية مزدهرة خاصة إبان حكم المنصور محمد بن أبي عامر وابنه عبدالملك بن أبي عامر. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢ص٣.

(٣) الصلة، جـ١، ص ١٦٢.

(٤) جذوة المقتبس، جـ١ص٣٢٣.

رحلته إلى المشرق كانت العامل الأبرز في تحقق ذلك له[١].

كما يشير ابن بشكوال في ترجمة هذا العلم أنه بعد عودته من المشرق «تنسك وتقشف»[٢] وهذا يوحي أنه كان لرحلته إلى المشرق دور في هذا، فلعله التقى هناك ببعض علماء الصوفية وتأثر بهم فجنح إلى التنسك.

ومن الأزديين الراحلين إلى المشرق: الحافظ عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي المعروف بابن الفرضي صاحب كتاب «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» وهو علم معروف رحل إلى المشرق سنة ٣٨٢هـ، فدخل القيروان[٣]، وأخذ عن علمائها، ومنهم أبو محمد بن أبي زيد الفقيه[٤] وأبو جعفر أحمد بن دحمون[٥] وغيرهم ثم وصل إلى

(١) مما يدل على غزارة علمه ومكانته أن من طلابه ابن عبدالبر العلم المشهور الذي أخذ عنه وأثنى عليه كما قال ابن بشكوال، (الصلة، جـ١، ص ١٦٢).

(٢) الصلة، جـ١، ص ١٦٢.

(٣) القيروان: أول عاصمة للوجود الإسلامي في أفريقية، بناها القائد عقبة بن نافع الفهري، وتبعد عن مدينة توسن حوالي ١٩٢كم. وقد أصبحت موطناً للعلم والعلماء، ومقصداً لطلاب العلم. انظر: الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٠-٤١، محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط١، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ص ٧١-٨٣.

(٤) أبو محمد عبدالله بن أبي زيد إمام المالكية في وقته، كان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، يجيد الشعر ويقوله، حاز رئاسة الدين والدنيا في عهده، وإليه كانت الرحلة من الأقطار، وملأت البلاد توالفه حتى عرف بمالك الصغير، قيل اجتمع فيه العلم والورع والفضل والعقل. توفي سنة ٣٨٦هـ. (انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٧، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ١٠-١٣.

(٥) لم أجد له ترجمة فيما اطلعت عليه.

مصر وأخذ عن أبرز علمائها ومنهم: أبو بكر أحمد بن محمد بن اسماعيل البناّء[1]، وغيره من علماء مصر في حينه.

ثم ارتحل إلى مكة المكرمة فحج وأخذ عن علمائها في حينه ومنهم أبو يعقوب يوسف بن أحمد بن الدخيل المكي[2]،

وأبو الحسن علي بن عبدالله بن جهظم[3]. وغيرهم. ثم عاد بعد رحلة حافلة بفنون العلم التي حصلها على أيدي علماء المشرق حيث «جمع علماً كثيراً في فنون العلم»[4] وبدأ رحلة جديدة في التأليف

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن إسماعيل البناء يعرف بابن المهندس من علماء مصر المشهورين. رحل إلى مكة وسمع من علمائها. كان ثقة خيراً تقياً. توفي سنة ٣٨٥هـ. انظر: الذهبي: المصدر السابق، جـ١٦، تحقيق: أكرم البوسني، ص ٤٦٢.

(٢) يوسف بن أحمد بن يوسف الصيدلاني المكي، توفي في سنة ٣٨٨هـ بمكة المكرمة. انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٢٧، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٣١٠.

انظر: الفاسي: محمد بن أحمد بن علي الحسني: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، نشر: محمد سرور الصبان، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، (د.ت) جـ٧، ص ٤٨٢.النجم: عمر بن فهد: اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم: فهيم شلتوت، مكة، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، جـ٢، ص ٤٢٦، (وقد ورد لديه باسم «ابن الرحيل» بدلاً من «ابن الدخيل».

(٣) علي بن عبدالله بن الحسن بن جهظم الهمداني، شيخ الصوفية بالحرم. مصنف «بهجة الأسرار» توفي سنة ٤١٤هـ. (انظر: الذهبي، المصدر السابق، جـ١٧، ص ٢٧٥-٢٧٦).

(٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

والتدريس والإقراء فاق بها علماء عصره.

وكان لتلك الرحلة العلمية أثرها الكبير في تكوين شخصيته العلمية إذ «جمع فيها أكثر ما جمعه أحد من عظماء البلد»[1]، وجالس فيها عدداً كبيراً من علماء المشرق الإسلامي الكبار من المحدثين والفقهاء والرواة وغيرهم لذا كان ابن الفرضي «فقيهاً عالماً في جميع فنون العلم في الحديث وعلم الرجال...» [2] وأصبح من كبار مؤلفي الأندلس وعلمائها البارزين حتى قيل «لم ير مثله بقرطبة من سعة الرواية وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتنان في العلوم إلى الأدب البارع والفصاحة المطبوعة»[3]، وكان –رحمه الله- من قضاتها المشهورين، حيث تولى القضاء في بلسنية في دولة محمد المهدي المرواني (٣٩٩-٤٠٠هـ)[4]. وكان ذلك بعد رجوعه من رحلته إلى المشرق الإسلامي.

وممن رحل إلى المشرق من الأزديين عبدالله بن سعيد الأزدي من أهل أستجة حيث طلب العلم هناك على أيدي العلماء الذين التقى بهم

(١) ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٢٤٨. وانظر ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، جـ٢، تحقيق إحسان عباس، ط١، بيروت، ١٩٨١م، ص٥٠.

في رحلته هذه ومنهم عطية بن سعيد[١] وغيره.

ثم عاد إلى الأندلس فحدث بها وجلس للتدريس والتعليم[٢]. ولم يبين المؤلف رحلة هذا الأزدي متى كانت وإلى أين انتهت، غير أن الذي يمكن القول به أن هذه الرحلة كانت في نهاية القرن الرابع الهجري أو في مطلع الخامس الهجري حيث ذكر أنه درس على عطية بن سعيد المتوفى في مطلع القرن الخامس الهجري[٣].

وكما كانت رحلات أغلب الأندلسيين تتجه إلى الحرمين الشريفين فلعل رحلة أبي محمد قد وصلت إلى مكة المكرمة في أدنى الأوجه. يستفاد هذا من تتلمذه على عطية بن سعيد الذي استقر في آخر عمره بمكة ودرس بها[٤].

وبعد عودته إلى الأندلس جلس للتعليم والدرس في مدينة أستجة فأخذ عنه طلاب العلم وكان من أبرز تلاميذه القاضي يونس بن عبدالله[٥].

---

(١) عطية بن سعيد بن عبدالله أصله أندلسي، رحل إلى المشرق في طلب العلم حتى برز فيه ووصل في رحلته إلى بلاد ما وراء النهر ثم عاد إلى مكة وقد درس بمصر وبمكة وببغداد ونيسابور وغيرها، وكان يميل إلى التصوف، وكان يقرأ عليه صحيح البخاري بمكة المكرمة حيث استقر في آخر عمره وبها مات سنة ثمان أو تسع وأربعمائة للهجرة. (انظر: ابن بشكوال: الصلة، ص ٢٥٣.الحميدي: جذوة المقتبس، ق٢، ص ٥٠٨-٥١١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٧، ص٢١٢-٤١٤).

(٢) ابن بشكوال: المصدر نفسه جـ١، ص ٢٥٣.

(٣) الذهبي: المصدر نفسه،جـ ١٧ص٤١٢.

(٤) الحميدي: المصدر نفسه، ق٢، ص٥٠٨.

(٥) القاضي يونس بن عبدالله بن محمد بن مغيث أبو الوليد يعرف بابن الصفَّار ولي القضاء في عدة

ومن أشهر من رحل من أزد الأندلس وامتدت رحلته حتى بلغ أقاصي العراق محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي. وكان – رحمه الله- من أهل جزيرة ميورقة فيما أصله من ربض الرصافة في قرطبة كان قد طلب العلم في الأندلس على يد كبار علمائها مثل أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري[1]، ولازمه فترة طويلة وأكثر النقل عنه، وكذلك أخذ عن أبي العباس العذري[2]، وعن أبي عمر بن عبدالبر[3]. ورغم غزارة ما أخذه عن هؤلاء العلماء الكبار في

=

مدن أندلسية في زمن بني أمية، كما ولي خطة الرد بقرطبة، ثم ولاه المعقد قضاء قرطبة، كان من العباد الزاهدين ميالاً إلى التصوف في العبادة، ألف العديد من الكتب في التفسير والاعتقاد، والرقائق والأخبار والتراجم توفي في شهر رجب من سنة ٤٢٩هـ. (انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنات. ط١، بيروت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ٤٤٤).

(١) أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، أبرز مذهب الظاهرية، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، تولى عدد من الولايات لبني أمية في زمن الفتنة، ثم ترك المهام الإدارية واتجه إلى التأليف والتدريس له عدد كبير من المؤلفات من أشهرها: «جمهرة أنساب العرب، والرسائل» وغيرها قيل أنها فاقت ٤٠٠ مجلد. (انظر ترجمة مطولة له في مقدمة كتاب جمهرة أنساب العرب وضعها لجنة من العلماء بإشراف محمد علي بيضون).

(٢) أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري الأندلسي الدلائي من قرى المرية الإمام الحافظ المحدث، رحل مع والده وهو حدث إلى مكة وجاور بها ثمانية أعوام. ألف كتاب «دلائل النبوة» وكتاب المسالك والممالك» وغيرها. توفي عام ٤٧٨هـ(انظر: الذهبي: المصدر السابق جـ١٨، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ص٥٦٧-٥٦٨).

(٣) أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري الأندلس الإمام المجتهد الحافظ

الأندلس فإنه لم يكتف بذلك بل عقد العزم على الرحلة إلى المشرق لاستكمال طلب العلم فغادر الأندلس في سنة ٤٤٨هـ متجهاً إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج حيث حقق الله له ذلك، وبمكة جالس العلماء وطلاب العلم وأخذ عنهم، وكان من أشهر من لقي بمكة العالمة الكبيرة المعروفة بكريمة بالمروزية[١] حيث طلب العلم على يديها وحدث عنها [٢]. وكان في طريقه إلى مكة قد طلب العلم على علماء مصر وأفريقية كثيراً[٣]، وبعد أن فرغ من أداء الحج واصل رحلته إلى بلاد الشام ثم إلى العراق حيث استوطن ببغداد واستقر بها، وبها توفي في عام ٤٨٨هـ[٤].

وقد لقي الحميدي في رحلته هذه عدداً كبيراً من المشائخ والعلماء في افريقية ومصر والشام ومكة المكرمة، حتى إذا وصل إلى العراق قبلة العلم في حينها واستقر بها طاف مجالس علمائها فأخذ عنهم العلم وطارحهم

=

محدث عالم عصره. كان قاضياً ومؤرخاً وفقيهاً ومحدثاً. ولد بقرطبة عام ٣٦٨هـ وطال عمره وعلا سنده وكثر طلابه. توفي سنة ٤٦٣هـ. انظر: الفتح بن حاقان: مطمح الأنفس، تحقيق: محمد علي شوابكة، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٢٩٤-٢٩٦.

- ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٧، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر (د.ت) ص ٦٦-٧٢.

(١) المروزية: عالمة فاضلة تعرف بأم الكرام كريمة المروزية وهي كريمة بنت أحمد بن محمد المرزوية المتوفاة سنة ٤٦٣هـ. كانت عالمة فاضلة مشيدة، ذات فهم ومعرفة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٨،ص ٢٣٣-٢٣٥.

(٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٣٠.

(٣) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٣٠.

(٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٣١.

مسائلة وثنى الركب في مجالس كبار علمائها مثل أبي بكر الخطيب[١]، وأي نصر بن ماكولا[٢]، وغيرهم من علماء بغداد الكبار الذين شهدوا بدورهم للحميدي بالعلم والفهم والفضل والتيقظ [٣]. وفي بغداد شغل الحميدي إلى جانب التدريس بالكتابة التأليف كما سيأتي بيانه.

وأختم الحديث عن رحلات الأزديين إلى المشرف لطلب العلم بالحديث عن رحلة علم آخر من أزديي الأندلس ألا وهو طاهر بن هشام بن طاهر الأزدي الذي رحل إلى المشرق حاجاً وطالباً للعلم.

بعد أن درس في الأندلس على أيدي علمائها الكبار من أمثال الفقيه المحدث القاضي المهلب بن أبي صفرة [٤]وغيره[١]، وفي طريقه إلى

(١) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الإمام العلامة المفتي، المحدث، ولد سنة ٣٩٢هـ. له عدد كبير من المؤلفات من أشهرها «تاريخ بغداد» الذي قيل أنه يزيد على مائة وستة أجزاء. إلى غيره من المصنفات العظيمة، توفي سنة ٤٦٣هـ. (انظر: الذهبي، المصدر السابق، جـ١٨، ص ٢٧٠-٢٩٧).

(٢) علي بن هبة الله بن علي بن جعفر المعروف بابن ماكولا. ولد سنة ٤٢٢هـ، له عدد من المصنفات من أشهرها«الإكمال في مشتبه النسبة» ومستمر الأوهام وغيرها. قتله مماليكه في أثناء سفره من بغداد إلى كرمان سنة ٤٧٥هـ. (انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣ تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٠م، ص ٣٠٥-٣٠٦. الذهبي: المصدر السابق، جـ١٨،ص ٥٦٩ – ٥٧٨.

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٣٠. قال عنه ابن ماكولا: «لم أر مثله في عفته، ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم»انظر: ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٣٠.

(٤) أبو القاسم المهلب بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة التميمي من أهل العلم الراسخين في الفقه والحديث وغيرها، ولي قضاء مالقة وكان قد اشتهر بتدريس الحديث في الأندلس وخاصة كتاب البخاري حتى قيل «به حيي كتاب البخاري في الأندلس» توفي سنة ٤٣٣هـ.

المشرق أخذ عن عالم القيروان الشهير أبي عمران الفاسي[٢]. وفي مكة أخذ العلم عن أشهر علمائها ومنهم شيخ الحرم أبي ذر الهروي[٣].

وحين عاد طاهر الأزدي إلى الأندلس كان قد حصل نصيباً وافر من

=

انظر: ابن فرحون: المصدر السابق، ص ٤٢٧.

(١) ذكر ابن بشكوال أنه أخذ عن أبي بكر المطوِّعي ويبدو أن هذا وهم من ابن بشكوال حيث أن المطوعي وهو (أحمد بن الفضل بن العباس الدينوري) دخل الأندلس قبل عام ٣٥٠هـ. ذكر ابن الفرضي أن وفاته كانت في سنة ٣٤٩هـ وسنة ٨٢ سنة(ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم.. جـ١، ص ٧٥-٧٦) ومعنى هذا أنه توفي قبل ولادة طاهر بن هشام الأزدي هذا بأكثر من أربعين سنة حيث توفي طاهر في سنة ٤٧٧هـ وعمره ستة وثمانون سنة أي أن ولادته كانت في حدود سنة ٣٩١هـ.

انظر: ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٢٣٥، الحميدي: المصدر السابق جـ١، ص٢١٨-٢١٩.

(٢) أبو عمران الفاسي: موسى بن عيسى بن أبي حاج القرشي المعروف بأبي عمران الفاسي، ولد في فاس سنة ٣٥٦هـ. ورحل إلى قرطبة ثم إلى القيروان فمكة وأخذ عن علمائها ووصل إلى بغداد وسمع بها، ثم رجع إلى القيروان فاستقر بها يؤلف ويدرس ويعلم. وقد ارتبط اسمه بنشأة دولة المرابطين حيث قصده يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم المرابطين الأول وطلب منه أن يدله على عالم يدرس قومه تعاليم الإسلام فأشار عليه بعبدالله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين. توفي في رمضان عام ٤٣٠هـ/١٠٣٩م. انظر: (الحميدي: المصدر نفسه، ق٢، ص٥٣٧-٥٣٨، ابن فرحون: المصدر نفسه، ص ٤٢٢-٤٢٣).

(٣) أبو ذر الهروي: عيد بن أحمد بن محمد المعروف بابن السمَّاك الأنصاري، ولد سنة ٣٥٥هـ أو ٣٥٦هـ. شيخ الحرم، وصاحب التصانيف الكثيرة، توفي سنة ٤٣٤هـ. (انظر: الذهبي: المصدر نفسه، جـ١٧، ص٥٥٤-٥٦٣).

العلم أهله لتولي الفتيا في المرية[1].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أنه كان للأزديين حضور واضح في الرحلة العلمية، وأن تلك الرحلات قد امتدت إلى محاضن العلم ومراكزه البارزة في المشرق الإسلامي بدءاً بمكة المكرمة ووصولاً إلى بغداد ودمشق مروراً بأفريقية ومصر، تلك المراكز المشعة بالعلم المليئة بحلق العلماء ومجالسهم، وحظى الأزديون الراحلون لطلب العلم بالتتلمذ على أيدي نخبة بارزة من علماء المشرق الإسلامي حسب عصر الرحلة وزمنها، وكان لأولئك الراحلون أثر واضح في الحركة العلمية في الأندلس بعد عودتهم بما قدموه من مؤلفات وما ساهموا به من حلقات تعليم وتدريس، وما اضطلعوا به من مهام القضاء والفتيا وغيرها مما سيأتي بيانه.

- **دور الأزديين في التصنيف «التأليف»:**

من خلال استعراض تراجم الأزديين لدى ابن بشكوال يتضح أن عدداً منهم أمد المكتبة الأندلسية بعدد من التصانيف الموثقة في فنون مختلفة، وإن كان غلب عليها الطابع الشرعي والأدبي، نتيجة لسيادة هذه العلوم في عصرهم، وتحصيل لما تلقوه على أيدي العلماء والأدباء الذين تتلمذوا على أيديهم في الأندلس أو في المشرق الإسلامي. وكان

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٣٥.

لبعض تلك المؤلفات أثرها ودورها الواضح في رفد الحركة العلمية في الأندلس، حيث أقبل عليها طلاب العلم درساً وتدريساً.

ويقف على رأس قائمة المؤلفين الأزديين المترجم لهم في الصلة العلم الشهير عبدالله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي الذي أمد طلاب العلم في الأندلس وغيرها بعدد من المؤلفات، أبرزها مؤلفه «تاريخ علماء الأندلس»[1] والذي نشر بعنوان «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس»[2] وقد خصصه للحديث عن تاريخ العلماء، والرواة للعلم، والأدباء، والشعراء، وذوي النباهة من أهل الأندلس[3] ويُعد هذا المؤلف من أقدم كتب التراجم في الأندلس ومن أوثقها حيث وصف مؤلفه بأنه: «حافظاً، متقناً عالماً، ذا حظ من الأدب وافر»[4]. ووصفه ابن عبد البر[5] بأنه: «فقيهاً عالماً في جميع فنون العلم...». بل اعتبره

(١) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ٢٤٦.

(٢) عني بنشره وصححه ووافق على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، ط٢، ١٤٠٨هـ. وقد نشر أول مرة ضمن مجموعة المكتبة الأندلسية في مدينة مدريد عام ١٨٩٠م، ١٩٨٨م ، نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٣) السيد عزت العطار: مقدمة المصحح، ط٢، ص ٣.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس، ق٢، ص ٥٤٠، الضبي: بغية الملتمس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، جـ٢، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ٤٣٣.

(٥) انظر: الصلة جـ١، ص ٢٤٦.

البعض أقدم معجم لتراجم الرجال في الأندلس[١].

وقد اعتمد كثير ممن ألف في التراجم الأندلسيين بعد ابن الفرضي على هذا المصدر بشكل كبير. ونقلوا عنه الكثير [٢]. وقد وصف ابن بشكوال[٣] هذا الكتاب بقوله: «بلغ فيه النهاية والغاية من الحفل والاتقان». ووصلة بكتابه الصلة.

وبما أن ابن الفرضي الأزدي كان شاعراً وأديباً بارعاً[٤] فقد أهله هذا لأن يؤلف في هذا الفن «كتاباً حفيلاً في أخبار شعراء الأندلس» خصصه لتراجم من غلب عليه الشعر والأدب في الأندلس[٥].

كما ألف كتاباً في «المؤتلف والمختلف» وصفه ابن بشكوال[٦] بأنه «كتاباً حسناً». ووصفه ابن حزم[٧] بقوله « لا أعلم مثله في فنه البتة».

(١) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٢٧١.

(٢) مثل الحميدي في جذوة المقتبس، والضبي في بغية الملتمس وابن بشكوال في الصلة ومن المشارقة الذهبي في سير أعلام النبلاء وغيرهم. (انظر: حمد السحيباني: مصادر الحافظ ابن الفرضي في كتابه تاريخ العلماء والرواة، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٢/ العدد ١٩ شعبان، ١٤٢٠، ص ١-٢).

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١،ص ٢٤٦.

(٤) ابن فرحون: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٥) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٤٦.

(٦) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٤٦.

(٧) رسائل ابن حزم، ج٢، ص ١٨٠.

وله مؤلف آخر في «مشتبه النسبة»[١]. ولم يعرف محتواه بشكل صريح وواضح[٢].

ولقد بلغ ابن الفرضي الأزدي مكانة رفيعة في العلم بين طلاب الأندلس، وأصبح من كبار علمائها ومحدثيها حتى وصفه ابن حيان[٣] بقوله: «لم ير مثله بقرطبة في سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتنان في العلوم والأدب البارع».حيث أفاد منه طلاب العلم في الأندلس وكثر المتحلقون في مجالس درسه، والناهلون من مؤلفاته.

وممن اشتغل بالتأليف في الأندلس من الأزديين خلف بن عبدالله بن سعيد بن مُدير الأزدي المتوفى سنة ٤٩٥هـ. حيث قال عنه ابن بشكوال [٤]: «كان ثقة فميا رواه، ضابطاً لما كتبه، حسن الخط، كثير الجمع والتقييد وكتب علماً كثيراً بخطه ورواه». ولم يبين ابن بشكوال تحديداً مسميات تلك التآليف والكتب التي ذكر أن ابن مدير قد كتبها. غير أنه أكد أثناء ترجمته لعبيد بن علي الأزدي أنه استفاد تلك الترجمة من ابن مُدير فقال: «ذكره ابن مُدير.»[٥] وأثناء ترجمته لطاهر بن هشام

(١) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٤٦. وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٧، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) انظر: السحيباني، المرجع السابق، ص ٤.

(٣) المقتبس.. نقلاً عن الذهبي: المصدر السابق، جـ١٧، ص ١٧٩.

(٤) المصدر نفسه، جـ ١، ص ١٧٠.

(٥) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٢١.

قال: «وقال ابن مُدير توفي سنة...»[١].

ومن خلال تتبع العلماء الذين تتلمذ على أيديهم خلف به مُدير[٢] يتضح أن الغالب عليهم العلوم الشرعية مما يوحي أن كتبه كانت في هذا المجال تحديداً، يؤيد ذلك أنه كان يقرىء الناس بقرطبة حينما سكنها[٣] وكان خطيباً بالمسجد الجامع بقرطبة[٤].

ويأتي الحميدي: محمد بن أبي نصر بن فتوح الأزدي المتوفى عام (٤٨٨هـ) ضمن أبرز المؤلفين من الأزديين الذين ترجم لهم ابن بشكوال في ترجمة مستفيضة قياساً بغيره من المترجم لهم في الكتاب. حيث أحرز الحميدي من خلال رحلاته العلمية – المشار إليها سابقاً – علماً جماً ترجمه في مؤلفات علمية جليلة أصبحت منهلاً لطلاب العلم. ومن أشهر مؤلفاته التي ذكرها ابن بشكوال كتاب في علم الحديث «جمع فيه بين صحيحي البخاري ومسلم»[٥] وسماه «الجمع بين الصحيحين»[٦]. وقد أخذه عنه طلاب العلم في بغداد وغيرها، وانتفع الناس به كثيراً[٧].

(١) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٥.

(٢) وكان من أبرزهم أبو عمر بن عبدالبر، وأبو العباس العذري، وأبو الوليد الباجي.. وغيرهم.

(٣) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١،ص ١٧.

(٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٠.

(٥) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢،ص ٥٣٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء: جـ١٩، ص ١٢١.

(٧) الذهبي: المصدر السابق، جـ١٩، ص ١٢١.

وقد بلغ من ولعه بالعلم والدرس وتعلقه بنسخ ما يقع في يديه من الكتب أن كان: «ينسخ بالليل في الحرِّ، فكان يجلس في إجَّانة[١] قس ماء يتبرد فيه[٢]». كما ذكر ابن بشكوال[٣] أن له مؤلفاً آخر سماه «كتاب علماء الأندلس»[٤] ونقل عنه ابن بشكوال الكثير من تراجمه، وبما أن الحميدي كان من المتضلعين في عدد من العلوم والمعارف حيث «جمع بين الفقه والحديث والأدب...»[٥] فقد كان له عدد من التآليف الأخرى[٦] التي أمد بها المكتبة الإسلامية في فنون مختلفة من العلوم

(١) الإجانة: بالتشديد: إناء تغسل فيه الثياب. انظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ط٢، القاهرة، ١٣٩٢هـ /١٩٧٢م، ص ٧.

(٢) الذهبي: المصدر السابق، جـ١٩،ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٣٠.

(٤) وقد ورد هذا المؤلف بعدة مسميات مثل «تاريخ الأندلس»، الذهبي، المصدر السابق جـ١٩،ص١٢٣. و«جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس» (المقري: نفح الطيب، جـ٢، ص٣١٨ و«جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس»: الضبي: بغية الملتمس، جـ١، ص ١٦١).وطبع ونشر باسم «جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس» بتحقيق محمد الأنباري، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٥) الذهبي: المصدر السابق، جـ١٩، ص١٢٣.

(٦) من المؤلفات التي ذكرت للحميدي ولم يوردها ابن بشكوال ما يلي:
كتاب "جمل تاريخ الإسلام "، وكتاب «الذهب المسبوك في وعظ الملوك» وكتاب «الترسل» وقيل اسمه «تسهيل السبيل إلى علم الترسيل» وكتاب «مخاطبات الأصدقاء» وكتاب «الجار» ويسمى «ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار»، وكتاب «ذم النميمة» انظر: (الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، ص ١٢٣).

والمعارف. وقد وقف كتبه التي ألفها على أهل العلم عند وفاته[1].

وكان عبدالملك بن إدريس الأزدي المعروف بابن الجزيري المتوفى سنة ٣٩٤هـ من وزراء الدولة العامرية، ومن كتابها المشهورين، وأدبائها المبرزين، كثير الشعر، غزير المادة، معدود في أكابر البلغاء[2]. وله «رسائل وأشعار مروية»[3] ولم يبين لنا ابن بشكوال مواضيع تلك الرسائل غير أنه أشار إلى براعة هذا الأديب الكاتب حيث قال عنه «ولم يخلق مثله كتابة وخطابة وبلاغة وشعراً وفهماً ومعرفة وبه ختم بلغاء كتاب الأندلس»[4] وقال عنه الفتح بن خاقان[5] «علم من أعلام الزمان، وعين من أعيان البيان».

ونختم الحديث عن دور الأزديين في التنصيف والتأليف بذكر علم آخر من أعلام الأزد في الأندلس ألا وهو: علي بن عبدالله بن علي بن

=

وله أيضاً كتاب «من ادعى الأمان من أهل الإيمان». وكتاب «مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء» وكتاب «الأماني الصادقة» وكتاب «الأشعار الحسان في المواعظ والأمثال» انظر: المقرى: نفح الطيب، جـ٢، تحقيق: يوسف البقاعي، ط١، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٣١٨-٣١٩.

(١) المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ٣٢٠.

(٢) الحميدي: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ٣٣٩.

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤٠.

(٥) مطمح الأنفس ومسرح التأنس، ص ١٧٧.

محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الأستجى[1]، الذي وصفه ابن بشكوال[2] بقوله: «كان نافذاً في العلوم، قديم العناية بطلب العلم، شاعراً مطبوعاً، بليغ اللسان والقلم، حسن الخط صحيح النقل» وقد برع في التأليف والكتابة حتى قال عنه ابن بشكوال[3]: «ألف كتباً كثيرة في غير ما فن» وهذا ينص على غزارة انتاجه، وكثرة تأليفه. ولا غرو في ذلك فإن ما وصف به أعلاه يدل على تبحره في العلوم والمعارف خاصة في علوم العربية وآدابها فضلاً عن علوم الشريعة. وقد فقدت تلك المؤلفات الكثيرة التي أبدعها يراع هذا الأزدي العالم، ولم يصلنا منها شيء[4]. غير أنه يمكننا القول أن طلاب العلم المعاصرين لابن الاستجى والقريبين من عهده قد أفادوا منها.

ولا شك أن هؤلاء المؤلفين من الأزديين الذين ذكرهم ابن بشكوال وتلك المؤلفات التي أشار إليها سواءً بأسمائها مباشرة أو بالإشارة إليها ما هي إلا غيض من فيض مما أسهم به الأزديون في الحركة العلمية في الأندلس. والتي نهل منها طلاب العلم في الأندلس من خلال حلقات

(١) انظر عنه: الحميدي: المصدر السابق، ق٢، ص ٤٩٧.

(٢) الصلة، جـ٢، ص ٣٩٤.

(٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٩٤.

(٤) لقد جهدت في البحث عن هذه المؤلفات ومسمياتها وموضوعاتها في كل كتب التراجم التي الطعت عليها فلم أجد لهذه المؤلفات ذكر مما يوحي بأن فقدها كان قديماً. كما حصل لكثير من المؤلفات غيرها.

العلم التي تدرس فيها تلك المؤلفات، كما اعتمد عليها كثير من المؤلفين الذين جاءوا من بعدهم.

دور الأزديين في « التعليم والتدريس»

اضطلع عدد من الأزديين بدور رائد في حركة التعليم في الأندلس، وقد أشار المؤلف في درج ترجمته لعدد من الشخصيات الأزدية بدور أولئك الأعلام في التدريس والتعليم، سواءً في المساجد، أو حلقات العلم في الكتاتيب ونحوها، أو حتى في منازلهم، متصدرين لتدريس طلاب العلم ما أتقنوه من علوم، وما حصلوه من معارف، يردون عليهم ما حفظوه من مرويات وروايات، ويشرحون أمهات الكتب في مختلف الفنون، وينثرون دُر ما أبدعوه في مؤلفاتهم لمن قصدهم من طلاب العلم.

ولا يكاد علم من الأعلام الأزديين الذين أوردهم المؤلف في كتابه يخلو من إشارة إلى دور أسهم به في التعليم والتدريس والرواية في مدينته التي نشأ بها، أو المدن التي استقر بها. فقد كان عبدالله بن خلف الأزدي (ت ٣٢٧هـ) إماماً لمسجد غالب في قرطبة ويدِّرس في مسجده لطلاب العلم. ولعله إلى جانب تدريس القرآن الكريم كان يدرس الحديث والفقه وكان من أبرز من روى عنه كما ذكر ابن بشكوال الفقيه الحافظ الأندلسي المشهور أبو بكر محمد بن أبيض[1].

(١) الصلة، جـ١، ص ٢٤٢.

وحينما عاد ابن الفرضي من رحلته إلى المشرق برز في العلوم الشرعية بشكل كبير وأصبح مقصد طلاب العلم الذين كان يتكاثرون في حلقته حيث كان فقيهاً وراوية ولغوياً فصيحاً وشاعراً مبدعاً ينثر لطلابه في حلقات درسه مخزونه الرفيع في كل من هذه الفنون التي برع فيها معلماً ومؤلفاً[1].

وكان من أبرز التلاميذ الذين تلقوا العلم على يديه أبو عمر بن عبدالبر الحافظ[2] الذي وصف شيخه ابن الفرضي بقوله: «كان فقيهاً عالماً في جميع فنون العلم في الحديث وعلم الرجال...»[3]. كما كان من تلاميذه أبو عبدالله الخولاني[4] الفقيه الشهير والذي قال عن شيخه ابن الفرضي «كان من أهل العلم، جليلاً ومقدماً في الآداب، نبيلاً مشهوراً بذلك»[5].

أما ابن بشكوال[6] فقد وصف شيخه ابن الفرضي بقوله: «لم ير مثله في قرطبة من سعة الرواية وحفظ الحديث ومعرفة الرجال، والافتتان في العلوم إلى الأدب البارع والفصاحة المطبوعة..». ولقد كان ابن الفرضي يجمع في دروسه بين الفقه والحديث والأدب والسير وينشد طلابه

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، صن ٢٤٦ – ٢٤٧.

(٢) انظر أعلاه ص:

(٣) نقلاً عن ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.

(٤) انظر عنه: ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢ ص ٥٠٧.

(٥) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٧.

(٦) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٨.

بعض أشعاره[١].

وبلغ من علو كعبه في العلم وإقبال الطلاب عليه أن كُلف بقراءة الكتب في عهد بني عامر[٢]، وهذه المهمة التي يصدر بها تكليف مباشر من الحاكم لا يرشح لها إلا من كان له قدم في العلم راسخة، وخبرة في الدرس والتعليم كبيرة، ومكانة مرموقة لدى الحاكم والعلماء – على حدٍ سواء-.

وكان ابنه مصعب بن عبدالله الأزدي «أديباً ومحدثاً وإخبارياً وشاعراً»[٣].

وكان عبدالرحمن بن محمد بن أبي يزيد الأزدي (ت ٤١٠هـ): «رجلاً أديباً حلواً حافظاً للحديث، وأسماء الرجال والأخبار، وله أشعار حسان في كل فن»[٤]. وكان بارعاً في علم الأنساب واشتهر به[٥]. وكان له تلاميذه وطلابه الذين يتحلقون في درسه لسماع هذه العلوم عنه[٦].

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، جـ١، ص ٣٩٦-٣٩٨.

(٢) بنو عامر: ينسبون إلى الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد وقد أصبح الحاكم الفعلي في الأندلس منذ سنة ٣٦٦هـ. وظل الحكم في يد أبنائه من بعده. فخلفه في الحجابة ابنه عبدالملك بن محمد الذي واصل نهج والده في حكم الأندلس مع الاقتصار على لقب الحاجب وترك مسمى الخلافة للخليفة هشام المؤيد ثم خلفه أخوه عبدالرحمن المعروف بشنجول في الحجابة ولكنه طمع في أخذ الخلافة مباشرة من بني أمية مما جعل بقية الأمويين يثورون عليه. حيث قتل في سنة ٤٠٠هـ. وانتهى بذلك دور العامريين. انظر: عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢٣، ص ٥٩٣.

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٣٧

(٥) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٣٧.

(٦) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٣٧.

وكما كان له دروسه وتلاميذه في الأندلس فقد كان له أيضاً تلاميذه ودروسه في مصر التي انتقل إليها عند وقوع الفتنة في قرطبة[١].

وبرع سعيد بن عبدالله بن دُحيم الأزدي (ت ٤٢٩هـ) في علوم اللغة العربية وآدابها بصفة عامة، والنحو بصفة خاصة حيث كان: «إماماً في كتاب سيبويه، ذا حظ وافر من علم اللغة وشروح الأشعار وضروب الآداب والأخبار»[٢] وكان له في إشبيلة أثره ودوره في نشر علوم العربية وتدريس النحو بها[٣].

وفي تاكرنا[٤] برز معوز بن داود الأزدي (ت ٤٣١هـ) كعالم من أبرز أعلام تلك المدينة حيث كان (مفتياً جليلاً، وعابداً مجتهداً، وعالماً يكثر من الحديث...»[٥] حيث تخرج من مجالس حديثه علماء بارزون وتلاميذ نجباء كان من أشهرهم القاضي يونس بن أحمد[٦]، والفقيه أبو عبدالله محمد بن عتاب[٧] وغيرهم.

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأزدي (ت٤٦٢هـ) يلقب

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٣٧.

(٢) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢١٦.

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢١٦.

(٤) تاكرنا: مدينة متوسطة تقع بالقرب من استجة في جنوبي الأندلس (انظر: الحميري، المصدر السابق، ص ١٢٩).

(٥) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٩١.

(٦) سوف يأتي الحديث عنه أدناه.

(٧) انظر عن ترجمته: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٨، ص ٣٢٨..

بالمقرئ. حيث كان ملماً بالقرآن وعلومه، بارزاً في علم القراءات، وقد جلس لتعليم الناس وإقرائهم القراءات في قرطبة[١]، وحينما توفي عالم القراءات بقرطبة أبي القاسم بن عبدالوهاب[٢] حل مكانه في إقراء الناس، وتعليم القراءات إبراهيم بن محمد الأزدي هذا، فكان علماً في ذلك أفاد منه طلاب العلم في قرطبة بشكل كبير [٣]. وكان طاهر بن هشام الأزدي (ت٤٧٧هـ) من شيوخ المرية الكبار ومفتيها، وممن جلس طلاب العلم بها في حلقات درسه في الحديث والمسائل بعد عودته من رحلته إلى المشرق في طلب العلم[٤].

وفي طليلطة و مجريط كان يونس بن أحمد الأزدي (ت٤٧٤هـ) يُدِّرس في الزهد والرقائق إلى جانب الفقه والحديث[٥]. و«له بصر بالمسائل وتصرف في الحديث»[٦] وكان – رحمه الله - «جميل المعاشرة، أحسن الناس خلقاً، وأكثرهم بشاشة» كما وصفه ابن

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٦٢.

(٢) وقد برز هذا العالم في القراءات حتى وصفه ابن بشكوال بقوله: «كان من جُلة المقرئين.. عارفاً بالقراءات وطُرفها حسن الضبط لها، وكانت الرحلة في وقته إليه».
انظر: الصلة: جـ١، ص ٣٦٢،.....

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٩٧.

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٣٥، جـ٢، ص ٦١٩.

(٥) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٦٤٨.

(٦) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٦٤٨.

بشكوال[1].

أما الحميدي (ت ٤٨٨هـ) فقد كان رأساً في علوم الشريعة وخاصة علم الحديث والرجال «حتى قال بعض الأكابر ممن لقي الأئمة: لم تر عيناي مثل أبي عبدالله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله»[2].

وقد جلس لتدريس طلاب العلم من كتابه الذي جمع فيه بين صحيحي البخاري ومسلم « فأخذه الناس عنه»[3] حيث كان «إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة فنونه ورواته، محققاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث»[4].

وبما أن الحميدي كان متبحراً في علوم العربية وآدابها وعلم الرجال والسير والتراجم، وكان أيضاً شاعراً مطبوعاً فلا بد أن طلابه ومريدوه قد نهلوا من علمه الغزير في هذه العلوم والمعارف. وتكاثر الطلاب حوله حتى وصفه الحجاري في المسهب[5] بقوله: «إنه أظهر العلم في طرق ميورقة بعدما كانت عطلاء من هذا الشأن، وترك لها

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٦٤٨.

(٢) المقري: نفح الطيب، جـ٢، ص ٣١٨.

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٣١.

(٤) الغزي: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣١٨.

(٥) نقلاً عن المقري: المصدر نفسه، جـ٢، صن ٣١٩.

فخراً تباري به خواص البلدان».

وحسب الحميدي هذا الوصف من إحياء العلم ونشره وتعليمه للطلاب في ميورقة وغيرها، مما يشف عن الأثر الكبير والدور الرائد الذي أسهم به الحميدي في التعليم فضلاً عن التأليف – كما سبق بيانه أعلاه-.

وممن أخذ طلاب العلم الأندلسيون عنهم في قرطبة والمرية خلف بن عبدالله بن مُدير الأزدي (ت ٤٩٥هـ) حيث كان يدرس الحديث وعلوم القراءات في المسجد الجامع بقرطبة بعد انتقاله إليها من المرية حيث «استوطن – قرطبة- وأقرأ الناس بها، وسمع منه جماعة من أهلها، وكان ثقة فيما رواه،... وكتب علماً كثيراً بخطه ورواه»[١]. وكان من أبرز تلاميذه محمد بن أصبغ قاضي الجماعة بقرطبة[٢].

كما أسهم ابنه عبدالعزيز بن خلف الأزدي (ت ٥٤٤هـ) في التعليم والتدريس بقرطبة حيث «أخذ الناس عنه»[٣] علوم القرآن والحديث التي تلقاها عن والده وكبار علماء الأندلس المعاصرين له.

وكان أصبغ بن محمد «كبير المفتين بقرطبة»[٤] وشيخ المالكية وعالمهم بها[٥] وقد «حدث وسمع الناس منه»[١] ويبدو أن درسه كان

(١) ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ١٧٠.
(٢) سوف يأتي الحديث عنه أدناه.
(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٥٦.
(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ١١٠.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٩،ص ٣١٢.

في جامع قرطبة حيث كان إماماً له، وقد كان من كبار فقهاء المذهب المالكي في عصره، لذلك كان كبير المفتين في قرطبة، ومقدماً في الشورى لدى ولاة الأمر بها، وبلغ من منزلته في العلم، وعلو كعبه فيه أن كانت المناظرات تجري بين يديه في مجلس درسه بقرطبة[٢]. ولا شك أن إجراء المناظرات بين يديه دليل على علو منزلته، وقدرته العلمية الكبيرة في الفصل بين المتناظرين. وقد اضطر في آخر عمره للزوم داره وعدم الخروج إلى طلاب العلم الذين كانوا يتحلقون حوله وذلك بسبب سعاية لحقته[٣]، ونتج عن ذلك: «أن حُرم الناس منفعة علمه»[٤].

وكان ابنه محمد بن أصبغ بن محمد الأزدي قاضي الجماعة بقرطبة (ت ٥٣٦هـ)[٥] قد واصل منهج والده، فجلس للتدريس واسماع الحديث بقرطبة في المسجد الجامع «فأنسى من قبله.. واستمر على ذلك إلى أن توفي»[٦] وكان قد بلغ من العلم درجة عالية أهلته لتولي عدد كبير من المناصب في قرطبة منها قضاء الجماعة. وخطة أحكام

=

(١) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١،ص ١١٠. الذهبي: المصدر السابق، جـ١٩، ص٣١٢.

(٢) ابن بشكوال: المصدر نفسه، جـ١، ص ١١٠.

(٣) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٥٥.

(٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٥٥.

(٥) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٥٥.

(٦) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٥٥.

المظالم، والشورى وغيرها[1]. وتوليته كل هذه المناصب دليل على مكانته العلمية الرفيعة.

أما اسماعيل بن حمزة الأزدي المالقي فقد برع في علم أصول الديانات، وكان ذا عناية واهتمام بالغين بهذا العلم[2] الذي اختص به، وحرص عليه حتى برع وبرز فيه، وأخذ طلاب العلم يتلقونه عنه حتى برز من تلاميذه غانم الأديب وأبو الطرف الشعبي وغيرهم[3].

(١) ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٥٥٥.

(٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ١٠٥.

(٣) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ١، ص ١٠٥.

الخاتمة

ويتبين لنا من خلال النماذج التي سقناها أعلاه الدور الكبير الذي أسهم به الأزديون في رفد الحركة العلمية، ونشر العلم والمعرفة، بجلوسهم للتعليم والتدريس في عدد كبير من مدن الأندلس وحواضرها الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة والمرية ومالقة وغيرها، كما يتضح أن الأزديين أسهموا في مختلف العلوم والمعارف بدءاً بالقرآن الكريم تعليماً وتحفيظاً، وعلم القراءات والتجويد والتفسير، وكذا علوم العربية كالنحو والأدب والبلاغة والشعر، ووصولاً إلى العلوم الاجتماعية كالسير والتواريخ والتراجم، مروراً بعلوم أصول الديانات وما يتعلق بها.

وبما أن المؤلف مدار البحث اهتم بتراجم العلماء الذين أسهموا في خدمة علوم الشريعة والعربية على وجه الخصوص فإنه لم يتعرض لغيرهم ممن كان له دور في باقي مجالات العلوم الأخرى كالعلوم الطبية والتجريبية والفلسفة والمنطق وغيرها.

ولم يكتف الأزديون في رفد ودعم الحركة العلمية في الأندلس بالتأليف والتدريس وإنما أسهموا بدور بارز وظاهر في مجالات أخرى كان لها أثرها – بدون شك- في دعم الحياة العلمية في الأندلس مثل إمامة الصلاة في مساجد وجوامع عدد من المدن الأندلسية. وتولى الخطبة بتلك الجوامع[1].

(١) انظر عن ذلك: ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ١٧٠، ص ٢٤٢، جـ٢، ص ٤٧٤، ص ٥٩٢.

ولا شك أن أولئك الأئمة والخطباء قد اضطلعوا بدور لا يقل أهمية عن سابقيهم في المحافظة على الآداب العامة للمجتمع والحرص على المحافظة على الأخلاق الإسلامية الرفيعة فضلاً عن ما يقدم أولئك الأئمة والخطباء من تثقيف وتعليم للعامة من خلال تلك المواقع التي يتولونها [1].

هذا إلى جانب أولئك الأزديين الذين تولوا مهام الافتاء والقضاء في عدد من مدن الأندلس المختلفة[2].

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر عن ذلك: ابن بشكوال: جـ١، ص ١٦٢، ص ٢٣٥، ص ٢٤٨، جـ٢، ص ٢٢٥، ص٥٥٤، ص٥٩١.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م).

- «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وأدبائهم» نشر وتصحيح عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

البكري: عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ/١١٩٤م).

- «المسالك والممالك» تحقيق: أدريان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.

البلاذري: أبو الحسن البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م).

«فتوح البلدان» بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد (٤٥٦هـ/١٠٦٣م).

- «جمهرة أنساب العرب» بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٨٨م.

- «رسائل ابن حزم» تحقيق: إحساب عباس، ط١، بيروت، ١٩٨١م.

الحميدي: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الأزدي (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م).

«جذوة المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » تحقيق: إبراهيم

الأبياري، ط٢، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت حوالي ٧٢٧هـ/١٣٢٦م).

- «الروض المعطار في خبر الأقطار» تحقيق: إحسان عباس، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

ابن حقول: أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م).

- « صورة الأرض»، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٩م.

ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦هـ/١٩٧٤م).

-«الإحاطة في أخبار غرناطة» تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط٢، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

-«تاريخ ابن خلدون» ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م).

-«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٠م.

ابن خياط: خليفة بن خياط الليتي (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م).

«تاريخ خليفة بن خياط» تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م).

- «تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعيان» تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

-« سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الضبي: أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م).

-« بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس » تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢هـ).

-«تاريخ الأمم والملوك» دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م(.

ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ/١٣١٢م).

-«البيان المغرب في أخبار الأندلس والغرب» تحقيق: ج. س. كولان. وليفي بروفنسال، ط٣، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م.

الفاسي: محمد بن أحمد بن علي الحسني (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م).

«العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» نشر: محمد سرور الصبان، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، (د.ت).

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م).

-«تاريخ أبي الفداء»، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٤م.
- «تقويم البلدان»، بالريس، ١٨٥٠م.
ابن فرحون، إبراهيم نور الدين المالكي (ت ٧٩٩هـ).
-« الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب» تحقيق: مأمون محي الدين الجنَّان، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م).
«تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» نشر وتصحيح: السيد عزت العطار الحسيني، ط٢، مصر، مطبعة المدني، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
«البداية والنهاية»، تحقيق: أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين، ط١، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م).
-« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» تحقيق: يوسف البقاعي، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
النجم: عمر بن فهد (٨٨٥هـ/ م).
- «إتحاف اورى بأخبار أم القرى» تحقيق وتقديم: فهيم شلتوت، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
الوزان: الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الأفريقي.

- « وصف أفريقيا» ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م.

ثانياً: المراجع:

أنيس: إبراهيم أنيس ورفقاه.

- « المعجم الوسيط» ط٢، القاهرة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

بالباس: ليوبولدوتورِّس.

- « المدن الإسبانية الإسلامية» ط١، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

بالنثيا: آنخل جنثالث.

- « تاريخ الفكر الأندلسي» ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، (د.ت).

الحجي: عبدالرحمن علي.

- « التاريخ الأندلسي » ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

زيتون: محمد محمد.

- « القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية»، ط١، القاهرة، دار المنار، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

أبو زيد: سعيد.

- « خيران العامري صاحب مملكة المرية الأندلسية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٨٨م.

السحيباني: حمد بن صالح.

- « مصادر الحافظ ابن الفرضي في كتابه تاريخ العلماء والرواة». مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٢، العدد ١٩، شعبان ١٤٢٠هـ.

السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

- « الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى»، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤م.

الشريف: خالد.

- « مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها»، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

مؤنس: حسين مؤنس.

- « فجر الأندلس» جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

نواب: عواطف محمد يوسف.

- « الرحلات المغربية الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة»، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

الرحلة العلمية وأثرها في التكوين المعرفي، رحلة الإمام الشافعي إلى اليمن ونجران أنموذجًا

المقدمة

تعتبر الرحلة العلمية من أهم مكونات الشخصية العلمية لأي عالم أو طالب علم، ولقد حرص العلماء السابقون على الرحلة في طلب العلم إلى مختلف الجهات، وعدوا ذلك أمراً لازماً، ولم يقعد عن الرحلة في طلب العلم والاستزادة منه إلا من ضاقت به الحال، أو قصرت به الأسباب عن الرحلة، ولقد كان العلماء المشتهرون في مختلف أصقاع العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مقصداً لطلاب العلم، وهدفاً للتلاميذ الذين يتجشمون عناء السفر ومشقته للوصول إلى أولئك العلماء للتلقي عنهم، والمزاحمة في حلقاتهم، وبقدر رحالات طالب العلم في الأقطار، وحضوره في حلقات العلماء، ترتفع مكانته، ويعلو مقامه، ويتكاثر الطلبة في حلقته، ومن ثم يصبح بذاته مقصداً لطلاب العلم، ولذا جعلوا "الرحلة" مناط الثقة بالعالم، قال الإمام يحيى بن معين: "أربعة لا تؤنس منهم رشداً – أي لا تبصر منهم خيراً ولا نفعاً – " حارس الدرب، ومنادي القاضي، وابن المحدث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث"[1].

وقال الحافظ ابن الصلاح: "وإذا فرغ – الطالب – من سماع العوالي والمهمات التي ببلده، فليرحل إلى غيره"[2]، وقد أوردها بصيغة

(١) ابن الصلاح:علوم الحديث – المعروف بمقدمة ابن الصلاح، ص ٢٤٦.

(٢) مقدمة ابن الصلاح، ص٢٤٧ – ٢٤٨.

الأمر "فليرحل" وذلك لما لمسوه من فوائد الرحلة وآثارها النافعة في تكوين المواهب الشخصية، وتنمية المدارك العلمية، وتوسعة الآفاق الفكرية، والتطاعم بين العقول والمعارف وأهليها، فلذا أقاموها مقام الحاجة الضرورية لمن سلك طريق العلم والتحصيل، واعتبروها شرطاً لتوثيق العالم والثقة بعلمه.

فنشأ من ذلك تلك الرحلات الواسعة، والأسفار الشاسعة والسنوات الطوال التي تقضي من أعمار هؤلاء الراحلين، بعيدين عن الأهل والولد، والزوجة والبلد، متفرغين لتلقي العلم ولقاء العلماء، ومشافهتهم، وتعرف ما عندهم، والانتساب إليهم، والاغتراف من معينهم.

وقد صارت هذه الرحلات لدى العلماء السابقين جزءاً أصيلاً من حياتهم العلمية، ورحل العلماء من أهل كل علم، فرحل المفسر والمحدث، والفقيه الأصولي، واللغوي، والنحوي، والأديب، والمؤرخ، والزاهد، والعابد، والشاب، والشيخ، والكبير، والصغير، كما ظهر في تراجم كثير من العلماء الكبار، ومنهم الإمام محمد بن إدريس – رحمه الله – الذي كانت له إلى اليمن رحلة بل رحلات تناولها المؤلفون بين مقتضب ومسهب في الحديث عنها، وتعددت الروايات حولها، بل تضاربت بشكل يجعل القارئ في حيرة من أمره حيالها ؟؟ فما حقيقة تلك الرحلة، أو الرحلات ؟ ومتى كانت ؟ وما الأسباب الدافعة إليها ؟ وما أثرها في حياة الامام الشافعي العلمية والعملية ؟ ثم ماهي النتائج

التي أفضت إليها؟ والتي أدت في نهاية الأمر أن يحمل الامام الشافعي إلى بغداد مقيدا بالحديد، في تهمة من أخطر التهم التي يمكن أن يتعرض لها الانسان، والتي جعلت الامام الشافعي يوقن بالموت؟ كل هذه التساؤلات وغيرها هي ما سوف يحاول هذا البحث الإجابة عليها، وسبر غور الحقيقة حولها، من خلال جمع الروايات وتمحيصها والمقارنة بينها، ثم التحليل والاستنتاج للوصول إلى أقرب نقطة للحقيقة بقدر ما تسعف به المصادر.

ترجمة الشافعي:

يعرف الإمام الشافعي بالمطلبي[1]، نسبة إلى بني المطلب القرشيين بني عم الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد بن يزيد بن هاشم بن المطلب[2]، وبذلك يكاد يجمع المؤرخون على أنه ذا نسب قرشي مطلبي[3]، إذ يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف،[4]

(١) ابن حجر: توالي التأسيس، ص٣٤، الذهبي سير أعلام النبلاء ج١٠، ص٦.

(٢) الخطيب: تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦ – ٥٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥،ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٢٦٣.

(٣) وإن كان هناك من يقول أنه قرشي بالولاء لا بالنسب وأن جده كان مولى لأبي لهب، وقد ناقش هذه الرواية الإمام الفخر الرازي بشكل مستفيض وأثبت عدم صحة هذه الرواية (انظر: مناقب الإمام الشافعي، ص٢٣ -٢٨).

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦ –٥٨، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٣٢٦ – ٣٢٧.

"واشتهاره بالمطلبي عند الخلفاء والعلماء والشعراء أشهر من ضوء النهار عند البصير" كما يقول البيهقي[١].

أما والدته فهي أزدية من قبائل الأزد اليمنية[٢]، والذي يغلب على الظن أنها كانت من تبالة[٣] إذ يقول الشافعي " كان أبي رجل من تبالة، وكان بالمدينة فظهر فيها بعض ما يكرهه فخرج إلى عسقلان فأقام بها وولدت بها "[٤]. وقد اتفقت الروايات على أن ولادته كانت في سنة ١٥٠هـ[٥]، وبالقدر ذاته اختلفت المصادر في مكان ولادته، إذ تشير أغلب المصادر إلى أنه ولد بغزة من أرض فلسطين[٦] حيث روي عنه قوله " ولدت بغزة سنة خمسين ومائة[٧]، بينما قالت رواية أخرى أنه ولد

(١) مناقب الشافعي، ص٨١.

(٢) الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٢٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٢٦٣.

(٣) تبالة: بليدة تقع في الطريق ما بين مكة واليمن، وتبعد عن مكة أربعة مراحل (الحميري: الروض المعطار ص١٢٩). وقد أخطأ الحموي حينما عدها من بلاد تهامة (معجم البلدان، ج٢، ص٩) وهي تقع شمال غرب محافظة بيشة بالمملكة العربية السعودية وتبعد عن بيشة حوالي ٨٠كم. (محمد عبدالمتعالي: دليل الأسماء القديمة والهجر والأماكن العامة في منطقة عسير، محافظة بيشة، ص٥١ – ٥٥).

(٤) ابن حجر: توالي التأسيس، ص٥٠، والذي يظهر أنه قصد والد أمه – أي أنه كان من تبالة وسكانها من قبائل الأزد.

(٥) ابن أبي حاتم: آداب الشافعي ص١٧ – ١٨، أبو نعيم حلية الاولياء، ج٩، ص٦٧.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦.

(٧) البيهقي: مناقب الشافعي، ج١، ص٧٣.

بعسقلان [١] وتشير رواية ثالثة إلى أن ولادته كانت باليمن، حيث روي عنه قوله: "ولدت باليمن، فخافت أمي على الضيعة فحملتني إلى مكة"[٢]، وقد حاول البيهقي الجمع بين تلك الروايات، حيث قال أن الإمام الشافعي ولد بغزة في أحد المواضع التي تسكنها بطون من اليمن، ثم حملته أمه منها إلى عسقلان وظل بها إلى أن بلغ سنتين من عمره ثم حملته من هناك إلى مكة بعد ذلك بزمن[٣].

طلبه للعلم:

دخل الإمام الشافعي إلى مكة وهو صغير السن، وكان فقيرا معدما، ولما ترعرع دفعته أمه إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، وتعلم الكتابة، رغم قلة ذات اليد، فلم يكن عندها ما تعطي المعلم أجرة لتعليم ولدها، لذا رضي المعلم أن يخلفه إذا قام فيحفِّظ الطلاب، لما رأى منه من نباهة وقوة حفظ[٤]، وقد استطاع حفظ كتاب الله تعالى وهو في سن صغيرة[٥]، ثم اتجه بعد حفظه لكتاب الله تعالى إلى استحفاظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحفظ الحديث بالسمع، ثم يكتبه على الجلود والخزف والظهور[٦]، التي يحصل عليها من الديوان.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٢٦٣.

(٢) البيهقي: مناقب الشافعي، ج١، ص٧٢ – ٧٥.

(٣) البيهقي: مناقب الشافعي، ج١، ص٧٤.

(٤) عياض: ترتيب المدارك، ج١، ص٣٨٣، ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٢، ص٢٤٨.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص١١.

(٦) الظهور المراد بها الأوراق الديوانية التي كتب في باطنها وترك ظهرها أبيض، ولم يعد

وجلس في حلق العلماء بمكة وكان من أشهر من أخذ عنه بمكة سفيان بن عيينة[١]، ومسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة[٢]. وغيرهما من الأعلام الكبار ممن أدركه هناك.

ثم اتجهت رغبته إلى التفصح في العربية، وطلب الشعر والأدب وأيام العرب، لذلك جدَّ في طلب هذه العلوم وخرج من مكة إلى البادية وتحديداً إلى قبيلة هذيل، وكانت من أفصح قبائل العرب، وظل بها عشر سنين[٣] وفي رواية عشرين سنة[٤] وفي رواية ثالثة بقي هناك سبع عشرة سنة،[٥] لازمهم كل هذه المدة " يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم"[٦] وكانت حصيلة تلك الرحلة العلمية بروزا في العربية وعلومها، ونبوغا في حفظ أشعار العرب وآدابها، حتى أصبح مقصدا في ذلك[٧]. حتى

=

الديوان ينتفع منها (انظر: أبو زهرة: الشافعي: حياته – آراؤه الفقهية، ص١٨،حاشية١).

(١) سفيان بن عيينة بن ميمون الكوفي، محدث الحرم، سكن مكة وتوفي بها سنة ١٩٨هـ، انظر: الذهبي: ميزان الاعتدال، مج٢، ص١٧٠ -١٧١.

(٢) مسلم بن خالد بن مسلم المعروف بالزنجي من الموالي، كان إمام أهل مكة وقاضي مكة، أصله من الشام، ولقب بالزنجي لحمرة وجهه. توفي سنة ١٧٩هـ.(انظر: الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص٢٢٢).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٥ ، ص٢٦٣.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٥، ص٢٦٣.

(٥) الحموي: معجم الأدباء ج٦، ص٢٣٩٥، النووي: تهذيب الأسماء، ج١، ص٤٦، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٩، ص٧٠.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٦٣.

(٧) الحموي: معجم الأدباء، ج٦ ، ص٢٣٩٥ .

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل " كان الشافعي من أفصح الناس، وكان مالك تعجبه قراءته لأنه كان فصيحا. وقال: ما مس أحد محبرة ولا قلما إلا وللشافعي في عنقه منة. وقال أيوب بن سويد: خذوا عن الشافع اللغة"(١).

وبالرغم مما أحرزه الشافعي من قوة في العربية والشعر والأدب فإن ذلك لم يحقق ما نفسه من شغف للعلم ورغبة في التحصيل، لذلك اتجه لطلب الفكر والفقه يقول النووي" كان الشافعي في بداية أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب ثم أخذ في الفقه" (٢)، ويقول الذهبي عنه " ثم حبب إليه الفقه، فساد أهل زمانه"(٣)، ورأى أن ذلك لا يتحقق له في مكة لذلك بدأ في رحلاته العلمية التي كانت بدايتها من المدينة المنورة، حيث كان ذكر الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – يدوي بها، وقد بلغ الآفاق، لذلك اتجه الإمام الشافعي إليه فجلس في حلقته، وتقول المصادر أنه قبل ذهابه إلى الإمام مالك حفظ الموطأ كاملا، ورغب أن يقرأه على صاحبه مباشرة(٤)، وقد أعجب به الإمام مالك وبقدرته، وتنبئ له بشأن كبير في مستقبل أيامه(٥)، وقد لازم الشافعي

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٤٧.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص ٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٦.

(٤) البيهقي: مناقب الشافعي، ص١٠٠ – ١٠١، الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٣٨، ٣٩،الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص١١.

(٥) أبو حاتم الرازي: مناقب الشافعي، ص١٨ .

الإمام مالك إلى أن توفي سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م ثم رحل عن المدينة المنورة وقد حاز علم مالك[١]. وتنقل الإمام الشافعي بعد ذلك لطلب العلم فرحل إلى اليمن، كما دخل بغداد مرات ومرات[٢] فطلب المذهب الحنفي على يدي محمد بن الحسن الشيباني، تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان – رحمه الله – وانعقدت بينهما مناظرات فقهية عظيمة، كما طلب العلم على أيدي علماء آخرين في بغداد، التي كانت قبلة العلم في حينها. قال ابن حجر " انتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك، ورحل الشافعي إليه ولازمه، وانتهت رياسة الفقه إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد حملا ليس فيه شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث"[٣].

وأثناء وجوده في بغداد اتصل بمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة وقرأ كتبه وتعرف على علم أهل الرأي، ثم عاد بعدها إلى مكة وأقام فيها نحوا من تسع سنوات لينشر مذهبه من خلال حلقات العلم التي يزدحم فيها طلبة العلم في الحرم المكي ومن خلال لقائه بالعلماء أثناء مواسم الحج. وتتلمذ عليه في هذه الفترة عدد كبير من طلبة العلم كان من أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل. ثم عاد مرة أخرى

(١) عياض: ترتيب المدارك، ج١، ص٣٨٥.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٦٨، ٦٩.

(٣) توالي التأسيس، ص٧٣ .

إلى بغداد سنة (١٩٥هـ/٨١٠م)، وكان له بها مجلس علم يحضره العلماء ويقصده الطلاب من كل مكان. مكث الشافعي سنتين في بغداد ألف خلالها كتابه (الرسالة) ونشر فيها مذهبه القديم. ثم عاد الإمام الشافعي إلى مكة ومكث بها فترة قصيرة غادرها بعد ذلك إلى بغداد سنة (١٩٨هـ/٨١٣م) وأقام في بغداد فترة قصيرة ثم غادر بغداد إلى مصر [١].

قدم الإمام الشافعي مصر سنة (١٩٩هـ/٨١٤م) تسبقه شهرته، فنزل بالفسطاط تم بدأ بإلقاء دروسه في جامع عمرو بن العاص فمال إليه الناس، وجذبت فصاحته وعلمه كثيرا من أتباع الإمامين أبي حنيفة ومالك. وبقي في مصر خمس سنوات قضاها كلها في التأليف والتدريس والمناظرة والرد على الخصوم. وفي مصر وضع الشافعي مذهبه الجديد وهو الأحكام والفتاوى التي استنبطها بمصر وخالف في بعضها فقهه الذي وضعه في العراق، وصنف في مصر كتبه الخالدة التي رواها عنه تلاميذه. وكان مذهبه وسطا بين المدرستين السابقتين له وهما مدرسة الرأي، ومدرسة الحديث، وانتشر تلاميذه في أرجاء العالم الإسلامي حاملين مذهبه وداعين إليه[٢].

- حاز الإمام الشافعي من خلال تلك الرحلات العلمية علما عظيما، وأحرز شهرة كبيرة حتى "صنف الكبار في مناقب هذا الإمام قديما

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص٢٦٣ – ٢٦٤.

(٢) عبدالغني الدوقر: الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر، ص١٥١.

وحديثا، ونال بعض الناس منه غضاً فما زاده ذلك إلا رفعة وجلالة، ولاح للمنصفين أن كلام أقرانه فيه بهوى، وقل من برَّز في الإمامة، وردَّ من خالفه إلا وعودي،.... وصنف التصانيف، ودون العلم، ورد على الأئمة متبعاً الأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبعد صيته، وتكاثر عليه الطلبة"[1]. قال ابن خلكان[2]: " وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه ".

- ومات الشافعي، في آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م. وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، قال محمد بن عبدالله بن عبد الحكم المصري: ((ولد الشافعي سنة خمسين ومائة، ومات في آخر يوم من رجب، سنة أربع ومائتين، عاش أربعاً وخمسين سنة)) [3].

رحلته إلى اليمن:

أ ـ تاريخ الرحلة:

تثبت كثير من المصادر رحلة الشافعي إلى اليمن، غير أنها لا تحدد تاريخ بداية تلك الرحلة، إذ لم أجد في المصادر التي اطلعت عليها من

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٨.

(٢) وفيات الأعيان: ج٤، ص١٦٦.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٧٠.

أشار إلى تاريخ محدد لبداية الرحلة، وإنما يتواضع المؤرخون على أن حمل الشافعي من اليمن إلى بغداد كان في سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠ م[١].

غير أن المصادر تشير إلى أنه على أثر وفاة شيخه الإمام مالك ترك الشافعي المدينة المنورة وعاد إلى مكة إلا أنه اشتد الأمر عليه في مكة فغادرها إلى اليمن[٢].

ويفهم من هذا أن رحلته لليمن كانت في حدود سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م ولعلها كانت بنهاية هذا العام. خاصة إذا علمنا أن الأرجح في تاريخ وفاة الإمام مالك بن أنس أنها كانت في شهر ربيع الأول من عام ١٧٩هـ/٧٩٥م[٣]. حيث خرج الإمام الشافعي بعدها من المدينة إلى مكة وأقام بها برهة من الزمن، ثم ارتحل إلى اليمن.

يعضد ذلك ما ذكره بعض المؤرخين الذين أشاروا إلى أن الإمام الشافعي قضى في اليمن خمس سنوات حيث يؤكدون أن خروجه من اليمن كان في عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وبذلك تكون بداية وصوله إلى اليمن عام ١٧٩هـ/٧٩٥م[٤].

---

(١) الحموي: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٦، ابن حجر: توالي التأسيس، ص٦٩،قال الذهبي قلت: " قد قدم بغداد سنة بضع وثمانين ومئة" (سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص٥٠) ولم يحدد السنة بعينها وهذا خلاف لما أورده جل من ترجم للشافعي حيث حددوا بسنة ١٨٤هـ.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء: ج٩،ص٧٠ – ٧١، الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٣٩.

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٧٨. بل هناك رواية تفيد أن وفاته كانت في شهر رجب عام ١٧٩هـ.

(٤) أبو حاتم الرازي: آداب ومناقب الإمام الشافعي، ص٢٥، الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٧١.

وتضطرب الرواية في شأن خروج الإمام الشافعي إلى اليمن ففي حين تذكر المصادر[١] أن القاضي مصعب الزبيري[٢] الذي عين قاضياً لليمن من قبل الرشيد[٣] حين خرج من مكة اصطحب معه الشافعي إلى اليمن ترد لدى الحموي رواية أخرى تنسب إلى مصعب الزبيري نفسه يقول فيها: " وأما طلبه العلم فحدث الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبدالله الزبيري أنه خرج إلى اليمن فلقي محمد بن إدريس الشافعي وهو مستحص[٤] في طلب الشعر والنحو والغريب. قال: فقلت له: إلى كم هذا؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك، وانصرفت به معي إلى المدينة، فذهبت به إلى مالك ابن أنس وأوصيته به "[٥].

والنص أعلاه يؤكد أن مصعباً لقي الشافعي في اليمن، ومن ثمَّ خرج به إلى المدينة المنورة وربطه بمالك بن أنس. وهذا عكس ما أوردته المصادر من أنه لقيه في مكة ثم اصطحبه إلى اليمن.

ويفهم من هذا أن رحلة الإمام الشافعي إلى اليمن كانت قبل رحلته

(١) توالى التأسيس، ص٦٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص٨٥ – ٨٦.

(٢) مصعب بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام. كان علامة نسابة اخبارياً فصيحاً من نبلاء الرجال وأفرادهم، توفي في شوال سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م (انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١١، ص٣٠ – ٣٢).

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج١١، ص١١٢ – ١١٤.

(٤) ولعل المقصود " مستحض".

(٥) معجم الأدباء: ج٩، ص٢٣٩٤.

إلى المدينة المنورة وطلبه العلم على يدي الإمام مالك بن أنس.

كما يفهم من هذه الرواية أن الشافعي قد خرج إلى اليمن لطلب علوم العربية من الشعر والنحو وغريب اللغة، ولا شك أن اليمن كانت مصدراً لتعلم مثل تلك العلوم، غير أن الرواية الأكثر شهرة أن الشافعي طلب هذه العلوم عند قبيلة هذيل حيث كانت أشهر قبائل العرب في حينها في تلك العلوم، ولم تكن باليمن بل كانت فيما جاور مكة المكرمة – كما سيأتي بيانه -.

ورغم أن هذه الرواية تخالف كثيراً من الروايات التي تفيد أن رحلة الشافعي إلى اليمن كانت بعد عودته من المدينة المنورة، إلا أنها تسند إلى الزبير بن بكار وهو الراوية الموثوق[1]، والعلم المرموق، والقاضي الثبت، وهو ابن أخ مصعب الزبيري الذي روى عنه هذه الرواية. وبالتالي فلا يمكن إهمال هذه الرواية خاصة إذا ما أخذنا بالرواية التي تقول أن حمل الشافعي إلى بغداد بعد اتهامه بالخروج مع الثوار ضد الرشيد كان من مكة أو الحجاز – كما قال ابن عبدالبر[2] ولم يكن من اليمن.

(١) قال عنه الخطيب البغدادي: "كان الزبير ثقة ثبتاً عالماً بالنسب وأخبار المتقدمين" تاريخ بغداد،ج٨، ص٤٦٧. وقال ابن حجر: "قال أبو القاسم البغوي كان ثبتاً عالماً ثقة" – تهذيب التهذيب،ج١، ص٦٢٣ - ٦٢٤. وقال عنه الذهبي: هو ابن بكار الإمام، صاحب النسب قاضي مكة، ثقة من أوعية العلم" ميزان الاعتدال:ج٢، ص٦٦.

(٢) الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء، ص١٥٣ – ١٥٤.

وبالتأمل والمقارنة في هذه الروايات يمكن لنا أن نتساءل هل كان للشافعي أكثر من رحلة إلى اليمن؟ الذي يظهر أنه كان للشافعي أكثر من رحلة إلى اليمن. وهذا ما سوف يتم إيضاحه لاحقاً.

ب ـ أسباب الرحلة:

هل كان خروج الإمام الشافعي إلى اليمن لطلب الولاية والسعي وراء المناصب والمهام؟ أم كان فراراً من العوز والحاجة وبحثاً عن باب رزق يعوضه ووالدته ضنك العيش الذي يعيشانه في مكة؟ أم أنه كان لطلب العلم والاستزادة منه؟

كل تلك الأسباب مشروعة بلا شك وهي مطلب للكثير من أمثال الشافعي، فإن كانت الولاية والإمارة فهو يرى في نفسه ما يؤهله لذلك، ويمكنه من النجاح فيما قد يسند إليه من مهام إدارية أو قضائية أو غيرها، وقد شهد بذلك الكثير ممن عاصره وعرفه[1].

وإن كان طلب التوسع في الرزق والهرب من الفقر فهو منهج إسلامي صحيح فالتحرف لطلب الرزق والفرار من الفقر والعوز، وطرق أبواب الرزق مندوب والشافعي يدرك ذلك تماماً وهو الفقيه القدير، أما الثالثة وهي الأبرز ألا وهي الاستزادة من العلوم والمعارف فالشافعي

(١) أوردت كثير من المصادر التي تناولت سيرة الإمام الشافعي الكثير من الصفات مثل الفطنة والذكاء والهمة العالية والعزيمة والسخاء وغيرها من الصفات التي تمكنه من القيام بمثل هذه الأعمال، وقد أشير إلى بعض منها في الترجمة التي وردت في مطلع هذا البحث. وللمزيد انظر (الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٧١ -٧٣، ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٦٣ – ٢٧٠).

حري بذلك وجدير به.

لكن ما العلم الذي يسعى الشافعي وراء تحصيله في اليمن خاصة وأنه يعيش في مكة المكرمة موطن العلماء ومجمع الطلاب وإليها تشد رحال طالبي العلم بكل فنونه وأقسامه، فضلاً عن أنه قد حاز من العلوم ما ارتفع به كعبه وعلا به قدره حتى حثه فقيه مكة مسلم بن خالد الزنجي - بعد عودته من المدينة المنورة -أن يجلس للإفتاء، حيث قال له " أفت يا أبا عبدالله، والله قد آن لك أن تفتي"[1]، وما كان لطالب علم - كائناً من كان - أن يجلس للإفتاء في مكة ويحثه الفقهاء على ذلك إلا إذا كان قد بلغ مرتبة من الفقه تؤهله لذلك.

لقد تعددت المرويات التي نسبت إلى الشافعي عن أسباب خروجه إلى اليمن ولعلنا نبدأ بالرواية التي وردت عن أحد تلاميذ الشافعي وهو: "الحميدي"[2] حيث قال: " قدم والٍ على اليمن – يعني مكة – فكلمه بعض القرشيين في أن أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أتجمل به،[3] فرهنت داراً، فتحملت معه، فلما قدمنا عملت له على عملٍ،

(١) ابن أبي حاتم: آداب ومناقب الشافعي، ص٣٠، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٢، ص٩٣ .

(٢) عبدالله بن الزبير بن عيسى بن حُميد العزي، الإمام الحافظ الفقيه، شيخ الحرم المعروف بالحميدي، ثقة كثير الحديث، مات بمكة سنة تسع عشرة وقيل ست عشرة ومائتين للهجرة. (انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥،ص٥٠٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ص٦١٦ – ٦٢١).

(٣) يبدو أنه تحريف للكلمة، الصحيح " أتحمل به " كما يتضح من السياق.

فحمدت فيه فزادني "[1].

والذي توحي به هذه الرواية أن الشافعي خرج إلى اليمن لطلب الولاية والبحث عن عمل في اليمن، وقد استغل بعض قرابة الشافعي وصول والي اليمن إلى مكة فعرضوا عليه أمر الشافعي وما هو فيه من العوز والفقر والحاجة إلى جانب اليتم[2]، لا شك أنهم قد بينوا لوالي اليمن ما يمتلكه الشافعي من قدرات ومواهب تؤهله لإنجاح أي مهمة يكلف بها، خاصة بعد ما برز من ذكائه وفطنته[3].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، من هو هذا الوالي الذي قدم مكة من اليمن؟ وفي أي سنة كان قدومه؟

أما عن سنة قدومه فبالعودة إلى ما سبق ذكره في تاريخ رحلة الإمام الشافعي إلى اليمن يظهر أن قدومه كان في النصف الثاني من سنة ١٧٩هـ/٧٩٥ م[4].

أما الوالي الذي اصطحب الشافعي إلى اليمن فقد أعرضت المصادر عن ذكر اسمه مباشرة، حيث اكتفت بقول: "اتفق أن والي اليمن قدم المدينة، فكلمه بعض القرشيين في أن أصحبه"[5].

(١) ابن حجر: توالي التأسيس، ص١٢٧.

(٢) الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٣٩.

(٣) أبو زهرة: الشافعي: حياته وعصره وأرأوه الفقهية، ص٣٣ – ٣٥.

(٤) انظر أعلاه ص٦ .

(٥) الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٣٩ .

واقترب البيهقي[1] شيئاً ما لتحديد الوالي حيث أكد أنه من المطلبيين بقوله: " ثمَّ أن رجلاً من المطلبيين ولي بعض ناحية باليمن، فمشت أمي إلى بني أعمامي وسألتهم أن يمشوا إليه ويسألوه استصحابي ففعل ذلك ". ويؤكد ذلك ابن عبدالبر[2] بقوله: " وفد محمد بن إدريس على رجل من قومه باليمن، كان بها أميرا".

وبالعودة إلى المصادر التاريخية التي تناولت الحديث عن اليمن وولاته في تلك الفترة الزمنية يتضح أنها كانت فترة اضطرابات شديدة، وثورات مستمرة من قبل العلويين وغيرهم، وقد اضطرت الخليفة هارون الرشيد أن يجري تغييرات سريعة ومتوالية للولاة الذين يقودون اليمن، حيث يتبين أن هذه الفترة الممتدة من عام ١٧٩هـ إلى عام ١٨٤هـ شهدت ولاية تسعة ولاة للعباسيين أي بمعدل سنة وبضعة أشهر فقط لكل والي. وهذا يدل على شدة الاضطراب في اليمن[3].

ولعل أقربهم إلى ذلك هو عبدالله بن مصعب الزبيري[4] حيث كان

(١) مناقب الشافعي، ص١١١ .

(٢) الانتقاء، ص١٢٧ .

(٣) انظر: الخزرجي: العسجد المسبوك، ص٢٨ – ٢٩، ابن الديبع: قرة العيون، ص١١٥ – ١١٨، الكبيسي: اللطائف السنية، ص٣٢ - ٣٤ .

(٤) عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير، والد مصعب بن الزبير كان من أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن رواة الحديث، كان جميلاً، سرياً، محتشماً، فصيحاً، مفوهاً، محمود الولاية ولاه الرشيد أمارة اليمن وزاد معها ولاية عك وكانت عك إلى

الخليفة هارون الرشيد قد عينه والياً للمدينة واليمن[1] يؤيد هذا ما روي عن الشافعي حيث قال: " ثمَّ أن رجلاً من المطلبيين ولي بعض ناحية اليمن، فمشت أمي إلى بني أعمامي، وسألتهم أن يمشوا إليه ويسألوه استصحابي ففعل ذلك"[2].

وقد كان قريشاً ولذلك وردت الرواية لدى كثير من المؤرخين أن: "بعض القرشيين كلم هذا الوالي في أن يصحبه الشافعي "[3].

ويظهر أن الشافعي كانت تربطه بهذا الوالي القرشي روابط سابقة، ومعرفة قديمة، يؤيد هذا ما أخرجه الحاكم من طريق مصعب الزبيري قال: " قرأ الشافعي أشعار هذيل حفظاً ثم قال لي لا تخبر أحداً، وكان يسمر مع أبي من أول الليل إلى الصباح يتذاكران "[4] والرواية هنا تفيد أن الشافعي كان على صلة وثيقة بعبدالله الزبيري، وأنهما كانا يسهران الليالي في منادمة الشعر وعلومه. فهل كان ذلك في مكة؟ أم كان في اليمن أثناء وجود الشافعي بها؟. هذا ما لم يتضح من المصادر التي تناولت هذا الموضوع. لكن الذي يتضح حسب هذه الرواية أن الشافعي

=

والي مكة ورزقه ألفي دينار كل شهر. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٨،ص١٧٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥١٧.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص٩٠.

(٢) البيهقي: مناقب الشافعي، ص١١١ .

(٣) ابن حجر: توالي التأسيس، ١٢٧.

(٤) ابن حجر: توالي التأسيس، ص٥٤.

خرج إلى اليمن بصحبة هذا الوالي حين خرج لطلب الولاية، وأن الوالي قد استعمله في أعمال كثيرة[١]. أما في المرة الثانية فكان الذي اصطحبه إلى اليمن هو مصعب الزبيري، روى أبو نعيم[٢] عن الشافعي قال: "قال لي مصعب: إن هارون الرشيد كتب إليَّ أن أصير إلى اليمن قاضياً فتخرج معنا... فخرج قاضياً على اليمن وخرجت معه".

الرواية الثانية عن سبب هذه الرحلة: ترتبط هذه الرواية بالأولى إلى حد بعيد غير أنها تأخذ منحى اقتصادياً بارزاً، حيث تشير الرواية إلى أن الشافعي كان يعاني من العوز والفقر والحاجة يوضح ذلك الرازي[٣] بروايته عن الشافعي حيث يقول: "قال الشافعي، ولما مات مالك وكنت فقيرا، اتفق أن والي اليمن قدم المدينة " ويؤكد هذا العوز الذي كان يعانيه الشافعي كثير ممن تحدث عن بداية الشافعي في طلب العلم يقول البيهقي رواية عن الشافعي: "كنت في حجر أمي وأنا غلام فدفعتني أمي إلى الكُتَّاب ولم يكن عندها ما تعطي المعلم..... ولم يكن عند أمي ما تشتري به قراطيس" إلى أن يقول: "ثم قدم والٍ على اليمن فكلمه بعض القرشيين أن أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أتحمل به، فرهنت داراً بستة عشر ديناراً، وأعطتني، فتحملت بها معه "[٤]. ويروى

(١) ابن حجر: توالي التأسيس، ص٥٤ .

(٢) حلية ألأولياء، ج٩، ص٧١ .

(٣) مناقب الامام الشافعي، ص٣٩.

(٤) البيهقي: مناقب الشافعي، ص١٠٦، وانظر عن ذلك أيضاً: ابن حجر: توالي التأسيس، ص١٢٧.

أيضاً عن الشافعي أنه قال: "طلبت هذا الأمر – أي العلم – على ضيق من ذات اليد"[١].

ويفهم من هذه الروايات التي وردت لدى الكثير من المؤرخين والمؤلفين الذين تناولوا حياة الشافعي أنه كان يعاني من الفقر في مكة، ولذلك ربما وجد في الخروج إلى اليمن مخرجاً من ذلك، وتحرفاً من حال إلى حال عليَّ الله أن يفتح له باب رزق يسد حاجته، ومن هنا وجد في وصول والي اليمن إلى مكة فرصة لتحقيق ذلك " فكلمه بعض القرشيين في أن أصحبه"[٢] وخرج معه إلى اليمن[٣]. فاستعمله الوالي في بعض الأعمال التي لم تحدد - كما سبق بيانه - إلا أنها فيما يبدو أصبحت مصدر رزق ضمن للإمام الشافعي دخلاً يؤمن حاجته، ويرفع عوزه، يؤكد هذا ما ذكره كل من الفخر الرازي[٤] والبيهقي[٥] حيث ذكرا أن الشافعي قدم " من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار"[٦]، وورد في

(١) البيهقي، مناقب الشافعي، ص١١١.

(٢) الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٣٩.

(٣) ابن حجر: توالي التأسيس، ص١٢٧.

(٤) مناقب الإمام الشافعي، ص٣٥٥.

(٥) مناقب الشافعي، ص١١٢، وانظر عن هذه الرواية كل من: أبو نعيم: حلية الأولياء،ج٩، ص١٣٠. وابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٥١، ص٢٦٧.

(٦) ذكر الذهبي هذه الرواية غير أنه قال: "قدم الشافعي اليمن ومعه عشرة آلاف دينار" سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص٣٨ والذي يظهر أن هذه الرواية سقط منها حرف الجر (من) حيث النص "قدم من اليمن" إلى مكة لتتفق مع باقي الروايات، وفي تاريخ دول الإسلام

رواية أخرى أنه قدم ومعه "عشرون ألف دينار"[1]، وذكر ابن عساكر[2] أنه قدم مرة ومعه ثلاثة آلاف دينار فدخل عليه بنو عمه وغيرهم فجعل يعطيهم حتى قام وليس معه شيء. ومع أن المبلغ الذي ذكر كبير جداً وقد يكون مبالغ فيه إلا أنه يدل على أن الإمام الشافعي قد تحسنت حاله المالية في اليمن، وقد يكون مرد ذلك ليس إلى عطاء الولاية والأعمال الإدارية التي كلف بها، بل قد يعود إلى أنه كان يعمل في مجالات أخرى كالتجارة مثلاً؟ .

السبب الثالث: طلب العلم:

تمدنا المصادر التي تناولت رحلة الشافعي إلى اليمن بسبب آخر من أسباب خروجه إلى اليمن، وهو يتعلق برغبته في طلب العلم وتحصيله، ولا غرو ولا عجب أن يرحل الشافعي – وهو المغرم بالعلم، الشغوف بتحصيله – إلى الآفاق للاستزادة من فضل العلم ومجالسة أساطينه وأساتيذه، رغم أن البيئة التي خرج منها – مكة المكرمة – هي بيئة العلم والعلماء بمختلف فنونه وتخصصاته إلا أنه يبدو أن هناك ما كان يدفع الشافعي إلى اليمن، فما هو العلم الذي سعى الشافعي إلى تحصيله في اليمن؟. ترد في هذا الباب عدد من الروايات التاريخية

=

قال: "قدم الشافعي صنعاء فضربت له خيمة... "، ج٥، ص١٥٩.

(١) ابن حجر: توالي التأسيس، ص١٢٣.

(٢) تاريخ دمشق: ج ١٥، ص ٢١٩ ،و انظر ابن حجر: توالي التأسيس، ص١٢٣ – ١٢٤.

المتباينة. فابن أبي حاتم ينقل عن الحميدي قول الشافعي: " خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة[١]، حتى كتبتها وجمعتها" [٢]ويؤكد ذلك كل من أبي نعيم الأصفهاني[٣] والبيهقي[٤] والذهبي[٥] والصفدي[٦] وابن حجر[٧].فإجماع هؤلاء الأعلام على تلك الرواية يؤكد أن الشافعي كان عنياً بطلب علم الفراسة والنجوم، وحريصاً على تعلمه، وأنه تعلمه حتى برع فيه، ولذلك وصفه ابن القيم[٨] بقوله: "والشافعي كان أفرس الناس، وكان قد قرأ كتب الفراسة وكانت له فيها اليد الطولى" وقال عنه: "وروى أن الشافعي كان عالماً بالنجوم[٩]"، كما يؤكد أبو نعيم[١٠] ذلك بما يرويه عن ابن بنت الشافعي بقوله: "سمعت أبي يقول: كان

(١) علم الفراسة: علم من العلوم الطبيعية تعرف به أخلاق الناس الباطنة من النظر إلى أحوالهم الظاهرة كالألوان والأشكال والأعضاء. أو هي الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن (انظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا) ar.wikipedia.org.

(٢) ابن أبي حاتم: آداب الإمام الشافعي ومناقبه، ج٢، ص٩٦.

(٣) حلية الأولياء، ج٩، ص ٧٧ – ٧٨ .

(٤) مناقب الشافعي، ج٢، ص١٢٦.

(٥) سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٤٠.

(٦) الوافي بالوفيات؛ ج٢، ص ١٢٣ .

(٧) توالي التأسيس، ص٥٧ .

(٨) مفتاح دار السعادة، ج٢، ص١٨٨.

(٩) مفتاح دار السعادة، ج٢، ص١٨٩ .

(١٠) حلية الأولياء، جـ٩، ص٧٧ .

الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم، وما ينظر في شيء إلا فاق فيه ".

ولعل هذا العلم – الفراسة – في زمن الشافعي كان بارزاً رغم ما قد يكون حوله من آراء فقهية مختلفة[١]، إلا أن إصرار الشافعي على تعلمه يدل على رواجه وانتشاره، لذلك سافر إلى اليمن لتعلم الفراسة وليتأكد من مدى صحتها، فقضى في اليمن ثلاث سنوات يتعلم ذلك العلم حتى أتقنه[٢].

ويبدو أن الإمام أراد أن يقف على مدى صحة وفائدة هذا العلم ومصداقية نظرياته، والتي يحكم أصحابها من خلالها على من يتعاملون معه، لذلك وفي طريق عودته من اليمن حدثت له قصة غريبة كانت سبباً في تأكده من صحة ذلك العلم بعد أن كاد أن يحرق كل الكتب التي كان قد جمعها في اليمن عن هذا العلم[٣] ورغم أن بعض المصادر تشير إلى أن الشافعي قد رجع عن هذا العلم " فجعل على نفسه أن لا ينظر فيه أبداً، ودفن تلك الكتب"[٤]. إلا أن البعض الآخر يروي أن الشافعي ظل يهتم بذلك العلم، وله به دراية تامة إلى آخر حياته[٥].

بل يوغل صاحب حلية الأولياء[٦] حيث يقول أن الشافعي تعلم علم

(١) انظر عن ذلك: ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج٢، ص٢١٩ - ٢٢٢ .

(٢) حسين يوسف: نشأة المذهب الشافعي وتطوره التاريخي، ص٥٠.

(٣) البيهقي: مناقب الشافعي، ج٢، ص١٣٤.

(٤) البيهقي: مناقب الشافعي، ج٢/ ص١٢٦، الذهبي: تاريخ الإسلام. ص١٦٦.

(٥) البيهقي: مناقب الشافعي، ج٢، ص١٣٦.

(٦) أبو نعيم: ج ٩ ، ص٧٨ .

النجوم والحساب بها وكان يقول: "شيئان أغفلهما الناس، النظر في الطب، والعناية بالنجوم".

أما القفطي فقد ذكر أن الشافعي رحل إلى اليمن لطلب العلم على يدي عالم اليمن "عبدالرزاق"[1] وهو من علماء الحديث الكبار والذين كان طلاب العلم يقصدونه من مختلف الجهات والأصقاع حيث حدث القفطي عن "الربيع بن سليمان قال: حدثني محمد بن إدريس الشافعي قال: رحلت إلى اليمن لأسمع من عبدالرزاق"[2] وعليه يكون هدف الشافعي هو استكمال دراسة علم الحديث على يدي هذا العالم الكبير عبدالرزاق الصنعاني.

والغريب في الأمر أن المصادر المتقدمة لم تعد عبدالرزاق الصنعاني في مشائخ الإمام الشافعي الذين تلقى العلم عنهم، وإنما ذكرت أربعة من العلماء اليمنيين درس عليهم الشافعي لم يكن عبدالرزاق بن همام من بينهم[3]. رغم أن ابن حجر[4] قد عد له ما يقرب من ثمانين شيخاً من

(١) عبدالرزاق بن همام بن نافع الحميري، فقيه صنعاء، ولد سنة ١٢٦هـ، وتفنن في طلب العلم، وبرع فيه حتى أصبح مقصداً لطلاب العلم، ودرس بمكة المكرمة وغيرها. توفي سنة ٢١١هـ وقيل ٢١٢هـ. انظر: (ابن سمرة الجعدي: طبقات فقهاء اليمن، ص٦٧ – ٦٨).

(٢) القفطي: المحمدون من الشعراء، ج١، ص٢٤ .

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج١، ص٣٩٣، البيهقي: مناقب الشافعي، ص١٠٥ – ١٠٨،وانظر الرازي: مناقب الإمام الشافعي ص٤٤،.

(٤) توالي التأسيس: ص٦٢ – ٧١.

أكابر العلماء في عصره، ولم يعد الصنعاني من ضمنهم.

ويذكر ياقوت[1] رواية أخرى تفيد أن الإمام الشافعي خرج إلى اليمن يطلب علوم اللغة من شعر ونحو حيث يقول: " وأما طلبه للعلم فحدث الزبير بن بكار عن عمه مصعب ابن عبدالله الزبيري أنه خرج إلى اليمن فلقي محمد بن إدريس الشافعي وهو مستحض في طلب الشعر والنحو والغريب، قال فقلت له: إلى كم هذا؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك وانصرفت به معي إلى المدينة... "

والنص أعلاه يؤكد أن الإمام الشافعي اجتهد في طلب علوم العربية من شعر ونحو وسواها، وقد برع في ذلك حتى كان يقضي الليل الطويل في مسامرة عبدالله الزبيري ومناشدة الشعر معه[2].

وتؤكد الروايات التاريخية أن الشافعي " كان في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب"[3]. وكان قد "قرأ أشعار هذيل حفظاً"[4]، وبذلك برز في الشعر والرواية حتى بلغ الأمر أن راجع الأصمعي على شهرته عليه – أشعار هذيل ودققها من حفظ الشافعي[5]. ولا غرو في

(١) معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٤.

(٢) ابن حجر: توالي التأسيس، ص٥٤.

(٣) البيهقي: مناقب الشافعي، ص٩٦.

(٤) البيهقي: مناقب الشافعي ص١٠٢.

(٥) البيهقي: مناقب الشافعي: ج٢، ص٤٤، النووي: تهذيب الأسماء واللغات ج١، ص٥٠، الذهبي: تاريخ الإسلام ص١٥٤.

ذلك فقد أثر عن الشافعي قوله: " أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها"[١]، والذي يظهر أن الشافعي وهو يطلب أشعار العرب وأيامها ويتعلم الفصحى من قبائل العرب قد اتجه إلى اليمن وطلب ذلك لدى القبائل اليمنية وحرص عليه. وهي لا شك ممن تستقى منها اللغة الفصحى، وكان ذلك في بداية طلبه للعلم وهو حدث السن[٢].

مشائخ الشافعي في اليمن:

ذكرت المصادر[٣] أن الإمام الشافعي تلقى العلم في اليمن على أيدي مجموعة من العلماء وحددت عدداً من الأسماء كان أبرزها:

١ـ **مطرِّف بن مازن**: وهو أبو أيوب مطرف بن مازن الكناني بالولاء اليماني الصنعاني (ت١٩١هـ) ولي قضاء صنعاء وهو من أهل الرواية والحديث توفي سنة ١٩١هـ[٤]. واختلف في روايته بين موثق له ومجرح في روايته، وكان من الخطباء المعدودين في صنعاء[٥] وقد تتلمذ عليه الشافعي في صنعاء في رحلته لطلب العلم وروى عنه[٦]، وأكد الشافعي

(١) البيهقي: مناقب الشافعي، ج٢، ص٤٢، الذهبي: تاريخ الإسلام ص١٤٩.

(٢) ابن سمرة الجعدي: طبقات فقهاء اليمن، ص١٥١.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦ – الفخر الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص٤٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٠٩ – ٢١٠. ابن حجر: توالي التأسيس، ص٦٢ – ٧١.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص٥٤٨، ابن حجر: توالي التأسيس، ج٥، ص٢١١.

(٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٨٣ – ٨٤.

(٦) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٠٩.

صحبته وأخذه عن مطرف حيث قال: "وقد كان من حكام الآفاق من يستحلف على المصحف وذلك عندي حسن، وقال: وأخبرني مطرف بن مازن بإسناد لا أحفظه أن ابن الزبير أمر بأن يحلف على المصحف، قال الشافعي رضي الله عنه " ورأيت ابن مازن – وهو قاضي صنعاء – يغلظ باليمين بالمصحف "[1]، وهذا يؤكد طلبه الحديث على مطرف بن مازن.

٢ ـ هشام بن يوسف:

وهو أبو عبدالرحمن هشام بن يوسف الصنعاني، الإمام الثبت قاضي صنعاء وفقيهها[2]. وهو من الأبناء، سمع معمراً وابن جريج، وهو من رواة الصحيح مات سنة ١٩٧هـ/٨١٢ م[3].

ذكره في شيوخ الشافعي كل من الخطيب البغدادي[4] والفخر الرازي[5]، والذهبي[6] والجندي[7] وغيرهم.

ويعد هشام من أقران عبدالرزاق بن همام الصنعاني – عالم اليمن – " لكنه أجلُ وأتقن"[8] وكان من علماء اليمن الكبار في الفقه والحديث،

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢١٠.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٩، ص٥٨٠ – ٥٨٢.
(٣) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص٦٧.
(٤) تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦.
(٥) مناقب الإمام الشافعي، ص٤٤.
(٦) سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص٧.
(٧) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج١، ص١٣٨ - ١٣٩.
(٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٩، ص٥٨٠.

أشار إلى ذلك عدد من المؤلفين، وتتلمذ على يديه عدد كبير من طلاب العلم في عهده[١]. وقد روى عنه الإمام الشافعي كما ذكر ذلك كل من المزي[٢]، والسيوطي[٣]، والذهبي[٤]. مما يجزم معه أن الشافعي قد تتلمذ على يديه، وأفاد من علمه.

ولقد أضاف لهما الفخر الرازي[٥] اثنين آخرين عدهما في مشائخ الإمام الشافعي من أهل اليمن، وهما عمرو بن أبي سلمة – صاحب الأوزاعي-، ويحيى بن حسان[٦] – صاحب الليث بن سعد -.

وبتتبع ترجمة العلمين المضافين لدى الرازي يتضح أنهما ليسا من أهل اليمن، بل عمرو بن أبي سلمة دمشقي رحل إلى مصر واستقر بها[٧]، ويحيى بن حسان فهو بصري رحل أيضاً إلى مصر ونزل تنيس فنسب إليها[٨]، والمصادر[٩] تذكر أن الشافعي روى عنهما فقد يكون

(١) انظر عنه ابن سعد الطبقات الكبرى: ٥٤٨/٧، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج١١، ص٥٢.

(٢) المزي، تهذيب الكمال، ص٢٦٨.

(٣) السيوطي: طبقات الحفاظ، ج١، ص١٥٠.

(٤) الذهبي: العبر في خبر من عبر، ج١، ص٢٥٣ – ٢٥٤.

(٥) مناقب الإمام الشافعي: ص٤٤.

(٦) وورد اسمه عند الخطيب البغدادي بـ (يحيى بن أبي حسان) وعده في مشائخ الشافعي (تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦).

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٠/ ص١٢٧.

(٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص١٢٧، التهذيب، ج١١، ص١٩٧.

(٩) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٢، ص٥٦، ابن حجر: توالي التأسيس، ص٦٨، ٧٠.

تلقى منهما في مصر أو في الشام أو غيرهما. إلا أنهما ليسا من أهل اليمن فلعل الرازي قد وهم في جعلهما من أهل اليمن.

بينما أضاف كل من البيهقي[١] وابن سمرة[٢]، وابن حجر[٣] والذهبي[٤] علماً آخر هو محمد بن خالد الجندي[٥] وهو من علماء اليمن المعروفين فيمن روى عنهم الشافعي وتتلمذ عليهم.

أعمال الشافعي في اليمن:

من خلال استعراض المصادر التي تناولت رحلة الإمام الشافعي إلى اليمن يتضح أنه قد مارس عدداً من المهام الإدارية والقضائية والمالية خلال فترات وجوده في اليمن وذلك إلى جانب طلبه للعلم – كما سبق بيانه –لقد أشار كل من البيهقي[٦]، والفخر الرازي[٧] وغيرهم إلى أن من أسباب خروج الإمام الشافعي من مكة إلى اليمن البحث عن عمل. حيث توضح رواية تلميذه الحميدي التي نقلها كل من المؤلفين السابقين وكذلك ابن حجر[٨] وغيرهم – وسبق ذكرها – أن الإمام

(١) مناقب الشافعي: ج٢، ص٣١٣.

(٢) طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦ –٦٧.

(٣) توالي التأسيس، ص٦٩.

(٤) سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٦٧.

(٥) انظر ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦ –٦٧،

(٦) مناقب الشافعي، ص١٠٦.

(٧) مناقب الإمام الشافعي، ص٣٩.

(٨) توالي التأسيس، ص.

الشافعي خرج مع والي اليمن للعمل معه، وأنه حين قدم اليمن استعمله الوالي قال: " فلما قدمنا – أي اليمن – استعملني على عمل، فحمدتُ فيه فزادني عملي"[1].

ولم تحدد الرواية هنا نوع العمل الذي تولاه الإمام الشافعي، ولا مكانه أيضاً. والذي يفهم من هذه الرواية أن الوالي قد كلفه بعمل أولي لعله قصد منه اختبار قدراته وإمكاناته في القيام بالأعمال الإدارية. ومعرفة مدى قدرته على تسييرها، ويظهر أن الشافعي قد حقق نجاحاً في عمله الذي كلف به ومن ثم زاد الوالي من الأعمال التي كلف الشافعي بها لذا قال الفخر الرازي نقلاً عن الشافعي: " واستعملني في أعمال كثيرة، جهدت فيها[2]".

أما القفطي[3] فقال: " استخدم في أحد الخدم الديوانية باليمن، فتوجه وأقام متولياً مدة ".

وفي ظل هذا الإبهام من المصادر يتعذر الجزم بتحديد المهمة التي أوكلت إلى الشافعي في اليمن خلال هذه الفترة، إلا أنها من مهام الديوان. وبما أن الشافعي من طلاب العلم – والعلم الشرعي تحديداً – فإذا قرنا ذلك مع الرواية التي تقول أن قاضي اليمن مصعب الزبيري هو

(١) البيهقي: مناقب الشافعي، ص١٠٦.

(٢) مناقب الشافعي، ص٣٩.

(٣) المحمدون من الشعراء، ج١، ص٤٠.

من اصطحبه معه إلى اليمن أمكن القول أن تلك المهمة كانت تتعلق بالقضاء وأموره، ولعلها تتصل بسجلات القضاء في المحكمة[١]

وأياً كانت طبيعة العمل الذي كلف به فقد أجاد الإمام الشافعي أداء العمل الذي كلف به بشكل جعل الناس تتناقل سيرته وعدله في عمله، وتثني عليه في ذلك – حتى بلغ الثناء عليه مكة مع القادمين من اليمن. يقول الشافعي: "وفد الناس في شهر رجب – إلى مكة – فأتوا عليَّ فطار لي به ذكر"[٢].

وقد وصل ذلك الثناء إلى شيوخه في مكة المكرمة[٣]، ورغم سرورهم بذلك، وسعادتهم بما حققه تلميذهم، إلا أن منهم من عاتبه على تركه لطلب العلم، ودخوله في الأعمال الإدارية ونحوها، مما رأوا أنه سيكون عائقاً له في التحصيل العلمي فنصحوه بالابتعاد عنها والتفرغ لطلب العلم وتحصيله لما رأوا من نبوغه وقدرته، حيث قال له شيخه سفيان بن عيينة – محدث مكة وعالمها – " قد بلغني حسن ما انتشر عنك، وما أديت كل الذي لله عليك فلا تعد"[٤]، أما شيخه مسلم بن خالد الزنجي – قاضي مكة – فقد زجره ووبخه و لم يرد السلام عليه

(١) حسين يوسف: نشأة المذهب الشافعي وتطوره تاريخياً، ص٥٢ .

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص١٢٠، ابن حجر توالي التأسيس، ص١٢٧ .

(٣) البيهقي، مناقب الشافعي، ج١، ص١٠٦ .

(٤) البيهقي، مناقب الشافعي، ص١٠٦. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص١٢٢.

وقال له: " أحدهم يجيئنا حتى إذا ظننا أنه يصلح أفسد نفسه"[1]، وكان ذلك من حرصه الشديد على أن يواصل الشافعي طلب العلم والتفرغ له لما عرف من نباهته وذكائه.

الشافعي في نجران:

لقد حقق الإمام الشافعي نجاحاً وتميزاً في الأعمال الديوانية التي كلف بها – كما سبق – ولذلك رأى والي اليمن أن يستفيد منه في مهام أعلى، لذلك وجهه إلى نجران قاضياً يقول الشافعي: "ثم ولّيت نجران وبها بنو الحارث بن عبدالمدان[2] وموالي ثقيف، وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه، فأرادوني على ذلك، فلم يجدوا ذلك عندي، وتظلم عندي ناس كثير "[3]. وباشر الإمام الشافعي مهام عمله قاضياً في نجران. ولم توضح المصادر السنة التي باشر فيها تلك المهمة بالتحديد إلا أنه يظهر من سياق النصوص أنه توجه إلى نجران بعد مدة من الزمن قضاها في الخدمة الديوانية.

---

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٩، ص٧٥ .

(٢) بنو الحارث بن عبدالمدان: هم بنو الحارث بن كعب بن عمرو، قبيلة قحطانية تسكن نجران، ومن بطونهم بنو عبدا لمدان (انظر: ابن السائب الكلبي: نسب معد واليمن الكبير، ج١، ص٢٦٨ – ٢٧٥. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٤١٦ – ٤١٧، كحالة: معجم قبائل العرب، ج١، ص٢٣١ .

(٣) البيهقي: مناقب الشافعي، ج١، ص١٠٦. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص١٢٣.

وحين وصل الشافعي إلى نجران واجه مشكلتان الأولى تمثلت في والي اليمن الذي أشارت بعض المصادر أنه كان سيء السيرة وأنه كان يرتكب المظالم - كما سيأتي بيان ذلك لاحقاً -.

وأما المشكلة الثانية فهي التي ذكرها الشافعي في النص أعلاه. إذ حاول ذوو النفوذ والمصالح الخاصة في نجران مصانعة الشافعي كما اعتادوا أن يفعلوا مع بعض من سبقه من الولاة والحكام في بلدهم حتى يستطيعوا الإبقاء على مصالحهم، غير أن سعيهم فشل، ومكرهم بطل، فلم يجدوا ذلك عند الشافعي، ولا استجاب لإغرائهم واستمالتهم، وصمم على إنفاذ الحق دون موارية ولا مجاملة.

ويبدو أن ضغط أولئك المتنفذين قد تواصل على الشافعي مما جعله يلجأ إلى طريقة خاصة لإجراء الأحكام والتأكد من نزاهة الشهود في القضايا التي تعرض عليه وتوثيقهم لذلك، يقول الشافعي وهو يبين تلك الطريقة التي لجأ إليها "فجمعتهم وقلت: اجتمعوا على سبعة منكم رجال عدول، من عَدَّلُوه كان عدلاً، ومن جَرَّحوه كان مجروحاً، فاجتمعوا على سبعة منهم، فجلست، وقلت للخصوم: تقدموا، وأجلست السبعة حولي فإذا شهد شاهد التفت إلى السبعة فقلت: ما تقولون في شهادته... "[1].

(١) انظر: ابن أبي حاتم: آداب الشافعي ومناقبه، ص٢٤ – ٢٥، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٩، ص٧٦ – ٧٧، البيهقي: مناقب الشافعي، ص١٠٦، ١٠٧ .

وبذلك رد الإمام الشافعي الأمر إلى الثقاة منهم، وحملهم بذلك مسؤولية الشهادة وقبولها مع عدمه.

ولا تسعفنا المصادر بمادة واضحة لتحديد المدة الزمنية التي قضاها الشافعي متولياً لقضاء نجران، غير أنه يمكن القول أنه قد قضى ما يقرب من خمس سنوات في مجمل هذه الأعمال من " الخدمة الديوانية" إلى قضاء نجران، وذلك خلال المدة التي اتفق المؤرخون أنه قضاها في رحلته هذه إلى اليمن أي من نهاية سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م بعد وفاة الإمام مالك إلى سنة حمله من اليمن وهي ١٨٤هـ/٨٠٠م [١].

حمل الشافعي إلى بغداد:

ورغم حسن سيرة الإمام الشافعي في أداء الأعمال التي كلف بها في اليمن سواءً في الأعمال الديوانية أم في القضاء والتي شهد له بها الكثير من أهل اليمن حتى تحدث بها في المواسم في مكة وحتى وصلت إلى مشائخه في كل من مكة والمدينة، إلا أن ذلك لم يرق لبعض أصحاب المصالح الخاصة الذين رأوا في سلوك الإمام خطراً على مصالحهم، ومن ثمَّ قرروا التخلص منه، فتأمروا عليه لدى الوالي الذي بدوره سعى به إلى الخليفة وكانت التهمة المكرورة جاهزة لتلصق بالإمام الشافعي حيث كتب والي اليمن إلى الخليفة بخوفه شأن العلويين ويذكر له شأن – الشافعي – ويقول " إن معه[٢] رجلاً يقال له

(١) عبدالغني: الإمام الشافعي. ص٩٣ – ٩٧ .

(٢) أي مع الثائر العلوي ولم تتفق المصادر على اسم واحد لهذا الثائر فالبعض يقول عبدالله

محمد بن إدريس، يعمل بلسانه ما لا يعمل المقاتل بسيفه، فإن كانت لك بالحجاز حاجة حملهم منها "[1] .

وأي تهمة أخطر وأجل من المساس بأمن الدولة ومحاولة الخروج عليها، أو الميل والتأييد للخارجين ضدها، لذلك وصل الأمر الخليفي العاجل أن يحمل هؤلاء النفر جميعاً بأسرع وقت إلى بغداد: "فورد الكتاب فحملت أنا والطالبي وجماعة معنا، فأدخلنا على هارون عشرة عشرة... "[2].

والرواية أعلاه تصرح أن حمل الشافعي إلى بغداد كان من الحجاز وليس من اليمن، ويؤيد هذه الرواية ما ذكره ابن عبد البر[3] حيث يروى بسند عن المزني عن الشافعي قال: "رفع إلى هارون الرشيد أن بمكة قوماً من قريش، استدعوا رجلاً علوياً كان باليمن ثم قدم مكة مجاوراً، فاجتمع إليه من قريش فتية جماعة يريدون أن يبايعوه ويقوموا به، فأمر الرشيد، أن يُكتب إلى عامله بمكة: أن يبعث إليه من مكة ثلاث مائة رجلٍ، كلهم من قريش مغلولة أيديهم إلى أعناقهم قال الشافعي،

=

بن الحسن والبعض يقول يحيى بن عبدالله الحسن، والبعض يقول يحيى بن الحسين وهكذا، والفترة ذاتها شهدت اضطراباً شديداً وعددٍ كبير من الثورات (انظر: أبو نعيم الحلية، ج٩، ص٨٦).

(١) البيهقي، مناقب الشافعي، ص١١٢.

(٢) البيهقي، مناقب الشافعي، ص١١٢.

(٣) الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، ج١، ص١٥٣.

فأشخصت فيمن أشخص مغلولا ".

كما يورد المؤلف الرواية ذاتها بسند مختلف عن السابق وإن كان فيها إيهام وتروى بالمعنى. مفادها أنه نقل من الحجاز[١].

وعلى هذا يكون موطن حمل الشافعي إلى بغداد من مكة أو الحجاز، ولكن التهمة والكيد به إنما كان من قبل بعض أهل اليمن فقد تابعته التهمة وحرص حساد الإمام[٢] على تتبعه للإيقاع به وإن كان خارج اليمن.

أما الرواية الأخرى فتؤكد أن حمله إلى بغداد كان من اليمن حيث يؤكد ذلك أبو حاتم الرازي[٣]، كما يؤكده أبو نعيم[٤] بقوله: "ذكروا أن الشافعي لما أحضر مع العلويين من اليمن"، ويؤكده أيضاً كل من الفخر الرازي[٥] والذهبي[٦] وغيرهم.

وعليه فإن هذه الرواية هي الرواية الأقوى وذلك لكونها تعود إلى مصادر أقدم، وتواضع عليها عدد كبير ممن كتب عن محنة الإمام الشافعي رحمه الله.

(١) ابن عبدالبر: الانتقاء، ص١٥٤.

(٢) آداب ومناقب الإمام الشافعي، ص٢٥، ٢٦.

(٣) آداب ومناقب الإمام الشافعي، ص٢٦ .

(٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٩، ص٦٨ .

(٥) ابن حجر: توالي التأسيس، ص٥٤.

(٦) سير أعلام النبلاء، ج١، ص٨٦.

وإذا كانت المصادر قد اختلفت في موطن نقل الشافعي إلى بغداد بعد اتهامه بتأييد الخارجين على الخليفة فإنها اتفقت على أن نقله إلى بغداد كان في سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م[١].

وتختلف المصادر بعد ذلك في تحديد المسؤول المباشر عن اتهام الشافعي، فترد رواية مفادها أن قاضي اليمن مطرف بن مازن هو الذي كتب إلى الرشيد يقول له: "إن أردت اليمن لا تفسد عليك فأخرج عنا محمد بن إدريس" وهذه الرواية ذكرها أبو نعيم[٢] ونقلها عنه آخرون من أبرزهم الذهبي[٣]، وابن حجر[٤] والسبكي[٥] وإذا صحت هذه الرواية فلعلها تكون من باب المنافسة بين الأقران، رغم أن الشافعي كان من تلاميذ مطرف ودرس على يديه - كما مر سابقاً- وفي نص الرواية ما يوحي بشيء من الغيرة التي ربما شعر بها مطرف تجاه الشافعي، وذلك لكثرة الجالسين له، وبروز شخصيته بشكل جعل طلاب العلم يميلون إليه فيما يبدو حيث يقول الشافعي " فلما صرنا إلى اليمن وجالسنا الناس كتب مطرف بن مازن إلى هارون الرشيد"[٦].

(١) ابن حجر: توالي التأسيس، ص١٣١.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، ٧٠/٩.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٨٦.

(٤) توالي التأسيس، ص١٢٨.

(٥) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص١٢١، ١٢٢.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٨٦.

أما الرواية الأخرى فقد وردت بصيغة المجهول، ولم تحدد شخصاً بعينه سعى بالشافعي حيث وردت مرة بصيغة " رُفع إلى هارون الرشيد..."[١]، وفي أخرى " ثم أن الحساد سعوا بي إلى هارون الرشيد"[٢].

ويظهر أن أصحاب هذه الرواية آثروا تجنب الخوض في تحديد المتسبب المباشر في هذه المحنة للإمام الشافعي نظراً لكثرة الروايات المنسوبة إلى الشافعي ذاته والمتضاربة فيما بينها.

أما الرواية الأكثر بروزاً عند المؤرخين وغيرهم فهي التي تجعل المتسبب في ذلك هو والي اليمن حماد البربري، فقد روى البيهقي[٣] قول الشافعي " وكان بها – أي اليمن – من قواد هارون رجل يقال له حماد البربري، فكتب إليه يخوفه شأن العلويين ويقول: إن معه رجلاً يقال له محمد بن إدريس، يعمل بلسانه ما لا يعمل بسيفه...".

وذكر الحموي[٤] رواية ترفع إلى الشافعي قال: "ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن وكان بها والٍ من قبل الرشيد، وكان ظلوماً غشوماً....فكتب الوالي إلى الخليفة يقول إن ناساً من العلوية قد تحركوا وإني أخاف أن يخرجوا، وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع

(١) ابن عبدالبر: الاكتفاء، ص١٥٣.

(٢) الفخر الرازي: مناقب الشافعي، ص٣٩.

(٣) مناقب الشافعي، ص١١٢.

(٤) معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٦.

المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي، قال: فكتب إليه هارون أن أحمل هؤلاء وأحمل الشافعي معهم، فقرنت معهم ".

كما روى ابن حجر[1] بسند إلى الإمام الشافعي قوله: "كتب حماد البربري إلى الرشيد: إذا كانت لك حاجة قبلنا – يعني باليمن – فاحذر محمد بن إدريس فإنه قد غلب على ما قبلي، ولو أراد الخروج لم يبق أحد إلا اتبعه، قال فحملت إلى الباب، واجتمع عليَّ أصحاب الحديث". واختلاف النص في هذه الروايات يظهر أن ذلك الوالي قد كرر الكتابة إلى الخليفة في شأن الشافعي عدة مرات، وبصيغ مختلفة، وكلها تتضمن التحير منه، وقوة تأثيره في الناس.

وعلى هذا تكون هذه الرواية هي الأبرز والأظهر فيمن كان السبب في اتهام الشافعي وحمله مقيداً من اليمن إلى بغداد.

أما عن سبب هذه الوشاية فقد وردت عدة روايات تنسب إلى الشافعي تفيد أن ذلك الوالي كان "ظلوماً غشوماً، وكنت ربما أخذ على يديه وأمنعه من الظلم" كما يقول الشافعي[2]، ولعل هذا ما أوغر صدر ذلك الوالي، وقرر التخلص من الشافعي من اليمن. وبما أن الإمام الشافعي كان يظهر مودته ومحبته لآل البيت – كما هو منهج الأئمة – دون غلو ولا مغالاة في موالاتهم [3]، فلعل الوالي - حماد البربري -

(١) توالي التأسيس، ص١٢٩.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٦، وابن حجر: توالي التأسيس، ص١٢٩.

(٣) انظر المناقشة المستفيضة التي عقدها الفخر الرازي عن اتهام الشافعي بالتشيع وإبطاله

وجد في ذلك مبرراً يستطيع من خلاله أن يقنع الخليفة بضرورة إخراج الشافعي من اليمن، لذلك وجه إليه تهمة موالاة العلويين، والخروج مع الثائر العلوي باليمن.

والذي يظهر من مجمل الروايات في هذا الموضوع أن الرغبة في إخراج الشافعي من اليمن لم تكن لدى الوالي فحسب وإنما كانت أيضاً لدى بعض الذين كرهوا طريقة ومنهج الشافعي في القضاء بنجران – كما سبق بيانه- ونتيجة لعدم استجابة الشافعي لهؤلاء الذين أرادوا أن يصانعهم، وأن يغض الطرف عن بعض تجاوزاتهم، لذلك خرجوا من نجران واتجهوا إلى مكة، وأخذوا يكيدون للشافعي ويدبرون له التهم. قال الشافعي: "فخرجوا إلى مكة، وعملوا في أمري حتى رفعت إلى العراق"[1]. ولعل مكر وسعي أولئك الناقمين على الشافعي في نجران كان هو الأشد والأنكى، إذ حرصوا – فيما يبدوا- على إيغار صدر الوالي من حين وصوله ضد الشافعي، وأخافوه منه، مما جعل الوالي يكتب في شأنه إلى الخليفة، حيث النص في هذا واضح وصريح، يضاف إلى ذلك أن حماداً البربري ولي اليمن في ذات السنة التي حُمل فيها الشافعي إلى بغداد وهي سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م. مما يجعل العلاقة مع الشافعي قصيرة جداً، بل لقد حدد الطبري[2] الشهر الذي عين فيه

=

لتلك التهمة بأدلة واضحة (مناقب الإمام الشافعي ص ٣٥-٣٩).

(١) البيهقي: مناقب الشافعي، ص١٠٧. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص١٢٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، ص٧٠ – ٧١. وكانت ولاية حماد من ١٨٤ – ١٩٢هـ.

الرشيد حماداً على مكة واليمن وهو شهر جمادى الآخرة من سنة ١٨٤هـ، بينما حدد الفخر الرازي التاريخ الذي أدخل فيه الشافعي إلى بغداد "بليلة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة أربع وثمانين ومائة "[١].

وبذلك تكون الفترة التي عاصر فيها الشافعي ولاية حماد على اليمن قصيرة جداً لا تتجاوز الثلاثة أشهر على أطول حال، وهذا على افتراض أن حماداً قد توجه إلى اليمن بعد تعيينه والياً على مكة واليمن مباشرة دون المكوث في مكة.

وأياً كان المتسبب فقد حمل الشافعي من اليمن إلى العراق نتيجة تلك الوشاية التي دبرها ضده أعداؤه وحاسدوه، ليصل إلى بغداد موثقاً في الحديد، ويمثل أمام الخليفة هارون الرشيد الذي استجوبه عما اتهم به من تهم، فردها الشافعي بأدلة دامغة جعلت الخليفة لا يعفو عنه فحسب، بل يصله ويكرمه، ويصبح من جلسائه ووعاظه[٢].

عودة الشافعي إلى اليمن:

يذكر البيهقي[٣] أن الخليفة هارون الرشيد " طلب رجلاً يقوم بصدقات اليمن، فأشار عليه محمد بن الحسن بالشافعي، وقال: هو رجل فقيه عالم، ويجمعه وأمير المؤمنين عبد مناف بن قصي فقال

(١) الفخر الرازي، مناقب الشافعي، ص٧١.

(٢) ابن عبدالبر: الاكتفاء، ص١٥٣ – ١٥٤، الفخر الرازي: مناقب الشافعي، ص٧١ – ٧٣.

(٣) مناقب الشافعي، ج١، ص١٤٢.

الرشيد: عليَّ به "، ثم ذكر خروجه إلى اليمن وإقامته بها حولاً كاملاً.

ويبدأ البيهقي[1] هذه الرواية بقوله: "أن الرشيد بعدما عفا عن الشافعي في الكرة الأولى طلب رجلاً... " وهذا يشير إلى أن الشافعي كان قد حدث بينه وبين الرشيد سواءً من قبل وأن الخليفة هارون الرشيد قد عفا عنه في الكرة الأولى" وأعاده الآن إلى اليمن جابياً للصدقات من أهل اليمن.

ولم يبين البيهقي في حديثه هذا ما هي الكرة الأولى التي يعنيها بقوله: "قد عفا عنه في الكرة الأولى" ولعله يقصد بذلك نقل الشافعي إلى الرشيد متهماً بالخروج مع أحد الثوار العلويين وهو ما اتهم به في المرة الأولى كما سبق بيانه.

ويورد البيهقي[2] هذه الرواية بصيغة أخرى حيث يقول:" أراد هارون الرشيد أمير المؤمنين أن يوجه جباة أمناء إلى اليمن، فجعلوا يطلبون أمناء صالحين فجمع ستة نفر، وضممت غليهم وأنا أصغرهم سناً، فوجهنا إلى اليمن في جباية خراجها، فجعلنا نأخذ من أغنيائها فنرد على فقرائها استعمال حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – حين بعث معاذاً إلى اليمن ". وقد أمضى في تلك المهمة حولاً كاملاً.

وتؤكد الرواية على أن الإمام الشافعي قد سار في جبايته لخراج

(١) مناقب الشافعي، ج١، ص١٤٢.

(٢) مناقب الشافعي، ج١، ص١٤٤ – ١٤٥.

اليمن بسيرة معاذ بن جبل حينما بعثه النبي عليه الصلاة والسلام والياً على اليمن[1]، حيث كان يجمع الخراج من الأغنياء ويفرقه على الفقراء، ونظراً لكثرة الفقراء والمحتاجين فقد كان الخراج ينفذ في اليمن ولا يتبقى منه شيء يرسل إلى الخلافة في بغداد[2]. وهذا ما أثار حفيظة بعض المتنفذين في بلاط الخليفة، ومن ثمَّ اتهموا الشافعي ومن معه من الجباة بأنهم لا يراعون حق خزينة الدولة في الخراج، وأنهم لم ينفذون أمر الخليفة كما أمرهم، وشككوا من ثمَّ في نزاهتهم، بل ربما استغلوا ذلك في الطعن في ولاء أولئك الجباة للخلافة. " فقيل لأمير المؤمنين: إن الجباة الذين بعثتهم لا يوجهون إلى بيت المال شيئاً: قال: فاغتاظ لذلك، فقال يشخصون إلينا. فرددنا. فلما رجعت أحسست بالقتل، أو بأمر عظيم "[3].

ولذلك حمل الشافعي ومن معه من اليمن إلى بغداد وعرضوا على الخليفة للتحقيق معهم في الأمر. وقد رجح البيهقي أن السبب في ذلك هو المال حيث قال: "وأن الغاية به وبأصحابه كانت لأجل المال"[4].

---

(١) عن تعيين معاذ بن جبل – رضي الله عنه – على اليمن انظر:
- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص٩٧.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٤٧ – ٣٥٠.
- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٥٩٠ – ٥٩١.

(٢) ابن الديبع: قرة العيون، ص١١٧ - ١١٨.

(٣) البيهقي: مناقب الشافعي، ج١/ص١٤٢ .

(٤) مناقب الشافعي: ج١، ص١٤٤.

وتؤكد هذه الرواية أنه كان للشافعي رحلة أخرى إلى اليمن كعامل للخليفة على جباية الخراج، وإن كانت الرواية لم تبين متى كانت هذه الرحلة، إلا أن السياق الذي بدأ به البيهقي الرواية يدل على أن هذه الرحلة تالية لرحلة سابقة له إلى اليمن بدليل قوله "في الكرة الأولى".

وللجمع بين الروايات المتباينة في حمل الشافعي إلى بغداد والتهم التي وجهت إليه يمكن القول أن الإمام الشافعي حمل متهماً إلى بغداد مرتين، أما المرة الأولى فقد كانت بعد توليه مهمة القضاء في نجران، وما اتسم به من صلابة وقوة أمام أهل الأهواء والمصالح الذين ساوموه على تلك المصالح فلم يجدوا فيه مطمعاً، ومن ثمَّ أخذوا يكيدون له بكل ما أوتوا، وساندهم في ذلك الوالي الذي تعرض هو الآخر لنقد الشافعي علناً ومنعه من الظلم والجور. هنا التقت مصلحة هؤلاء جميعاً في إخراج الشافعي من اليمن، ومن ثمَّ اتهموه بالميل إلى العلويين، وطعنوا في ولائه للخليفة العباسي هارون الرشيد، وبذلك حمل الشافعي في هذه المرة سواءً كان موطن حمله اليمن أو كان قد غادرها إلى الحجاز ومكة قبل أن يصل أمر القبض عليه، ومن ثمَّ قبض عليه وأرسل مكبلاً بالحديد إلى بغداد بتهمة عظيمة جداً كادت أن تؤدي بحياته. ولعل هذه المرة هي التي أشار إليها البيهقي[1] بقوله: "بعدما عفا عن الشافعي في الكرة الأولى".

(١) مناقب الشافعي، ج١، ص١٤٢.

أما المرة الثانية التي حمل فيها الشافعي من اليمن إلى بغداد فقد كانت بعد أن اختاره الخليفة ليكون ضمن الجباة الذين كلفوا بالخروج إلى اليمن لجباية الخراج من أهلها، وهنا يصطدم الشافعي مرة أخرى بالمتنفذين وأصحاب المصالح والأهواء الذين لم يرق لهم منهج الشافعي ومن معه من الجباة في طريقة توزيع الأموال المحصلة من الخراج – رغم أنه سعى في ذلك بالمنهج الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم – إلا أن ذلك لم يوفر لخزينة الدولة ما كانت تتوقعه من خراج اليمن، ومن هنا يبدأ أولئك النفر السعي بالشافعي من جديد لدى هارون الرشيد، وتكون التهمة في هذه المرة مالية صرفة " وأن الغاية به وبأصحابه كانت لأجل المال"[1]، وإن كان لا يبعد أنها غلفت أيضاً بجانب سياسي، وعلقت على جانب الميل للعلوية هذه التهمة المستفزة للدولة بشكل مثير جداً.

(١) البيهقي، مناقب الشافعي، ج١، ص١٤٤.

الخاتمة

يتضح من مجموع الروايات أنه كان للإمام الشافعي ثلاث رحلات إلى اليمن، أما الأولى فقد كانت لطلب العلم حيث طلب خلالها علوم العربية وأشعار العرب كما طلب علم الفراسة - حتى جمع فيه كل ما وجده وأجاد فيه، كما درس الحديث والفقه على أيدي عدد من علماء اليمن الذين سبق ذكرهم في مشائخه باليمن

والذي يظهر أن هذه الرحلة كانت في فترة مبكرة من عمر الإمام الشافعي وأنها كانت قبل خروجه إلى المدينة المنورة وأنه في هذه الرحلة اهتم بطلب الشعر وعلوم العربية وعلم الفراسة. ثم انتقل من اليمن إلى المدينة المنورة بصحبة قريبه مصعب بن عبدالله الزبيري، يؤيد هذه الرواية التي أوردها الحموي[1] من أن مصعب الزبيري خرج إلى اليمن فلقي محمد بن إدريس الشافعي. قال فقلت له إلى كم هذا؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك، وانصرفت به معي إلى المدينة فذهبت به إلى مالك بن أنس ".

أما الرحلة الثانية فقد كانت فراراً من الفقر وطلباً للولاية والرزق وقد عمل خلالها في عدد من الأعمال الديوانية – وإن لم تحدد تلك الأعمال ولا مكانها من اليمن – ثم عمل بعدها قاضياً في نجران

(١) معجم الأدباء ج٦، ص٢٣٩٤.

فحسنت سيرته بها، وظهر عدله وحرصه على الإنصاف بين المتحاكمين[1]. وإن كان ذلك لم يسر بعض المتنفذين وأضر بمصالحهم ولذلك سعوا به إلى والي اليمن الذي سعى بدوره عند الخليفة هارون الرشيد حتى حمل الشافعي مقيداً بالحديد إلى بغداد بتهمة محاولة الخروج على الدولة وتأييد الثوار العلويين المناوئين للخلافة العباسية.

وقد ختمت تلك التهمة بالعفو عن الإمام الشافعي من قبل الخليفة حين بيّن له عدم صحة تلك التهمة وكان للإمام محمد بن الحسن الشيباني دور كبير في تصحيح الصورة عن الإمام لدى الخليفة.

أما الرحلة الثالثة فقد كانت في مهمة رسمية بتكليف مباشر من الخليفة وذلك حينما أراد الخليفة أن يعين جُباة يتولون جمع الخراج من اليمن، فكان الإمام الشافعي أحد المختارين لهذه المهمة وقد أحسن السيرة في تنفيذ هذه المهمة حيث سار فيها وفق ما رسمه المصطفى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه. غير أن ذلك استنفذ كل أموال الخراج وبالتالي لم يفيض له بهم ما يمدون به خزينة الدولة مما جعل الوشاة يتهمون الإمام الشافعي ومن معه بعدم موالتهم للدولة وميلهم عنها إلى أعدائها من العلوية، لذلك حمل الشافعي مرة أخرى من اليمن إلى بغداد بتهمة التقصير في جمع الخراج وعدم الوفاء

(١) الفخر الرازي، مناقب الإمام الشافعي، ص٣٩ .

للخزينة بما كانت تنتظره من أموال اليمن، ثم قرنت بميله إلى العلويين ضد الدولة، تلك التهمة التي كانت تثير حفيظة الخليفة بشكل كبير والتي ذهب في أتونها الكثير.

ويتضح من مجمل الروايات أن الشافعي كما طلب العلم في اليمن وجلس في حلقات العلماء والمشائخ الذين تتلمذ على أيديهم في اليمن – ممن سبق ذكرهم أعلاه – فهو أيضاً كان يجلس للناس، ويلقي الدروس والمواعظ، وقد مال إليه الناس وأحبوه، وكثرت الجموع حوله.

إلا أن الأمر الغريب أن المصادر التي تمكنت من الاطلاع عليها لم تذكر أحداً من تلاميذ الشافعي في اليمن، كما لم تشر إلى أي من المؤلفات التي يمكن أن يكون قد كتبها خلال هذه الفترة، ولعل ذلك يدعو إلى القول أن الشافعي في هذه المرحلة لا زال في بداية طلبه للعلم، ولم يكن قد بلغ مرحلة التأليف، رغم أن المصادر تذكر أن الشافعي أفتى بمكة وهو في سن صغيرة. وقد يكون لتركيز الشافعي أثناء وجوده في اليمن في رحلة طلبه للعلم على تعلم علوم الفراسة والنجوم ثم رجوعه عن ذلك وإتلافه لما جمعه من كتبها – كما ذكر البعض – دور في ذلك الإعراض للمصادر.

وأشارت المصادر إلى أن الشافعي قدم من اليمن وهو يحمل مبالغ مالية كبيرة – عشرة آلاف إلى عشرين ألف دينار[1] – كما سبق بيانه،

(١) ابن أبي حاتم الرازي: آداب الشافعي ومناقبه، ص٩٤ .

وكان ذلك في مرات مختلفة، وبما أن الأعمال الرسمية التي كلف بها الشافعي في اليمن – الديوان والقضاء – ليست مضنة جمع مثل هذه المبالغ الكبيرة، وإلى جانب ذلك فقد أكدت المصادر أن الشافعي كان قليل المال بل كان فقيراً معدما، كما كان سخياً معطاءً إذا توفر المال عنده، فإن هذا يدعو للتساؤل هل كان للشافعي مصدراً آخر للدخل، هل كان مثلاً يعمل في التجارة خاصة وأنه قد ورد عن الشافعي قوله: " أفلست في عمري ثلاث إفلاسات، فكنت أبيع قليلي وكثيري، حتى حليَّ ابنتي وزوجتي، ولم أرهن قط"[1]. وروى صاحب الحلية[2] عن الشافعي قوله " أفلست في دهري ثلاث مرات، وربما أكلت التمر بالسمك". ووردت لدى الذهبي[3] رواية نصها " كان الشافعي أسمح الناس، يشتري الجارية الصَّنّاع التي تطبخ وتعمل الحلواء... الخ ". ولعل في هذا إيحاء أنه كان له مصدر رزق يعتمد عليه غير الوظائف والهبات، فالإفلاس لا يكون للفقير.

غير أن المصادر لم تشر بشكل مباشر إلى شيء من هذا وبالتالي لا نستطيع الجزم بذلك. إلا أن ذلك لا يمنع من القول أن الشافعي ربما قرن خروجه إلى اليمن لطلب العلم أو الولاية والعمل بأهداف أخرى تخصه.

(١) ابن أبي حاتم: آداب الشافعي ومناقبه، ص٩٤.

(٢) أبو نعيم، ج٩، ص١٣٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٣٩ .

قائمة المراجع

- البيهقي: أبو بكر احمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ).
- مناقب الشافعي. تحقيق السيد احمد صقر (مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت).
- الجعدي: عمر بن علي بن سمرة الجعيدي (بعد ٥٨٦)
  - طبقات فقهاء اليمن. تحقيق فؤاد سيد (دار القلم، بيروت، د.ت).
- الجندي: أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي (ت ٧٣٢ هـ).
  - السلوك في طبقات العلماء و الملوك،تحقيق محمد بن علي الاكوع (ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م).
- ابن الجوزي: جمال الدين ابي الفرج (٥٩٧ هـ)
- صفة الصفوة. تحقيق: محمد دقا خوري و محمد رواس قلعه جي (دار المعارف حلب ١٩٧٠ م)
- ابن حجر: الحافظ أبو الفضل احمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)
- تهذيب التهذيب. باعتناء إبراهيم الزئبق وعادل مرشد (مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت)
- توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس،تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي (ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م).
- ابن حزم: محمد بن علي بن احمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ)

o جمهرة انساب العرب.
▪ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ / ١٩٨٨ م).
- الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ)
▪ معجم الأدباء.
- تحقيق: إحسان عباس، (دار الغرب الإسلامي، د.ت).
- معجم البلدان
- (دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- الحميري: محمد بن عبدالمنعم الحميري (ت ٧٢٧ هـ).
▪ الروض المعطار في خبر الاقطار.
▪ تحقيق حسين العباس (ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤ م).
- الخزرجي: شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢ هـ)
▪ العسجد المسبوك فيمن إلى اليمن من الملوك.
- (طبعة ثابتة مصورة من المخطوط ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).
- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ)
● تاريخ بغداد أو مدينة السلام
- (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت).
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١ هـ).
▪ وفيات الأعيان و أنبأ أبناء الزمان.

- تحقيق إحسان عباس (دار صادر، بيروت، ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧ م).

- ابن خياط: أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي (ت ٢٤٠هـ).

- تاريخ خليفة بن خياط.

- تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧ م).

- ابن الديبع: أبو الضياء عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي (ت٩٤٤)

- قرة العيون بأخبار اليمن الميمون.

- تحقيق: محمد علي الأكوع (ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م).- الذهبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (٧٨٤ هـ)

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.

- تحقيق:بشارعواد (ط ١، دار الغرب الاسلامي، ١٤٢٤/ ٢٠٠٣م.)

- سير أعلام النبلاء.

- تحقيق: محمد تميم العرقوسي (ط ٨ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م).

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال.

- تحقيق: علي محمد البجاوي (دارالمعرفة، بيروت، ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م).

- الرازي: أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧)
o آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق:عبدالغني عبدالخالق (ط١،
o دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م).
- الفخر الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦).
■ مناقب الإمام الشافعي.
- (ط١، القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م).
- السبكي: تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت ٧٧١ هـ)
■ طبقات الشافعية الكبرى
- تحقيق: عبدالفتاح الحلو، محمود محمد الطناحي).
- ابن سعد: محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ).
■ الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت، د.ت).
- السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)
■ طبقات الحفاظ.
- (ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣ م)
- الشيرازي: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشافعي (ت ٤٦٧ هـ)
■ طبقات الفقهاء.
■ تحقيق: إحسان عباس (دار الرائد العربي، بيروت د.ت)
- الطبري: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)
■ تاريخ الامم و الملوك.

- (دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م).
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)
o الوافي بالوفيات.
■ تحقيق أحمد الأرناووط و تركي مصطفى (ط١، دار احياء التراث
■ العربي، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م).
- ابن الصلاح: أبو عمرو بن عبدالرحمن الشهرزوري (ت ٦٤٣ هـ)
■ علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر
■ (دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٠ م).
- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي (٤٣٦هـ)
■ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، ط١ (دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.).
- ابن عساكر: الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله الشافعي (ت ٥٧ هـ)
■ تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي.
- (ط١ دار الفكر، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م).
- عياض: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ)
o ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك.
- تحقيق: أحمد بكير محمد ج١ (دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت)
- ابن فرحون: ابراهيم بن نور الدين المالكي (٧٩٩هـ)

- الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب.
- دراسة وتحقيق: مأمون محي الدين الجنان، (ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.)
- القفطي: أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)
- المحمدون من الشعراء و اشعارهم
- (تحقيق حسن معمري، مراجعة حمد الجاسر (١٣٩٠هـ /١٩٧٠ م)
- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١).
- مفتاح دار السعادة و منشور ولاية أهل العلم و الإرادة.
- تقديم و ضبط: علي بن حسن بن علي الآثري مراجعة: بكر بن عبدالله أبو زيد (ط١، دار ابن عفان، الخبر، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م)
- أبو نعيم: الحافظ أبو نعيم احمد بن عبدالله الأصفهاني (ت ٤٣٠)
- حلية الأولياء و طبقات الأصفياء.
- (ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م)
- النووي: أبو زكريا محي الدين بن شرف (ت ٦٧٦ هـ)
- تهذيب الأسماء و اللغات.(دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت)
- ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ)
- السيرة النبوية.
- تحقيق مصطفى السقى و ابراهيم الابياري و عبدالحفيظ شلبي (مؤسسة دار القران،بيروت، د.ت)

- الهمداني: الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (٣٤٤ هـ).
  - صفة جزيرة العرب.
  - تحقيق محمد بن علي الأكوع (دار اليمامة، ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧ م).
- ابن أبي يعلى: أبو الحسين محمد بن أبي يعلى البغدادي الحنبلي (ت ٥٢٦ هـ)
  - طبقات الحنابلة.
- تحقيق: عبدالرحمن سليمان العتيبي (مكة المكرمة، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م).
- الكبيسي: محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨)
  - اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية.
- تحقيق: خالد أبا زيد الأذرعي (ط١، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٤٠٦ هـ / ٢٠٠٥ م).
- ابن كثير: أبو الغداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)
  - البداية و النهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم، علي نجيب عطوى، فؤاد
  - السيد مهدي ناصر الدين (ط١، دار الريان للذات، القاهرة، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م)
- الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت (٢٠٤ هـ)
- نسب معد و اليمن الكبير.
- تحقيق: ناجي حسن (ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م)

المراجع

- ـ حيدر: أسد.
- الامام الصادق و المذاهب الاربعة.
- (ط١، دار الكتاب الاسلامي، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م)
- الدوقر: عبدالغني.
- الإمام الشافي فقيه السنة الأكبر.
- (ط٦، دار القلم، دمشق، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م).
- الزركلي: خير الدين الزركلي.
- الأعلام.
- (ط٦،دار العلم، بيروت، ١٩٨٤ م)
- ابو زهرة: محمد.
- الشافعي حياته و عصره، آراؤه وفقهه.
- (ط٢،دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م)
- عبدالمتعالي: محمد بن علي.
- دليل الاسماء القديمة للقرى و الهجر و الأماكن العامة المتعارف عليها تاريخيا في منطقة عسير. (أبها ١٤٣٣ هـ) .
- يوسف: حسين عبدالامير.
- نشأت المذهب الشافعي و تطوره تاريخيا.
- (المركز العلمي العراقي، بغداد، د.ت).

بنوشـــهيد
ودورهم الإداري والعسكري في الأندلس
خلال عصر الإمارة الأموية
١٣٨-٣٠٠هـ/ ٧٥٥-٩١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عقب سقوط الدولة الأموية في المشرق فر عدد من أبناء البت الأموي هرباً من بشط بني العباس، وكان الأمير عبد الرحمن بن معاوية – الداخل- من ضمن الفارين، حيث اتجه إلى بلاد المغرب، وهناك كمن فترة من الزمن يستطلع أخبار الأندلس، ويتحسس الأنباء عنها وعن قوتها وأوضاعها الداخلية، حتى إذا تهيأت له الفرصة خرج إلى ألأندلس فاستولى عليها، وشرع في تأسيس حكم ثابت الدعائم له ولأولاده من بعده.

وبما أن المهمة كانت في غاية الصعوبة، خاصة وأنه كان وحيداً من الأعوان، خلواً من الأصحاب، فقد احتاج إلى رجال أوفياء، مخلصين له، يعتمد عليهم في مساعدته في تنفيذ مشروعه السياسي الكبير، لذا أخذ يبحث عن من وجد في الأندلس من خاصة بني أمية الموالين لهم، الذين لا زالوا على وفائهم للأمويين، فاصطفى منهم من قرب منه، ووثق في إخلاصه، وأسند إليهم المهام الجسام في استكمال فرض سيطرته على الأندلس،وكان من هؤلاء الرجال شهيد بن عيسى – مولى معاوية بن مروان – رأس أسرة بني شهيد في الأندلس وجدهم الذي ينسبون إليه، وأول من ظهر من هذه الأسرة على مسرح الأحداث في

الأندلس فكان- هو وأمثله - ساعد الأمير الداخل الأيمن في بناء دولته التي استمرت ما يقرب من ثلاثة قرون من الزمن، ومن نسل هؤلاء الرجال برزت أسر شهرت في التاريخ الأندلسي بأثرها الواضح في سير الأحداث في الأندلس بصفة عامة، وبمرور الزمن أضحت تلك الأسر من ذوات الجاه والمكانة.

ومن تلك الأسر أسرة بني شهيد التي يحاول هذا الموضوع تتبع الدور الذي أسهمت به في الأندلس منذُ ظهورهم على مسرح الأحداث في زمن الأمير عبدالرحمن الداخل إلى نهاية عصر الإمارة الأموية في منتهى القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي، وذلك في ميدانين من أظهر الميادين التي برز فيها بنو شُهيد وهما الميدان الإداري والميدان العسكري بداءً بمناقشة بداية ظهور هذه الأسرة وما أثير حول نسبها. ثم يَفصل الحديث عن أبرز الشخصيات التي ظهرت من بني شهيد خلال عهود الأمراء الأمويين، والمهام التي اضطلعوا بها، والمناصب التي تقلدوها، والعلاقة التي ربطت بين أفراد هذه الأسرة وبين حكام الأندلس الأمويين الذين أخلص لهم بنو شُهيد – كل الإخلاص – وقدموا لهم من الخدمات الشيء الكثير الذي نال رضا أمراء بني أمية على تتابعهم، وأثمر ذلك عن ثقة كبيرة أولاها بنو أمية لأفراد هذه الأسرة في مواقع متعددة من إدارات دولتهم.

وقد ظلت هذه الثقة بين بني أمية – حكام الأندلس – وبني شهيد

مستمرة طوال العهد الأموي في الأندلس مما مكن أفراد هذه الأسرة من تولي عدد كبير من الخطط الرئيسة والمهام الكبيرة في الدولة من أمثال «الحجابة والوزارة وخطة المدينة وخطة الخيل، وولاية الأقاليم، وقيادة الجيوش، ومحاربة الخارجين على الحكم الأموي في الأندلس، والمشاركة في الحملات الجهادية والدعوة لها. إلى غير ذلك من الخطط والمهام الجسيمة، مما يشف عن دور سياسي وعسكري كبير أسهمت به هذه الأسرة في خدمة الدولة الأموية في الأندلس منذ بدايتها على يد عبدالرحمن الداخل إلى سقوطها في عام ٤٢٢هـ بل استمر هذا الدور في عصر الطوائف، غير أن حديثنا في هذا البحث سوف يقتصر على عصر الإمارة فحسب.

وفي الجانب الحضاري ضربت هذه الآسرة بحظ وافر وسهم عالٍ في بناء الحضارة الإسلامية في الأندلس سواءً كان ذلك بالتأليف أو التدريس والرواية، أو كان بالإنتاج الأدبي (الشعري) الكبير الذي مثله أفراد هذه الأسرة التي برز منها عدد كبير من الشعراء والأدباء والمؤرخين طوال عصر الدولة الأموية وبعدها. إلى انتهاء ذكر هذه الأسرة. غير أن هذا الدور العلمي لهذه الأسرة كان أكثر بروزاً وظهوراً في عصر الخلافة الأموية وسوف يكون -بإذن الله- موضوعاً لبحث آخر، وإن لم يخل عصر الإمارة – هذا – من جوانب حضارية مشرقة لهذه الأسرة.

وخلصت في نهاية البحث إلى تسجيل عدد من النقاط – النتائج – التي توصلت إليها من خلال استقراء تلك النصوص الواردة في المصادر وتحليلها، وهي تمثل في حقيقتها آراء الباحث الشخصية التي توصل إليها بعد القراءة المتأنية والموسعة في عدد من المصادر والمراجع التي مست الموضوع أو ما شابهه..

وقد حاولت قدر طاقتي التركيز على المصادر الأولية القريبة من فترة البحث الزمنية لاستخراج المعلومات منها وتحليلها وربطها ببعضها البعض، دون الرجوع إلى المراجع الحديثة إلا عند الضرورة التي لا بد منها في مثل بعض التفصيلات التي لم أر لإيرادها في متن البحث كبير أهمية. والله الموفق.

نسب بني شُهيد :

ضُبط اسم هذه الأسرة لدى كل من ابن القوطية[1] والحميدي[2] وابن خاقان[3] بضم الشين وفتح الهاء وسكون الياء (شُهَيْد) -٠ تصغير شَهيد، وهذا هو الضبط الغالب لهذا الاسم في أغلب المصادر التي اطلعت عليها[4].

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٠.

(٢) جذوة المقتبس، ج١، ص ٢٣٣.

(٣) مطمح الأنفس، ص ١٨٩.

(٤) انظر أيضاً: ابن بشكوال: الصلة، جـ١، ص ٣٣٨.

وإن كان ورد في أحايين نادرة بفتح الشين (شَهيد) إلا أنه يبدو من باب الخطأ في الكتابة. وعليه فسوف نأخذ في إيراد اسم هذه الأسرة بالضبط الأغلب – وهو الأصح فيما يبدو لي – وهو ضم الشين. (شُهيد). والنسبة إليه (الشُّهيدي)[1] بضم وتشديد الشين.

وهم بهذا ينسبون إلى جدهم الأقرب شُهيد بن عيسى بن شُهيد بن الوضاح الأشجعي[2] الذي دخل إلى الأندلس مع عبدالرحمن الداخل[3].

أما النسب الأعلى لهذه الأسرة فهو يعود إلى قبيلة أشجع العربية التي هي فرع من

قبيلة قيس العربية الشهيرة[4] حيث تذكر المصادر أنهم يعودون إلى جدهم الأعلى الوضاح ابن رزاح الأشجعي[5].

=

- ابن الأبار، الحلة السيراء، ط، ٢٣٧.
- المقري: نفح الطيب جـ٤، ص ٤٦.

(١) الحميدي: المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٢٥.

(٢) ابن الأبار: المصدر نفسه، جـ١، ص٢٣٧.

(٣) ابن الأبار: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٣٨، الحميدي: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٠٩.

(٤) وقبيلته أشجع تنسب إلى أشجع بن رَيت بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . انظر (ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٩) وكان أفراد من هذه القبيلة وبيوتات منها ضمن القبائل العربية الداخلة إلى الأندلس وبرز منهم عدد من الرؤساء مثل: محمد بن عبالله الأشجعي الذي ولي الأندلس لمدة شهرين في عصر الولاة (انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص٢٨، المقري، المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٢٥).

(٥) الوضاح بن رزاح الأشجعي، كان من ضمن الخارجين على بني أمية الذين قاتلوهم في

وهم بهذا النسب الذي أورده جل المؤرخين عرب أقحاح ولم أرى من خالف في ذلك سوى المقري [1] الذي يورد رواية أخرى حيث يقول عن شهيد بن عيسى جد بني شهيد هؤلاء «كان من سبي البربر، وقيل أنه رومي» ثم يعقب على ذلك بقوله : «وبنو شُهيد الفضلاء من نسله»[2].

غير أنه لم يبين المصدر الذي اعتمد عليه في روايته هذه فضلاً عن كونه يسوق الخبر بصيغة التضعيف «قيل» مما يدل على عدم وثوقه من هذه الرواية.

وقد أشار البعض إلى أنهم من الموالي اعتماداً على ما أورده ابن الأبار[3] نقلاً عن الرازي حيث قال « وقال الرازي إن جدهم مولى

=

معركة مرج راهط سنة (٦٥هـ) تحت قيادة الضحاك بن قيس . وقد أسر الوضاح في هذه المعركة لدى بني أمية ثم منَّ عليه مروان بن الحكم وأطلقه من أسره .

انظر: الضبي: بغية الملتمس، جـ١، ص ٢٣٨.

ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٦٣، ص ٤٢ .

ابن الأبار:المصدر السابق: جـ١، ص ٢٣٧-٢٣٨.

وانظر تفصيلات تلك المعركة الفاصلة في كل من:

- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٧-٤٣.
- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، ص ٢٤٥-٢٤٦.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ، ص ٣ . ص ٣٢٨-٣٢٩.
- الصلابي: الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، جـ١، ص ٧٣١-٧٣٤.

(١) المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٦.

(٢) المقري: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٨.

معاوية بن مروان بن الحكم».

والذي يظهر لي بعد تتبع قضية النسب لهذه الأسرة أن الأصح في نسبهم أنهم عرب أحرار ينتسبون إلى الوضاح بن رزاح الأشجعيَ. وأن ما ذكرته بعض المصادر من كونهم موالي لا يقصد به ولاء الرق والعبودية وإنما يقصد به الموالاة والتبعية. ومما يدل على ذلك ما يلي:

١- اتفاق معظم المصادر[١] على نسبتهم إلى الوضاح بن رزاح أي إلى قبيلة أشجع العربية.

٢- ذكر الحميدي[٢] أن لشهيد بن عيسى شعراً يفخر فيه بقبيلة قيس العربية ونسبته إليها. وكذلك ورد لأبي عامر بن شهيد عدد من الأبيات الشعرية التي فخر فيها بنسبه إلى قبيلة أشجع[٣].

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، جـ١، ص ٣٧٠ – الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص ١٨-١٩٠. ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٢٣٧ .- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص ١٧، ص ٥٠١-٥٠٢،– ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص١٥٨.ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٦٣، ص٤٢.ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ١١٦-١١٧.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ٣٧٠.

(٣) ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع (ص ٩٨) كما أنه في هذه الرسالة الخيالية يفخر بأن قرينه من الجن ينتسب أيضاً إلى قبيلة أشجع في عالم الجن فأشجع في نظره قسمين قسم من الجن وقسم من الأنس، وأشار في مواضع كثيرة من رسالته هذه إلى أن الجن كانوا ينادونه (بأشجعي) دليلاً على نسبه العربي . (وانظر: ابن شهيد، المصدر نفسه، ص ٩٦، ١٠٦. وابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، م١، ص ١٥٢- ١٦٠.

٣- حينما تحدث ابن عساكر[١] عن الوضاح بن رزاح ودوره هو وقبيلته أشجع في معركة مرج راهط عقب على ذلك بقوله «وله – أي الوضاح – عقب بالأندلس».

٤- وبالمقارنة بين ما ذكره ابن عساكر[٢] من أن جدهم الأعلى الوضاح بن رزاح كان في يوم مرج راهط مع الضحاك بن قيس ضد بني أمية داعياً إلى مبايعة عبدالله بن الزبير الخارج على بني أمية. وما أشار إليه ابن الأبار[٣] نقلاً عن الرازي أن جد بني شهيد كان مولاً لمعاوية بن مروان بن الحكم، يتبين أن الولاء والتبعية في هذه الأسرة قد تغير بعد مرج راهط حيث كانوا ضد بني أمية ومعادين لهم، وكان جدهم الأعلى

(١) المصدر السابق، جـ٦٣، ص٤٢ . وقد ذكر العذري أن من عقب الوضاح هذا – في الأندلس- بنو الوضاح في لورقه من أعمال مرسية وهم ينتسبون إلى يحيى بن الوضاح بن زراح – ولم يبين متى دخلوا إلى الأندلس (ترصيع الأخبار، ص ٩) ثم قال عن يحيى بن الوضاح أنه مولى لعبدالملك بن مروان . ومعنى هذا أن للوضاح بن زراح ابنان هما شُهيد ويحيى وكان الأول مولى لمعاوية بن مروان ويحيى كان مولى لعبدالملك بن مروان . وبذلك يكون بنو الوضاح الداخلون إلى الأندلس على فرعين: الأول: أبناء شُهيد بن الوضاح وهؤلاء استقروا مع عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) في قرطبة، وهم من سوف يكون الحديث عنهم في هذا البحث، والفرع الآخر وهم: أبناء يحيى بن الوضاح وهؤلاء استقروا في لورقة من أعمال مرسية في شرقي الأندلس . ولم تكشف المصادر التي اطلعت عليها أي تواصل واضح بين هذين الفرعين في أيام الإمارة الأموية.

(انظر: العذري: ترصيع الأخبار، ص ١٢-١٣) . والضبي: بغية الملتمس، جـ١، ص ٢٣٨).

(٢) المصدر السابق ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٨.

الوضاح وقومه الأشجعيون ممن حارب بني أمية وبايعوا ابن الزبير. ثم لم يلبث الأمر أن تغير بعد معركة مرج راهط. فهل كانت نتيجة المعركة التي هزم فيها الضحاك بن قيس ومن معه – ومنهم – الأشجعيون – سبباً في تغير الولاء؟

لعل فيما ذكره الضبي[1] ما يجيب على هذا التساؤل حيث ذكر أن الوضاح بن رزاح أسر في يوم المرج، ثمَّ منَّ عليه مروان بن الحكم زعيم بني أمية يومها – وخليفة المسلمين فيما بعد – وأطلق سراحه من الأسر.

ولعل مروان بن الحكم اشترى ولاء الوضاح بن رزاح بهذا الإطلاق، والعفو عنه، وعليه تغير وتبدل ولاء هذه الأسرة جمعاء إلى بني أمية، وقد حفظ الوضاح وبنوه من بعده هذا الفضل لبني أمية، وأخلصوا لهم طوال فترة حكمهم في الأندلس – كما سوف نبين من خلال هذا البحث -.

وهذه الموالاة والتبعية والإخلاص هو الذي جعل البعض يطلق عليهم «الموالى» بمعنى الارقاء – كما قد يفهم البعض - والأمر فيما يبدو لي على غير ذلك فهي من «الوَلاية» بتفح الواو أي النصرة والمعاقدة والموالاة [2]. أي أن الرازي أراد بقوله أن جدهم مولى معاوية بن مروان ابن الحكم، أنه كان حليفاً ومناصراً له[3].

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٨ .

(٢) ابن منظور: لسان العرب، جـ١٥، ص٤٠٧.

(٣) قال ابن منظور: «المولى: الحليف، وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك». انظر:

- **بداية ظهورهم** :

كان أول ظهور لهذه الأسرة في الأندلس – حسبما ذكرته المصادر – في زمن الأمير عبدالرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥ - ٧٨٨م) أول حكام بني أمية حيث ذكر ابن القوطية[١] أن الأمير عبدالرحمن خرج في سنة ١٤٥هـ إلى ناحية الثغر للقضاء على بعض الثورات هناك، وأنه استخلف على قصره في الرصافة[٢] بقرطبة «شهيد بن عيسى» وهو أول ذكر واضح لهذه الأسرة في العصر الأموي بالأندلس.

واستخلاف الداخل لشهيد بن عيسى على قصره دليل على أنه كان من ثقاته وأصفيائه، وإلا لما وثق أن يوليه أمر قصره الذي به بنوه وحرمه. أي أن ثقة الداخل فيه قد بلغت درجة كبيرة وعالية حتى استخلفه على قصره -خاصة وأن الأخطار حول الداخل حينها كثيرة – وهذه الثقة لا تبنى في وقت قصير، مما يدل على أن علاقة الداخل

=

المصدر نفسه، جـ١٥، ص٤٠٨.

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٠. وانظر: ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٠-٥١.

(٢) الرصافة: أو قصر الرصافة: أنشأ الداخل بعد استقرار الحكم له في قرطبة ضاحية ملوكية جديدة غير قصر الإمارة القديم بقرطبة واختار لها موقعاً في شمالي غربي قرطبة وبنى بها قصراً فخماً يحيط به الحدائق، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور من الشام وأفريقية، واتخذها مقراً له ولأبنائه .

انظر:-محمد عنان: الدولة الإسلامية في الأندلس، جـ١، ص ٢٠٠.

- السيد عبدالعزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، ص ٥٣-٥٤.

بشهيد بن عيسى قديمة. بل يفهم من نص كلام ابن القوطية أن شهيد كان حينها من وزراء الداخل وعرفائه[1]. كما كان شهيد بن عيسى من مشاوري الداخل[2]. ولقد كان شهيد بن عيسى من أظهر قادة الأمير الداخل الذين رمى بهم الخارجين عليه، والثائرين على حكمه من أمثال : دحية الغساني الذي ثار في بعض حصون البيرة[3] فبعث إليه الأمير عبدالرحمن قائده شُهيد بن عيسى الذي قتله والقضاء على ثورته، وسكَّن تلك المناطق وأعادها لطاعة الأمير الداخل[4].

ومن بعد هذا التاريخ نلحظ أن المصادر تفيض في تتبع أدوار بني شهيد في الأندلس فلا يكاد يخلو عهد من عهود حكام بني أمية -من الداخل إلى سقوط دولتهم -من ذكر لبعض أفراد هذه الأسرة والجهود التي قاموا بها، والمهام التي أنجزوها في تلك العهود، ناهيك عن التنويه بسيرة عدد منهم.

وفي عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٠هـ /٧٨٨-

(١) المصدر السابق، ص ٩٠.

(٢) المقري: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٦.

(٣) إلبيرة: وهي إقليم كبير في جنوبي الأندلس كان يعرف بهذا الإسم ثم عرف فيما بعد باسم إقليم غرناطه. وله عدد كبير من الكور والمدن .
انظر: - العذري: المصدر السابق ص ٩٠-٩٣.
- الادريسي: نزهة المشتاق، جـ٢ ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٤، ص ١٥٨.

٧٩٦م) يواصل شهيد بن عيسى دوره العسكري حيث كان من قادة الأمير هشام الذين اعتمد عليهم في القضاء على الثوار الذين ناوأوه في إقليم تدمير[١] في سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م[٢]، حيث استطاع شهيد بن عيسى أن يواصل مسيرة انتصاراته على الخارجين على حكم بني أمية، وأن يخمد تلك الثورات، ويُسكِّن تلك الكور المنتزية، ويعيدها إلى الطاعة.

وظل شهيد بن عيسى موفور الحظ، عالي المكانة ، لدى الأمير هشام الرضا إلى أن وافته المنية سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م في أيام الأمير الحكم الربضي[٣].

- **عيسى بن شُهيد** :

وكان لإبناء شهيد بن عيسى من بعده دور كبير وظاهر في تثبيت حكم بني أمية ومحاربة الخارجين عليهم، حيث برزهم منهم عيسى بن شهيد الذي اضطلع بالكثير من المهام التي كانت موكلة إلى أبيه من قبل. ويعد عيسى واسطة العقد في بني شهيد، وأبرز أهل بيته في عصر الإمارة على الإطلاق. حيث كان مقرباً إلى الأمير الحكم بن هشام (الربضي ١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) مؤثراً له على كثير من خاصته

(١) تدمير: وهي كورة كبيرة ذات مدن متعددة تقع في شرق قرطبة .
انظر: - الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ١٩.
- الحميري: الروض المعطار، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٦٣.

(٣) ابن حيان: السفر الثاني من كتاب المقتبس (مكي) ص ٢٢٢.

ومعاونيه حتى بلغ به الأمر أن عهد إلى ولده وخليفته الأمير عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط ٢٠٦-٢٣٨هـ/٧٩٦-٨٥٢م) بعيسى بن شهيد، وأوصاه بالانتفاع والثقة به[١].

ولم تكن وصية الأمير الحكم بن هشام بابن شهيد نابعة من فراغ، بل لقد رأى فيه من الصفات ما أهله لهذه الوصية الغالية. ومنها ما ذكره ابن حيان عن هذا الوزير حين قال : «كان أهلاً لإيثاره إذ كان من أعيان رجال الموالي في الدولة، ومن أشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم والمعرفة والحزم والجزالة، وقد قاد بالصوائف فأحمدت سياسته، وكانت له في التدبير آراء صائبة وفي الحروب مقاومة كريمة وتهيأت له على العدد وقائع متخنة»[٢]. وهذه بلا شك صفات حميدة تؤهل صاحبها لأعلى المراتب.

أما ابن القوطية[٣] فقد وصل بالثناء عليه الغاية حيث قال : «ولم يختلف مختلف من شيوخ الأندلس أنه لم يخدم بني أمية في الأندلس أكرم منه عناية وأكثر طاعة»[٤].

(١) ابن حيان:المقتبس من أبناء الأنلدس، ص ١٦٦.

(٢) ابن حيان: المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦.

(٤) وقد أخطأ أحد الباحثين فقال أن هذا الوصف يعود إلى الحاجب عبدالكريم بن مغيث ناسباً ذلك إلى ابن القوطية. وهذا غير صحيح .(انظر: محمد أحمد أبو الفضل: دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، ص٣٣).

والعناية والاهتمام البالغين، والطاعة التامة، من الشروط الأساسية لمن يتولى مثل تلك المناصب الكبيرة، ويتسنم مثل تلك المراقع العالية التي كلف بها عيسى بن شهيد. ومن كانت هذه صفاته فلا غرو ولا عجب أن يقرَّب، وأن يكون له الدور البارز في عصره.

بل لقد فضله ابن القوطية على عبدالكريم بن مغيث أشهر حجاب بني أمية على الإطلاق[1]. حيث قال « وكان عبدالكريم بن مغيث الحاجب الكاتب بهذه الصفة إلا أنه كان يقبل الهدية والمكافأة على قضاء الحاجة، وكان عيسى بن شهيد لا يقبل شيئاً من ذلك»[2].

وهذا يدل على عفة نفسه وكرمه، وترفعه عن أخذ ما ليس له بحق إذ أن قضاء حوائج الناس من مهامه ومسؤولياته التي كلف بها، وأخذ الهدية على ذلك قد يدخل في باب الغلول[3]. ولعل ما كان عليه من العلم – كما سبق وأن ذكره ابن حيان – هو مما منعه عن أخذ الهدايا.

والنص في ذاته يكشف عن شيء من الفساد المالي، والإداري في

(١) كان من أكابر رجال الدولة الأموية في الأندلس في عصر الإمارة – خاصة في عهد الحكم الربضي وابنه عبدالرحمن الأوسط . وهو من أولاد مغيث الرومي مولى الوليد بن عبدالملك . وقد تولى عدة مناصب منها القيادة والوزارة والحجابة توفي سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م (انظر: المزيد عنه في: ابن الأبار: المصدر السابق جـ١، ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١١٦.

(٣) يقول النبي ﷺ «هدايا العمال غلول». انظر: أحمد بن حنبل، المسند، جـ٥، ص ٤٢٥، والألباني إرواء الغليل، جـ٨، ص ٢٤٦.

بعض من تولى المهام في الدولة الأموية في الأندلس كعبد الكريم بن مغيث الرومي الحاجب الذي كان يقبل الهدية بما يجره ذلك من تبعات.

أما الرازي[١] فقد نعت عيسى بن شهيد بعدد من الأوصاف العالية التي تنبي عن شخصية قوية حيث وصفه بأنه من الوزراء الأكفاء والأبطال ذوي الغناء، ثم لقبه بالقائد عيسى بن شهيد[٢].

وبمجرد أن تولى الأمير عبد الرحمن الأوسط الحكم أنفذ وصية والده فقرب إليه عيسى بن شهيد «وقدمه في علية خاصته، وصرفه في أعلى مراتبها»[٣]. حيث تدرَّج به في عدد من خطط الدولة المهمة جداً ومنها خطة الكتابة[٤] وهي من الخطط الشريفة في الدولة[٥] بل عدها أحد الباحثين[٦] أعلى خطط الدولة. كما استعمله على خطة الخيل[٧] وهي من أهم وأخطر خطط الدولة الأموية حيث كانت تمثل أهم ما في الجيش من قوة، ويعتمد عليها في تنفذ الضربات السريعة والمفاجأة[٨]. ولا يقل مستواها عن خطط

(١) نقلاً عن ابن القوطية، المصدر السابق، ١٠٨-١٠٩.

(٢) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٣) ابن حيان: المصدر السابق (مكي) ص ١٦٦.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٠.

(٥) ابن بسام: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥٢.

(٦ سالم الخلف: نظم حكم الأمويين، جـ١، ص ٣٣٧.

(٧) ابن حيان: المصدر نفسه، مكي، ص ١٦٦.

(٨) السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص ٣٣٠.

القضاء والشرطة والمدينة، إن لم تتفوق عليها[١].

ويفهم من كلام ابن حيان[٢] أن ابن شهيد قد برز في هذه المهمة، وأجاد الأداء فيها، الأمر الذي زاد من ثقة الأمير عبد الرحمن الأوسط فيه،وأكد له صدق فراسة والده الأمير الحكم في ابن شهيد، وأنه أهل لثقته، جدير بمناصب أعلى في الدولة، فرفع منزلته من جديد وعينه وزيراً «وولاه النظر في المظالم وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة»[٣].

وهذه الخطة خطة المظالم أعظم من خطة القضاء، وصاحبها أوسع في صلاحياته من القاضي، وأكثر سلطة[٤]. ويكفي دليلاً على أهمية هذه الخطة أنه في الغالب يتولاها الخلفاء والأمراء بأنفسهم[٥]، ولا ينيبون فيها إلا من بلغت ثقتهم فيه درجة عالية، ذلك أن مهامه تمس علية القوم الذين عبر عنهم ابن حيان[٦] بقوله : «وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة» مما يستدعي شخصية قوية ونافذة لدى الحاكم. وكذلك كان عيسى بن شهيد.

---

(١) محمد ضاوي: النظام العسكري بالأندلس، ص ١٢٩.

(٢) المصدر السابق، (مكي) ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق، (مكي)، ص ١٦٦.

(٤) إذ يشترط فيمن يتولاها: أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع (انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٧، أبي يعلى: الأحكام السلطانية ص ٧٣-٧٤).

(٥) أبو يعلى: المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٦) المصدر السابق (مكي) ص ١٦٦.

ولم يتوقف صعود نجم عيسى بن شهيد عند هذه المنزلة بل زاد تقريب الأمير عبدالرحمن الأوسط له ومن ثمَّ رقاه إلى أعظم خطة في الدولة على الإطلاق ألا وهي خطة الحجابة فعينه حاجباً « واستخصه دون أصحابه»[١].

وبذلك يكون عيسى بن شهيد قد بلغ الغاية التي ليس بعدها غاية لمثله ألا وهي حجابة الأمير. فأصبح يمثل بذلك الرجل الثاني في الدولة بعد الأمير وولي عهده بدون منازع[٢]. بل أصبح رئيس الوزراء في حكومة عبدالرحمن الأوسط التي تعدد الوزراء فيها حتى بلغوا عدداً لم يسبق أن وجد في الأندلس[٣].

وحينما ولي ابن شهيد الحجابة «أحمدت سياسته وكانت له في التدبير آراء صائبة»[٤].

ومما يدل على الثقة الكبيرة التي كان يوليها الأمير عبدالرحمن الأوسط لعيسى بن شهيد، ووثوقه في حسن تدبيره، وسلامة آرائه، أنه كان يخرجه مع أبنائه حينما يكلفهم بقيادة الجيوش لمحاربة الثائرين على الدولة، أو مجاهدة النصارى في الثغور وذلك «للتدبير»[٥] والعبارة توحي أن ابن شُهيد كان يتولى تدبير أمور الجيش كاملة في حين كان

(١) ابن حيان: المصدر السابق، (مكي) ص ١٦٦.
(٢) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٨٥.
(٣) ابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٠.
(٤) ابن حبان: المصدر السابق (مكي) ص ١٦٦.
(٥) ابن حيان: السفر الثاني من كتاب المقتبس (مكي)، ص ٣٢٩.

لابن الأمير القيادة الإسمية. كما يتضح منها ثقة الأمير في القدرة العسكرية لابن شُهيد وحسن تدبيره وحكنته.

وكان قبل أن يوليه الأمير هذه المواقع المهمة في الدولة قد اختبر قدراته، وامتحن ولاءه في بعض المواقع السابقة حيث كلفه وزيراً لابنه الحكم بن عبدالرحمن قبل أن يلي الوزارة في الدولة[١].

ويبدو أن المكانة التي بلغها ابن شهيد، والمنزلة التي حظي بها لدى الأمير عبد الرحمن الأوسط قد جرت عليه حسد الحساد، وبغض القرناء، رغم ما أثر عنه من صفات حميدة ذكرها المؤرخون، وثناء كبير أوردوه عن حنكته السياسية، وعلو خلقه، وعدم ورود أي إشارة إلى تجاوزات ظاهرة ارتكبها، أو ظلامات اقترفها، فضلاً عن إشادتهم بحسن تدبيره[٢]

وكان من أشد المبغضين له نصر الخصي[٣] وطروب[٤] جارية الأمير

(١) ابن حبان: المصدر نفسه (مكي) ص ٤٢٤.

(٢) ابن القوطية،المصدر السابق ص ١١٥-١١٦، ابن حيان: المقتبس،(مكي) ص ١٦٦-١٦٧.

(٣) نصر: ويعرف بنصر الخصى، والفتى نصر . ويكنى أبو الفتوح، أبوه من المولدين من قرمونة، وقد سما نفوذه في زمن الأمير عبدالرحمن الأوسط حتى أصبح المتصرف في شؤون القصر الخاص للأمير، وقاد الجيوش الأموية لمحاربة المجوس (الشماليين) وظل نجمه في صعود طوال عهد الأمير عبدالرحمن إلى أن هلك في أواخر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٨م انظر عنه: (ابن حيان: السفر الثاني من كتاب المقتبس (مكي) ص ٢٣٣-٣٣٨-٤٥٨.
- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، م ١، ص ٢٧٧).

(٤) طروب: هي جارية الأمير عبدالرحمن الأوسط، وأكثر جواريه سلطاناً عليه، وهي أم ولده عبدالله، وكانت أثيرة لدى الأمير عبدالرحمن – غالية عليه من بين جميع جواريه، ولعل

عبدالرحمن الأوسط، حيث كانا يعملان على إقصائه عن الحجابة وإبعاده عنها. وقد تسنى لهما ذلك عندما اعتل الأمير عبدالرحمن «علته الطويلة التي حجبه فيها نصر، وأنفذ عليه أموراً منكرة» على حد قول ابن حيان [1].

وكان من أعظم تلك الأمور التي قام بها نصر الخصي وطروب أن زورا أمراً باسم الأمير بصرف عيسى بن شهيد عن الحجابة، وتولية آخر من خاصتهم وأعوانهم بدلاً منه[2].

غير أن الأمر لم يدم طويلاً فبمجرد أن أبلّ الأمير من علته وعادة إليه عافيته، وانكشف الأمر له بادر بإعادة الحاجب عيسى بن شهيد إلى منزلته، وكاد أن يبطش بنصر ومن معه «فسبه وأغلظ له، وهم به »[3].

ولا شك أن إزاحة ابن شهيد عن منصب الحجابة تشف عن صراع سياسي محتدم كان يدور في بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط، وأن

=

ذلك ما دفعها إلى محاولة تقديم ابنها لولاية العهد بدلاً من الأبن الأكبر للأمير عبدالرحمن وهو محمد بن عبدالرحمن .

انظر عنها: - ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١١٧-١١٨.

- ابن حيان: المصدر السابق (مكي) ص ٣٠٣-٣٠٤.

- ابن الأبار: المصدر السابق، جـ١، ص ١١٤، حاشية ١).

(١) المقتبس (مكي) ص ١٦٦، و السفر الثانيمن كتاب المقتبس (مكي) ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) ابن حيان: المقتبس (مكي) ص ١٦٦.

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه، (مكي) ص ١٦٧.

هذا الصراع بلغ ذروته حين مرض الأمير، وكان قطبا هذا الصراع عيسى بن شهيد الحاجب من ناحية ونصر الخصي وطروب الجارية من ناحية ثانية، حيث كان الأخيران يحاولان نقل ولاية العهد من الأمير محمد بن عبدالرحمن إلى الأمير عبدالله بن عبدالرحمن من طروب. وكان ابن شهيد- كما فيهم من قضية العزل – ضد هذا المخطط ومعارض له. ويظهر أن مكانة ابن شهيد ومنزلته في الدولة قد حالت دون إقدام الفريق الآخر على تصرف أكبر من العزل بشأن ابن شهيد.

وحين نجح فريق عيسى بن شهيد في دحر هذا المخطط ووصل الأمير محمد بن عبدالرحمن إلى الحكم بعد وفاة أبيه حمد ذلك الصنيع لعيسى بن شهيد وكافأه على ذلك بأن أبقاه في الحجابة إلى أن توفي في سنة ٢٤٣هـ[١].

وقد ظل عيسى بن شهيد حاجباً للأمير عبدالرحمن بن الحكم إلى أن توفي الأمير (سنة ٢٣٨هـ) فأمضاه خليفته الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)[٢] في الحجابة «وقد استكمل في ولايته في الدولتين عشرين سنة»[٣].

(١) ابن حيان: المقتبس (مكي) ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، منشورة ضمن « رسائل ابن حزم، تحقيق: حسان عباس، جـ٢، ص ١٩٢».

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه، (مكي) ص ١٦٧.

وعلى هذا يكون عيسى بن شهيد من ابرز رجالات عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم – إن لم يكن أبرزهم - وهو ثقته في جميع خاصته يدل على ذ لك المناصب الكبيرة التي تولاها بدءاً بوزارة ابن الأمير الحكم بن عبدالرحمن ووصولاً إلى الخطط الكبرى في الدولة من خطة الكتابة إلى خطة الخيل إلى وزارة المظالم وانتهاءً بالحجابة التي هي رأس الخطط، والتي أمضى فيها كما قال ابن حيان «عشرين سنة»[1].

ولم يكن هذا – رغم عظمه – هو الدور الوحيد الذي اضطلع به عيسى بن شهيد في دولة عبدالرحمن الأوسط، بل برز في مجال آخر – غير مجال الإدارة والسياسة السابق ذكره- لا يقل أهمية عن هذا المجال الا وهو مجال قيادة الجيوش، ومقارعة خصوم الدولة، ومحاربتهم[2]. فضلاً عن جهاد النصارى – المجوس الاردمانيين[3] – الذين غزوا شواطىء الأندلس الغربية في سنوات مختلفات من حكم الأمير عبدالرحمن الأوسط. فكان الحاجب عيسى بن شهيد على رأس القوة

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٧ .

(٢) ابن حيان: السفر الثاني من كتاب المقتبس (مكي)، ص ٤٦٢.

(٣) انظر عنهم وعن الحملات التي شنوها على الأندلس (ابن حيان: المصدر نفسه (مكي) ص ٤٥٠-٤٦١.

- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص ٨٧ – ٨٨ .
- الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٢٢٧ – ص ٢٣٩.
- محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ١، ص ٢٦١-٢٦٦.

الخاصة – قوات قرطبة – التي وجهت لصد عادية أولئك النصارى، وقد نجح في ذلك [١].

بل أصبح عيسى بن شهيد قائداً للصوائف التي كان يخرجها الأمير عبدالرحمن الأوسط لجهاد النصارى ويطلق عليه لقب «الوزير القائد»[٢].

وكان يلجأ إليه الأمير عبدالرحمن الأوسط حين الحاجة إلى استنفار الناس للجهاد، حيث أخرجه الأمير مندوباً عنه إلى أهل اشبيلية مستنفراً أهلها إلى الجهاد[٣].

وكنتيجة لهذه الثقة أصبح عيسى بن شهيد يتصرف في الولايات والمهام في الدولة بشكل مباشر ويعين فيها من يختاره ويثق به، وكان الأمير يمضي تعيينه ولا ينقضه مثال ذلك تعيينه كاتبه محمد بن موسى الغافقي مسؤولاً عن «ولاية خزانة المال»[٤]، وإمضاء الأمير ذلك التعيين. ثم ما لبث أن نقله بعد أن أظهر النبوغ فيها إلى وكالة الأمير

(١) ابن حيان . المصدر نفسه (مكي) ص ٤٥١، ص ٤٥٨، وانظر التفصيل في: محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، جـ١، ص ٢٦٢، ص ٢٦٤ .

(٢) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٨٥.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١١٦.

(٤) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١١٦، ولم يتبين لي هل هي خزانة بيت المال العام للدولة أم هي خزانة المال الخاص بالأمير . وإن كانت عبارة المصدر توحي بتقلده ولاية من ولايات الدولة. فهي أقرب إلى خزانة بيت المال العام.

محمد بن عبدالرحمن ولي العهد، وقد حمد الأمير محمد هذه التزكية لابن شهيد، وحفظ له ذلك الصنيع، وذلك الاختيار الحميد، ووجد في صنيعة ابن شهيد هذا خير مدير لأعماله. ولذلك رقاه حتى استوزره[١]. ولا يبعد أن يكون تعيين الأمير محمد لهذا الوزير بمشورة من عيسى بن شهيد الذي تولى الحجابة في صدر دولة الأمير محمد.

وكان عيسى بن شهيد شديد الدقة في اختيار معاونيه، حريصاً كل الحرص على نباهة ورفعة من التصق به أو التجأ إليه «لا يرضى في من عنى به إلا بغاية التشرّف»[٢] ذلك أنه كان صاحب علم و أدب جمَّ، جعلاه يسعى لتهيئة من يلجأ إليه لمعالي الأمور وعظائمها، ويأمره بالترفع عن سفاسف الأمور ونقائصها، فحينما قصده عبدالواحد الاسكندراني[٣] وهو شاب متظرف يمتهن الغناء فنهاه عن الغناء، وأمره بالتركيز على ألأدآب التي تعلي مقامه ومكانه، ثم ضمه إلى خاصته، وظل يرعاه ويقدمه «حتى ولاه الوزراة والمدينة»[٤]. بل وأصبح من خاصة الأمير عبدالرحمن و «صار باباً إلى التوصل إليه، وسبباً للتوسل

(١) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١١٦.

(٣) عبدالواحد بن يزيد الاسكندراني دخل الأندلس في أواخر أيام الأمير الحكم بن هشام ثم تعلق بعيسى بن شُهيد الذي قدمه في وظائف الدولة حتى بلغ الوزارة . انظر: ابن حيان: المقتبس (مكي)، ص ٢٩٦.

(٤) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١١٦.

لديه» كما قال ابن حيان [١].

- أمية بن عيسى بن شُهيد :

ولئن كان عيسى بن شهيد واسطة العقد لبيت بني شهيد في عصر الإمارة الأموية، وأبرز أفراد هذا البيت، فإنه لم يكن الوحيد حيث واصل ابنه أمية بن عيسى بن شُهيد دور والده في خدمة الدولة الأموية فكان من أبرز وزراء الأمير محمد بن عبدالرحمن حين ولي أمر المدينة «صاحب المدينة»[٢] إذ كان الأمير محمد «يُديل في المدينة بين أمية بن شُهيد ووليد بن غانم[٣] لمعرفته بفضلهما. «وكانا لا ينفذان في أحكام المدينة والأمور العظام فيها إلا بما وافق الحق»[٤].

وفي النص أعلاه جملة من الصفات الحميدة التي تحلى بها أمية بن عيسى بن شهيد من الفضل والعقل وحسن السيرة، والحرص على انفاذ الحق مهما كانت العواقب، ويمثل هذه الصفات يُعان الملوك والحكام، ويتحقق بها العدل لديهم.

وحينما ولي أمية بن عيسى المدينة ظهر من عدله وحزمه في تنفيذ ما أوكل إليه، من ضبط الأمن، وتحقيق العدالة ما أشادت به المصادر.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٢) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(٣) انظر عن الوزير الوليد بن غانم: الحلة السيراء، جـ١، ص ١٤١، حاشية (٢).

(٤) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٢٢.

فقد كان يمارس سلطاته بشكل كامل، ويؤدي مهام عمله المكلف به بكل عدالة ودقة، لا يمنعه من ذلك أن تتعلق القضايا التي يعالجها بكبار رجال الدولة من الوزراء والولاة، بل ولا ببعض أبناء البيت الأموي ذاته.

وشاهد ذلك عدد من النماذج التي أوردها ابن القوطية[1] من الحوادث المبينة لعدل هذا الوزير وقوة شخصيته، وحرصه على إنفاذ الحق، وحماية المظلوم ونصرته.

ومن ذلك ما رواه عن حكايته مع أحد أبناء الأمير محمد بن عبدالرحمن حينما خرج الأمير في بعض غزواته فاستخلف على المدينة أمية بن محمد بن شهيد، واستخلف بعض أولاده على قصره، وكان لذلك الولد وكيل ظالم أراد أن يستغل غياب الأمير للتطاول على الناس، فرفع الناس تظلمهم منه إلى أمية بن عيسى – صاحب المدينة – الذي بادر إلى زجره عن ظلمه بل أدبه على ذلك «وتمادى في تأديب الوكيل حتى استبلغ فيه»[2].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل حينما حاول ابن الأمير إغاثة وكيله واستنقاذه من يد والي المدينة أمية بن عيسى بن شُهيد بعث إليه أمية يقول «بالله الذي لا إله إلا هو لئن جاوز باب السطح حيث ولاه أبوه

(١) المصدر السابق: ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١٢٣.

لاطرحنّه في الدويرة[1] في كلبين يكون بهما، حتى يقفل أبوه أو يأتني عهده باطلاقه»[2].

وفي النص بيان واضح لغلبة الحق عليه، ووقوفه ضد الظلم والمتطاولين وأعوانهم، وعدم رضوخه للمتنفذين – من أبناء الحكام وغيرهم – الذين حاولوا استغلال غياب الحاكم لتنفيذ رغباتهم الخاصة، فكان ابن شهيد لهم بالمرصاد.

كما أن فيه إشارة بينة للمكانة الكبيرة التي بلغها أمية بن عيسى، والنفوذ الكبير الذي تمتع به في دولة الأمير محمد بن عبد الرحمن، حتى استطاع أن يطلق تلك العبارات القوية ضد ابن الأمير مباشرة.

كما لم تمنعه منزلة الوزير هاشم بن عبدالعزيز وقربه الشديد من الأمير محمد بن عبدالرحمن من الوقوف في وجهه حينما حاول الاستيلاء على دار مجاورة له وسجن صاحبها ليذعن لطلبه، فهب ابن شهيد لنجدة الرجل حينما بلغه ذلك قائلاً لهاشم ابن عبدالعزيز «بالله لئن صح عندي هذا لأركبن إلى الدار ولأعدَّن على ما فيها، ولأعدمنها، فأرعد هاشم في فراشه، ودعا بوصيفه وقال له، اطلع إلى الدار وأطلق المحبوس»[3].

(١) الدويرة هو سجن في قرطبة عرف بهذا الاسم وكان يسجن به غالباً المعارضين فهو أشبه بالسجن السياسي (انظر: العذري: ترصيع الأخبار، ص ٣٤).

(٢) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٢٢.

ولو لم يكن هاشم بن عبدالعزيز يدرك صدق ابن شهيد وجديته في تنفيذ ما يقول، ولو لم يكن يعرف مدى قدرة ابن شهيد على تنفيذ مهمام عمله في المدينة، لما رضخ لكلام ابن شهيد. وهو الوزير الأثير لدى الأمير محمد بن عبدالرحمن [1].

بل لقد أصبح أمية بن شهيد – صاحب المدينة – بما عرف عنه من قوته في الحق، وقدرته على نصرة المظلوم ملجاءاً للمظلومين في الكور الأندلسية عامة – فضلاً عن قرطبة التي هي مجال عمله -.

فهذا رجل من أهل العلم والرواية يفر من ظلم أحد عمال الكور، ويلتجأ إلى أمية بن شهيد فيأمر الأمير محمد بن عبدالرحمن أمية بالقبض على الرجل وإيداعه السجن بناءا على ما ورده من عامله، وحين تأكد لابن شهيد براءة الرجل وظلم العامل، بعث إلى الأمير محمد يقول له : «لا والله ما أحبس رجلاً من أهل العلم والرواية : فرَّ عن ظالم مشهور بالظلم، ولو كان فيه خير ما فرَّ مثله عنه»[2]. فاستجاب الأمير لرأي أمية بن شهيد وبعث إلى العامل يوبخه بما فعله [3].

(١) ابن الأبار: الحلة السبراء، جـ١، ص ١٣٧-١٤٢.
- ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٥٢-٥٣.
- ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٠٦-١٠٧.
(٢) ابن القوطية، المصدر نفسه، ص ١٢٢-١٢٣.
(٣) ابن القوطية، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

والنص يكشف بشكل جلي المنزلة العالية التي بلغها أمية بن شهيد لدى الأمير محمد بن عبدالرحمن، والثقة الكبيرة التي أولاها الأمير له حتى بلغ درجة ينتقد فيها ولاة الأمير، ويكشف عن سيرهم في ولاياتهم، بل ويعمد إلى ردعهم عن ظلم من تحت أيديهم، ويُقره الأمير على ذلك.

ولا غرو أن يكون أمية بن شهيد بهذه المنزلة لدى الأمير محمد بن عبدالرحمن، إذ يتضح أنه كان شديد الإخلاص للأمير، قوياً في حفظ الأمن بقرطبة، شديداً على أهل المخالفات، والمعتدين على أموال الناس، حتى أمنت المدينة وضواحيها في ولايته[1]. ولا شك أن هذه غاية الطلب للأمير.

- محمد بن أمية بن شُهيد:

وممن برز في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن من بني شهيد القائد محمد بن أمية بن عيسى بن شهيد الذي قاد جيش الأمير المتوجه إلى كورتي رية وإلبيرة حيث «كانوا بحال توحش ونفار»[2]. وقد استطاع بحكمته أن يُسكّن أحوال أهل تلك الكورتين، وأن يزيل أسباب التوحش التي نقموها على الدولة، وهدّى الناس، ثم استطاع أن يستعيد بعض الثوار الذين لجأوا إلى جبال رَيَّة. وأن يتألفهم[3].

(١) انظر بعض الأمثلة على ذلك في: ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص ١٠٥.

(٣) ابن عذارى،المصدر نفسه، صن ١٠٥.

وفي سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م خرج محمد بن أمية – أيضاً – على رأس جيش من قرطبة إلى كورة إلبيرة لاستنزال بعض الثوار هناك، وقد نجح في المهمة التي كلف بها[١].

كما كلف الأمير محمد بن عبدالرحمن القائد محمد بن أمية بن شهيد بالقضاء على ثورة عبيد الله بن عبدالعزيز أخو الوزير هاشم بن عبدالعزيز وزير الأمير محمد، وقد استطاع ابن شهيد أن يقبض على عبيد الله ومن معه، وحينما صدر إليه الأمر بضرب رقابهم «كتب محمد بن أمية – إلى الأمير- يستعفى من قتل أخي هاشم»[٢].ولعله بهذا يحفظ الود للوزير هاشم بن عبد العزيز الأثير لدى الأمير.

ولم يتضح من المصادر ما إذا كان استعفاؤه من قتل عبيد الله بن عبد العزيز ناتج عن عدم قناعته بقرار ألأمير بضرب عنق هذا الثائر، أم كان فقط لمنزلة هذا الأخير من الوزير هاشم بن عبد العزيز؟ رغم أنه واضح أن اعتذاره كان فقط عن قتل عبيد الله بن عبد العزيز وليس عن قتل من معه من الثوار؟

وقد ظل محمد بن أمية يرتقى في بلاط الأمير محمد حتى ولي الوزارة[٣]. ولم تبين المصادر ما هي الوزارة التي شغلها تحديداً.

(١) ابن عذاري، المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٠٥.

(٢) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٣) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ١٣٠.

كما تولى عبدالرحمن بن أمية بن عيسى بن شهيد الحجابة للأمير المنذر بن محمد طوال فترة حكمه تقريباً حيث عينه بعد شهرين من توليه الحكم بعد أن بطش بحاجب أبيه ووزيره الأثير لديه هاشم بن عبد العزيز[1].

وفي عهد الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) ظل محمد بن أمية بن شهيد – الوزير في العهد السابق السابق– يواصل دوره في خدمة الدولة الأموية حيث كلف بولاية المدينة[2] التي تعد من أهم الولايات، إذ عليه ضبط الأمن في قرطبة وضواحيها كاملة. وقد ظل ابن شهيد يلي هذه المهمة الرئيسة (ولاية المدينة) إلى سنة ٢٩٣هـ/٩٠٥م، حيث عزل عنها[3].

ولم يكن عزله عنها لعدم رضا من الأمير، أو لإهمال ظهر منه، وإنما كان بسبب سير الأمير عبدالله بن محمد على السياسة ذاتها التي سار عليها والده من قبل، حيث كان يُديل في ولاية المدينة بين أمية بن عيسى بن شهيد ووليد بن غانم[4]. فظل الأمر في ولاية عبدالله بن محمد على المنهج ذاته حيث تدال هذه الولاية بين أبناء الرجلين ذاتهما. إذ أن الأمير عبدالله حينما عزل محمد بن أمية عن المدينة عين عليها بدلاً منه

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣٣.
ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص ١١٥-١١٦.
(٢) ابن حيان: المقتبس (العربي) ص ١٦٤.
(٣) ابن حيان، المصدر نفسه، ص ١٦٤.
(٤) ابن القوطية، المصدر نفسه، ص ١٢٢.

محمد بن وليد بن غانم[١].

وبهذا نستطيع القول أن ولاية المدينة ظلت طوال عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ثم ابنيه من بعده [المنذر بن محمد وعبدالله بن محمد] حكراً على بني شُهيد وبني غانم تدال بين البيتين، ولا يخرج عنهما إلا في بعض الفترات القصيرة[٢].

- عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد :

لم يكن محمد بن أمية الشخصية الوحيدة التي برزت من أبناء أمية بن شُهيد، فلقد ظهر إلى جانبه شخصية لا تقل عنه قدراً وأهمية وهي شخصية الحاجب عبد الرحمن بن أمية بن عيسى بن شهيد المعروف بدحيم[٣] المتوفى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م[٤]. الذي اعتلى أكبر منزلة في النظام الإدارى في دولة الأمير المنذر بن محمد(١٧٣-١٧٥هـ / ٧٨٩-٧٩١م) حينما عينه حاجباً له بعد شهرين من توليه الحكم، وظل حاجباً له طوال فترة حكمه[٥].

---

(١) ابن حيان: المصدر السابق، (العربي) ص ١٦٤.

(٢) ابن حيان: المصدر السابق (العربي) ص ١٦٤.

(٣) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٤) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ص ١٩٣.

- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص ١١٣-١١٤.

(٥) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١٣٣، ابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١١٥-١١٦- ١٤٢.

ولما هلك الأمير المنذر وتولى الأمير عبدالله بن محمد أمضى عبدالرحمن بن أمية في الحجابة[1].غير أن فترة توليه الحجابة للأمير عبدالله لم تطل، حيث عزله الأمير عبدالله عنها بعد أشهر من ولايته[2].

ويعقب ابن القوطية على عزل هذا الحاجب وغيره من الوزراء الذين عزلهم الأمير عبدالله بن محمد بعد أشهر من ولايته الحكم بعبارة في غاية الأهمية حيث يقول : «وأغرم صنايع منذر»[3].

(١) ابن حيان: المقتبس، (العربي)، ص ٧٦.

(٢) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ١٣٣، ابن حيان: المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٣.

وإذا أخذت هذه العبارة في سياق الرواية التي تفيد أن وفاة الأمير المنذر بن محمد تمت وفق مؤامرة دبرها له أخوه عبدالله بن محمد الأمير بعده بمساعدة طبيب المنذر – الذي وضع له السم – كما صرح بذلك ابن حزم وأشار إليه عدد من المؤرخين – فإنه يمكن فهم عملية العزل الجماعية هذه التي أجراها الأمير عبدالله لوزراء أخيه المنذر، واستبعاد معظم من كان من رجال المنذر وحجابه ووزرائه. ومن الطبيعي أن يكون حاجب المنذر- الذي يمثل رئيس الوزراء في حينه في طليعة المقصين عن مناصبهم .

انظر عن ذلك:

- ابن القوطية: المصدر نفسه، ص ٣٢-١٣٣.
- ابن حزم: رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء . ضمن كتاب: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص٩٠.
- ابن حيان: المقتبس (العربي) ص ٦٢، ط (ص٤١).
- ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٥٣-٥٤.
- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٦ .

وفي هذه العبارة رغم اقتضابها إشارة صريحة إلى أن الأمير عبدالله قد نال بالتغريم من كان من صنايع أخيه الأمير المنذر بن محمد. غير أن المصدر لم يفصل في نوع تلك الغرامات أو مقاديرها، ولا فيمن نالهم ذلك التغريم، فهل كان عبدالرحمن بن أمية من أولئك المغرمين؟ وما نوع الغرامة التي نالته غير عزله عن الحجابة؟ هذا ما لم نجد له في المصادر التي اطلعنا عليها تفصيلاً.

وقد يكون للخلافات – النزاعات – الدائرة في بلاط عبدالله بن محمد بين كبار رجال الدولة دور في هذا العزل لابن شهيد، حيث يذكر ابن حيان[1] أن بدراً مولى الأمير عبدالله قد غلب عليه دون بقية خاصته وأصبح أمر التعيين في مهام الدولة بيد بدر يقول ابن حيان «فلم يول الحجابة بعده أحداً إلى أن هلك، واقتصر على مكان بدر اللصيق بنفسه، الخفيف عليه، من خلافة الحاجب، فناب عن الحاجب لديه، واستولى على خاصته»[2].

ومن خلال عبارة ابن القوطية المذكورة أعلاه – وعبارة ابن حيان هذه يظهر لنا أن ابن شهيد كان ضمن الفريق الآخر المخالف لبدر ولذلك عُزل عن منصبه.

– عمر بن محمد بن شُهيد :

(١) المقتبس (العربي)، ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠.

وفي أواخر عهد الأمير عبد الله بن محمد الذي اشتدت فيه الاضطرابات، وكثرت الثورات، وتقلصت فيه سيطرة بني أمية على كثير من المدن والكور الأندلسية المهمة خفت نجم أسرة بني شهيد فلا تسعف المصادر بذكر شخصيات منهم بارزة، ولا تشف عن أدوار واضحة وظاهرة لأي من أفراد هذه الأسرة باستثناء أشار ترد عند ابن حيان[1] حيث يذكر أن عمر بن محمد بن شُهيد كان من رجال الأمير عبدالله بن محمد، وأنه هلك في سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م أثناء مشاركته ضمن القوة العسكرية التي قادها أبان بن الأمير عبدالله بن محمد إلى لبلة ولقنت[2] لحرب الثوار هناك[3].

ولم يبين المصدر ما هي المهمة التي كان يضطلع بها عمر بن محمد بن شهيد في هذه الحملة العسكرية، غير أن إفراد وفاته بالذكر في هذه الغزوة دليل على أهمية موقعه ومهمته قال ابن حيان[4] : «وفي

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٢) مدينة لبلة تقع في غربي الأندلس وتعرف لبلة بالحمراء، وهي قديمة البيان، كثيرة الزيتون، تجمع بين ميزات البر والبحر لقربها من الشاطىء . (انظر عنها: ابن الكرديوس: تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشاباط، ص ١٤٥-١٤٦).

- ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٢٩١-٢٩٢.

وأما لقنت فهي مدينة صغيرة تجارية بالقرب من مدينة دانية. انظر عنها: (الحميري: الروض المعطار، ص٥١١).

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٤) المقتبس (العربي)، ص ١٤٣.

هذا الوقت هلك بالعسكر من رجال السلطان عمر بن محمد بن شهيد» ولم يذكر غيره.

ويكون عمر بن محمد هذا هو آخر من ورد ذكره في المصادر التي تمكنت من الاطلاع عليها في عصر الإمارة الأموية ممن كان له دور بارز، وأثر واضح في أحداث هذا العصر من بني شُهيد.

الخاتمــة

وبعد هذا العرض للدور الذي اضطلع به بنو شهيد في عصر الإمارة الأموية منذ مطلع الحكم الأموي على يد الأمير عبدالرحمن الداخل إلى انتهاء عصر الامارة الاموية يمكن لنا أن نسجل النقاط التالية :

١- أن هذه الأسرة – قد بلغت درجة كبيرة من الرقي والمكانة في الأندلس الأموية لم تبلغها أسرة أخرى – إلا القليل – في النواحي السياسية والحضارية وأنها أصبحت في بعض فترات الدولة الأموية تمثل اليد اليمنى للحاكم والمساعد الأول له، بل ويتصرف أفرادها في ولايات الدولة ومناصبها بالتعيين والعزل، واختيار الولاة حسب قناعاتهم، وبمضي الأمراء – في الغالب – ما قرروه.

٢- أنه ظهر من هذه الأسرة أعلام كبار في القيادة العسكرية والأمنية مثل عيسى بن شهيد ومحمد بن أمية بن شهيد، وفي الجانب السياسي مثل أمية بن عيسى، وعبدالرحمن بن أمية، وأن هؤلاء القادة بلغت الثقة بينهم وبين الحكام الأمويين درجة عالية جداً، فاتخذوا منهم الحجاب المتتاليين الذين يمثلون أعلى منصب سياسي وقيادي في الدولة بعد الحاكم وولي عهده. وما كادت الحجابة تخرج منهم إلا في أوقات قليلة ونادرة جداً[1].

(١) محمد عنان: دولة الإسلام، الأندلس، جـ١، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٣- استطاع بنو شُهيد أن يحافظوا على تلك العلاقة المتميزة مع بني أمية بتوازن تام خاصة في أوقات الصراعات داخل البلاط الأموي. وكذلك المحافظة على نظام الحكم – كمثال – دور عيسى بن شُهيد في إقناع الأمير عبدالرحمن الأوسط بتولية كبير نبيه محمد ولاية العهد وصرف النظر عن رغبة طروب في تولية ابنها. وهذا مما زاد في التمكين لبني شُهيد في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن.

٤- ظل بنو شهيد على ولاء تام، وخضوع كامل لبني أمية طوال فترة حكمهم، ولم يرد في المصادر أي معلومة تشير من قريب ولا من بعيد إلى أي دور أو محاولة لبني شُهيد في الخروج عن طاعة بني أمية، رغم المنزلة الكبيرة التي بلغوها، والأموال الجزيلة التي اقتنوها. ورغم أن البعض منهم قد بلغ درجة في الدولة أصبح من خلالها يملك الكثير من السلطات.

٥- رغم أن هذه الأسرة قد بلغت من المكانة السياسية والعسكرية درجة كبيرة، وحازت من الجاه والثراء الكثير، وهو ما يكثر بدون شك حسادها، الساعون ضدها – إلا أنها لم تتعرض لأي نكبة طوال تاريخها من قبل الحكام كما حدث لكثير من الأسر المماثلة عبر التاريخ، وكذلك الأشخاص- وإن كان الأمر لم يخل من بعض الهمزات التي تعرض لها البعض منهم مثل عبدالرحمن بن أمية بن شهيد حاجب عبدالله بن محمد السابق ذكره حينما عزل عن الحجابة إلا أن الأمر لم يتجاوز مجرد عزله عن مناصبه. ولعل الجمع بين رواية ابن القوطية

السابقة «أغرم صنائع منذر» وبين ما قام به الأمير عبدالله من تقريب أبناء الحاجب المنكوب هاشم بن عبدالعزيز وتعيينهم لبعض منهم وزراء دليل على عدم رضا الأمير عبدالله عن سياسة أخيه قبله. ولا عن من كان يعمل معه من الحجاب والوزراء.

٦- كان لأبناء هذه الأسرة دورهم في الحركة الفكرية في الأندلس الأموية بما أنتجوه من مؤلفات في التاريخ واللغة والأدب والطب وغيرها من المجالات إلا أن هذا الدور الحضاري لهذه الأسرة – خاصة في مجال العلوم – لم يظهر بشكل جلي إلا في عصر الخلافة الأموية، وهو ما سوف يتمُّ تناوله في دراسة مستقلة أخرى- إن شاء الله - وإن كان عصر الإمارة الأموية لم يخل من بعض ممن كان له مكانة علمية ظاهرة من أفراد هذه الأسرة مثل عيسى بن شهيد الذي وصفه ابن حيان[١] بأنه من أعيان رجال الموالي في العلم والمعرفة.

ومثل أمية بن عيسى الذي كان صاحب ثقافة أدبية عالية يميز من خلالها جيد الشعر من رديئه[٢].

إلا أن المصادر لم تورد لبني شهيد في عصر الإمارة أي مؤلف علمي خاص، أو دور علمي بارز في هذه الفترة الزمنية، ولعل كثرة المشاغل الإدارية والعسكرية التي تولوها هي التي غلبت في استطراق

(١) المقتبس (مكي)، ص ٨.

(٢) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ١٢٧.

المصادر لذكرهم دون غيرها من الجوانب.

٧- نستطيع القول أن حكم بني أمية في الأندلس قد اعتمد في استمراره واستقراره على جهود عدد من الأسر العربية وغير العربية التي أدناها بنو أمية منهم وركنوا إلى بعض أفرادها في تسيير أمور دولتهم، ومنها أسرة بني شُهيد. وبنو أمية ليسوا بدعاً في ذلك. بل لا نكاد نجد على مر التاريخ الإسلامي أسرة من الأسر حكمت في أي صقع من أصقاع العالم الإسلامي إلا وكان حولها عدد من الأسر التي اصطفتها بالقرب، ووثقت فيها في مساندة الحكم، واعتمدت عليها في تسيير شؤونه. ومن ثمَّ يرتبط مصير تلك الأسر بمصير الحكام ذاتهم في الغالب ولذلك تسعى أمثال هذه الأسر إلى المحافظة على الحكم القائم بكل وسيلة ممكنة، حيث تعلم أن بقاءه بقاء لها ولامتيازاتها.

٨- ورغم المكانة الكبيرة التي حظي بها بنو شهيد لدى حكام بني أمية وما فوضوه إليهم من مهام أعمالهم، وما مكنوا منه من المواقع المؤثرة في القرار- ورغم ما أُثر عن أكثرهم من حسن السيرة والعلم والورع. إلا أننا لم نجد لهم – فيما اطلعنا عليه من مصارد- أي موقف يعارضون فيه، أو حتى يحتجون فيه على أي من قرارات الحكام من بني أمية – خاصة ما كان فيه صلف وتجنى مثل – هدم حي الربض من قبل الحكم، أو فرض الضرائب على التجارات والأموال التي قام بها البعض منهم، أو الاستهانة بالدماء وقتل الأبرياء.

وكأن بني شهيد غلَّبوا المحافظة على مكانتهم ومنزلتهم، والحرص على ما كسبوه من مناصب، واحتجنوه من أموال ومكتسبات متنوعة، على مخالفة أو معارضة أي من القرارات الخاطئة التي صدرت من بعض حكام بني أمية، ولعلهم رأوا أن طريقهم إلى البقاء يكمن في إرضاء الحكام وموافقتهم.

وليس معنى هذا أنهم لم يقفوا ضد الظلم، وينصروا المظلوم، ويردعوا الظالم حينما كان ذلك في أيدهم – بحكم المواقع التي تولوها- مثل ولاية المدينة، فقد مر أعلاه ما يثبت ذلك ويبينه، غبر كل ذلك يتعلق ببعض العاملين – من ولاة أقاليم أو وزراء ونحوهم – ولم يتعلق بأي قرار صادر عن الأمير الأموي مباشرة، مع أن بعض تلك القرارات الشديدة صدرت من الحكام وبعض بني شُهيد في السلطة، بل بهم أصحاب نفوذ وجاه عريض، ولم تورد لهم المصادر أي اعتراض أو احتجاج أو نحوه.

٩- ورغم ما حققه بنو شُهيد من نفوذ وسلطة في عصر بني أمية – خاصة الناصر والحكم – إلا أن المصادر لم تورد أي شيء واضح يدل على سوء استغلال لهم لهذه المكانة والسلطة التي أصبحت في أيديهم للتطاول على أموال الناس أو ممتلكاتهم – كما هو الحال مع بعض أفراد الأسر الأخرى الذين كان لهم بعض النفوذ والسلطة[1].

(١) مثل: الوزير عيسى بن سعيد القطاع . (وزير ابن أبي عامر) وغيره .. ومثل الوزير هاشم بن عبدالعزيز. انظر مناقشة مستفيضة عن نكبة هذا الوزير وأسبابها في: محمد أبا الخيل،

وبعد.. فهذا ما أسعفت به المصادر التي تمكنت من الاطلاع عليها من مادة علمية تكشف الدور الذي اضطلع به بنو شُهيد في عصر الإمارة الأموية في الأندلس من سنة ١٣٨-٣٠٠هـ/٧٥٥-٩١٢م وما تولوه من مهام، وما تسنموه من مناصب، وما تحقق لهم من ظهور وبروز في ذلك العصر، وانعكاساته عليهم وعلى من التصق بهم، أو التجأ إليهم، فضلاً عن ما قدموه للوجود الإسلامي في الأندلس بصفة عامة، ولبني امية بصفة خاصة من جهود وخدمات.

هذا والله أعلم، والحمد لله أولاً وآخرا.

=

الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، ص ٥٧-٦٠.

مصادر ومراجع البحث

١- ابن الأبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م).
- الحلة السيراء. تحقيق : حسين مؤنس، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م.
٢- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت : ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
- الكامل في التاريخ، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٣- الإدريسي : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الحسني المعروف بالشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ).
- نزهة المشتاق في افتراق الآفاق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٤- ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت : ٥٤٢هـ/١١٤٧م).
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : احسان عباس، ط١، مؤسسة الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.
٥- ابن حزم : علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت

٤٥٦هـ/١٠٦٣م).
- جمهرة أنساب العرب، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- رسائل ابن حزم، تحقيق : إحسان عباس، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م.
٦- الحموي : أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
- معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٤٢٠هـ/١٩٨٤م.
٧- ابن حنبل : أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ/ م)،
- مسند الإمام أحمد، بيروت، دار الفكر، (د.ت).
٨- ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م).
- السفر الثاني من كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق : محمود علي مكي، مركز الملك فيصل، ط١، ١٤٢٤هـ.
- المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق : محمود علي مكي، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.
- المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق : إسماعيل العربي، ط١، المغرب، دار الآفاق، ١٤١١هـ /١٩٩٠م.
٩- الحميدي : أبو عبدالله محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ /١٠٩٥م).
- جذوة المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق : إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م – ١٩٨٤م.

١٠- الحميري : أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت حوالي ٧٢٧هـ/١٣٢٦م).
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.
١١- ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي (ت ٥٢٩هـ/١١٣٥م).
- مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق : محمد علي مشوايكه، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٢- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦هـ/١٩٧٤م).
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.منشور تحت عنوان «تاريخ اسبانية الإسلامية» تحقيق : ليفي بروفنسال، ط٢، بيروت، دار الكشوف، ١٩٥٦م.
١٣- ابن خلدون :
- تاريخ ابن خدلون، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٤- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٠م.

١٥- ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ).
- المطرب من أشعر أهل المغرب، تحقيق : إبراهيم الأبياري، وحامد عبدالمجيد، وأحمد أحمد بدوي، ط١، القاهرة ١٩٥٤هـ.
١٦- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م).
- سير أعلام النبلاء، تحقيق : صالح السَّمر، ط٨، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٧- ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).
- المغرب في حلى المغرب، تحقيق : شوقي ضيف، ط٣، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
١٨- ابن شهيد : أحمد بن عبدالملك بن شهيد (ت : ٤٢٦هـ).
- رسالة التوابع والزوابع صححها وحققها وشرحها.. بطرس البستاني، بيروت، دار صادر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
١٩- الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت : ٥٩٩هـ/١٢٠٢م).
- بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، تحقيق : إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
٢٠- الطبري : محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠هـ /٩٢٢م).
- تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٣٧٩م.
٢١- ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد

٧١٢هـ/١٦٣١م).

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق : ج.س كولان وليفي بروفنسال، ط٣، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٢- ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ).

- تاريخ دمشق، دراسة وتحقيق : عمر بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت).

٢٣-ابن غالب : محمد بن أيوب الأندلس (ت : في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي).

- فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق :لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٩٩٥م.

٢٤- ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر (ت : ٣٦٧هـ/٩٧٧هـ).

- تاريخ افتتاح الإندلس، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٨٤م.

٢٥- ابن الكردبوس : أبو مروان عبدالملك التوزري (عاش في القرن ٦هـ/١٢م).

- تاريخ الأندلس : وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق : أحمد العبادي (مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧٤م).

٢٦- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ).

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٧- المقري : شهاب الدين أحمد التلمساني (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب... تحقيق : يوسف البقاعي، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٨- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١هـ).
- لسان العرب، ط٣، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢٩- أبو يعلى : محمد بن الحسين الفراء (ت ٤٥٨هـ).
- الأحكام السلطانية، تصحيح : محمد حامد الفقي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

المراجع

١- الألباني : محمد ناصر الدين الألباني :
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ط١، بيروت، المكتب الإسلامي١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢- أبا الخيل محمد بن إبراهيم.
- الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ط١، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ.
٣- أبو الفضل : محمد احمد.
- دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، الاسكندرية، دار المعارف، ١٩٩٦م.
٤- بوتشيش : إبراهيم. (لم يضمن بعدُ).
- أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (٣١٦ – ٣٥٠هـ)، دار عكاظ، (د.ت).
٥- الحجي : عبدالرحمن بن علي.
- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة ٩٢-٨٩٧هـ/٧١١- ١٤٩٢م. ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٦- الخلف : سالم بن عبدالله.
- نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس. ط١، مطبوعات

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧- سالم : السيد عبدالعزيز.

- المساجد والقصور في الأندلس. الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م.
- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٥م.

٨- الصلابي : محمد علي الصلابي.

- الدولة الأموية : عوامل الإزدهار وتداعيات الانهيار، ط١، مصر، دار اليقين للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

٩- مؤنس : حسين مؤنس.

معالم تاريخ المغرب والأندلس. ط١، القاهرة، دار مطابع المستقبل، ١٩٨٠م.